



مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة والأمانة لشوامخ الكتب العالمية

رَمِيَّةٌ وَخَبْرٌ!

من أشدع روايات
الكاتب والفيلسوف الروسي الغالي: ليون تولستوي

СОЧИНЕНИЕ
ЛЬВА ТОЛСТОГО

ПОЛИКУШКА
ДВА ГУСАРА



R
89
T6

لیو تولستوی

دم.. و خمر!

العبید ضمیر! (بولیکوشکا)
فارسات.. وعذراء!



СОЧИНЕНІЕ
ЛЪВА ТОЛСТОГО
ПОЛИКУШКА
ДВА ГУСАРА

۲۰۰ صفحه - ۱۰ قروش

مجموعة كتابي

(الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وسبعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابي : ١٤ شارب ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجنود) ، ومن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد : العاشر ولتمه عشرون قرشا والاعداد ١٢ ، ١٦ ، ١٧ وابتداء من العدد ٢٥ ، فمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . اما الاعداد الستة الاولى والعدد العشرون فقد نلقت ، والادارة مستعدة لشراؤها . الاشتراكات : من سنة (١٢ عددا) : في مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفي العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازي ١٤٠ قرشا مصريا وفي الكويت وعين وحضرموت واليمن وقهرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفي ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوي . ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : في مصر والسودان بالازر بريد عادي ، وفي الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات عليه . واذا لم ترسل كويونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها في مصر ، علما بان الكويونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابي

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخطنة ، حياة امرأة (جزآن) الخطينة الاولى ، اوديب ، مدام بوفاري ، (جزآن) ، عاشقات في الحريف ، قلوب ضالة ، ديكاميون ، الظالم المحب ، جن اير (ثلاثة اجزاء) ، فانتات الرجال ، رجال ونساء ، الثار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، اسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة اجزاء) بوشكين ، اعترافات جان جاك روسو (٥ اجزاء) ، قصص من الصين ، زبالي بلزالك ، الايلة (٣ اجزاء) ، قصص من روما ، المسبحة (جزآن) ، سفينة الملذات .

ومن النسخة ١٠ قروش ، والاعداد ١ و ٤ و ٧ و ١٩ و ٢٢ فمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ و ٢٨ و ٣٢ - ١٢ قرشا ، والاعداد ٢ و ٥ و ٦ - ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل اجر البريد المسجل عن كل عدد .

مطبوعات

كتاب

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

صار الكتب



منهج الفكر عند العرب

الكتاب الثانى والاربعون

دم ٠٠ وخمسة!

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الإدارة : عمارة الجنيدول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

علاق جبار .. يفيض حبة وسلاما !

عزيزى القارىء :

.. وأخيرا ، جاء دور العلاق .. دور « ليو تولستوى » ،
علاق الادب العالمى ، لا الادب الروسى وحده .

ولقد ظللت طويلا أصعب الى ان اقدم لك شيئا من انتاج
« تولستوى » ، فهو ثروة غالية ، ثمينة ، لا ينبغي ان تخلو
منها مكتبة اى قارىء ، فى اى بلد .. ولكن اكبر عملين ضخمين
فى حياة « تولستوى » الكاتب ، هما : « الحرب والسلام »
و « أنا كارنيينا » .. وكل منهما تقتضى ترجمته - ترجمة أمينة
كاملة ، كما هى رسالة « مطبوعات كتابى » - افراد اعداد ،
واعداد متتابة .. ولقد حدثتلك فى العدد ٦١ من « كتابى »
كيف ان « الحرب والسلام » تتألف من ألف وخمسمائة
صفحة ، فالترجمة الحرفية لها ، كفيلة بأن تشغل اعداد
« مطبوعات كتابى » لعشرة أشهر على الاقل .. لذلك وجدتني
مضطرا الى ان أكتفى بتلخيصها لك فى ذلك العدد من « كتابى » ،
كما لخصت لك قبلها « لحن كرويتزر » فى العدد ٣٠ .

ولكن الفكرة ظلت تراودنى باستمرار .. ان « مطبوعات
كتابى » تظل ناقصة ما لم تتضمن شيئا من الحاج هذا العبقري
الجبار . وأقبلت أقرأ كل انتاجه ، عسى ان أجد منه شيئا يمكن
تقديمه فى نطاق « المطبوعات » دون اختصار ، أو مسخ ، أو
تشويه .. وكان لا بد لهذا الانتاج المنشود ، من أن لا يكون
قد ترجم الى العربية من قبل ، ليكون مفاجأة طيبة لك ،
وليكون فى السبق الى ترجمته تعويض لك عن « أرجاء » تقديم
شوامخ « تولستوى » ..

واقول « ارجاء » متعمداً ، وعن قصد .. فان الفكرة لا تزال تراودنى ، وتلح على .. ولا ازال واسرة « كتابى » ندرس معا ، كيف يمكن ان تقدم لك هذه الشوامخ ، التى لم تترجم كاملة من قبل .. فمن الصحيح ان « الحرب والسلام » و « انا كاريننا » و « لجن كرويتزر » و « البعث » .. من الصحيح انها - او بعضها - قد ترجم الى العربية ، ولكن جميع هذه الترجمات لم تكن كاملة ، لضخامة حجم المؤلفات الاصلية !

فاشل فى صغره .. عبقرى فى كبره !

• والى ان يتم تحقيق هذا الحلم الجميل ، اقدم لك - من انتاج تولستوى - القستين الطويلتين اللتين يضمهما هذا العدد من « مطبوعات كتابى » ، واللتي ترجمهما الزميل محمد بدر الدين خليل

على اننى قبل ان اذكر لك كيف تم اختيارهما ، احب ان اقدم لك حديثا سريعا عن « تولستوى » نفسه .. الكاتب والفيلسوف الذى اجمع النقاد واهل الادب ، فى جميع البلدان ، وعلى مر الاجيال ، على انه من اعظم الخالدين فى تاريخ الادب والقصة .

ولد « ليو نيكولايفيتش تولستوى » فى سنة ١٨٢٨ ، فى اسرة نبيلة ، عريقة المحتد .. اذ كان ابوه « كونت » ، وكانت امه اميرة ، وكانت املاكهما شاسعة ، وثروتوهما عظيمة . وقد ذاق « ليو » مرارة التيتيم ، وهو فى التاسعة من عمره ، ولكن اقرباء له اشرفوا على تربيته وتعليمه ، حتى اذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، التحق بجامعة « قازان » ، حيث درس اللغات الشرقية والقانون .. بيد انه لم يلبث ان انصرف الى اللهو ، فلم يتم دراساته ، والتحق بالجيش فى سنة ١٨٥١ . وقد قدر له ان يكون بين ضباط لواء المدفعية فى (القوقاز) ، وكان احدا

المدافعين عن مدينة (سيباستبول) في حرب القرم ..
على أنه لم يلبث أن استقال من الجيش ، وقضى أربعة
أعوام يجوس خلال أوروبا الغربية ، حيث درس أساليب
التربية . بيد أن احتكاكه بالمدرسة الغربية ، جعله يستنكرها
ويشتمز منها ، إذ لمس أن المادية لها ، والزيف والاصطناع
مظهرها . لذلك عاد إلى ضياع أسرته في (ياسنايا بوليانا) ،
حيث أنشأ مدرسة لتعليم أبناء القلاحين
« صوفيا أندرييفنا يهرس » ، التي أنجبت له ثلاثة عشر ابناً
وابنة ، والتي كانت عوناً له في أعماله الأدبية ، وكثيراً ما كانت
تنقل له مؤلفاته بخطها . حتى ليقال أنها نسخت له « الحرب
والسلام » سبع مرات !

يتجرد من متاع الدنيا !

• وخلال هذه الفترة - التي امتدت من سنة ١٨٦٣ إلى
سنة ١٨٧٧ - تفرغ « تولستوى » للأدب ، وكتب خير إنتاجه
القصصى .. قصصاً أجمع أهل الأدب - في العالم بأسره - على
أنها كنز ثمين . بل أن قصته « الحرب والسلام » اعتبرت
« الرواية القومية لروسيا » .

وبعد سنة ١٨٧٩ - أي بعد أن فرغ من « أنا كارينينا »
بعامين - بدأ يستعرض حياته ، وينتقد الأسلوب الذي جرت
عليه . واستبدت به نزعة روحية بلغت ذروتها في سنة ١٨٨١ ،
حين أقبل على الدين ، وراح يمارس طقوسه وينفذ تعاليمه
ويلبى إليها ، ويشرح بأن « السعادة الحقة لا تتحقق إلا إذا
جرد الإنسان نفسه من كل المظاهر الزائفة للحضارة ، وارتد
إلى فطرته ، ورد الكنيسة إلى أصولها المسيحية الأولى ،
وسار على هدى الضوء المنبعث من أعماقه ، والذي يقوده إلى
حب أخوته من بنى البشر » . وكرس « تولستوى » قلمه
لهذه الدعوة ، فأصدر طائفة من المؤلفات والكتيبات الدينية ،



ليو تولستوى
في صدر شبابه

تدعو الى المحبة والسلام ومحو
الفقر ، ونزول الاغنياء عن
بعض مآلهم للفقراء .. فسبق
بذلك الحركة الاشتراكية في
بلاده . وقد بدأ بنفسه ، فوزع
أرضه على الفلاحين ورقيق
الأرض ، وتجرد من متاع الدنيا !
على أن تطرفه في دعوته ،
أوغر عليه صدر الكنيسة
الارثوذكسية الروسية ،
فأصدرت قرارا بحرمانه في
سنة ١٩٠١ . ولكن هذا لم يقل
من روحه ، ولم يشنه الرسالة
الروحانية التي آلى على نفسه أن يؤديها !

زوجته تطلق الرصاص على صورة ابنتها !

• ولكن الحرمان من الكنيسة ، لم يكن كل ما أصابه من
جرائم دعوته . فقد نكح بحرمان آخر .. الحرمان من حب
زوجته ! .. فقد كان تخلصه من ثروته وأملكه سبب شقاق
أحبال حياتهما - التي كانت من قبل نعيما هائلا ، بكل ما للكلمة
من معنى - الى جحيم لا يطاق .. وقد انضم أولاده جميعا
الى أمهم ، عدا ابنته الصغرى « الكسندرا » التي ظلت تنصره ،
وتلازمه ، وتعمل كسكرتيرة له . ومن العجيب أن هذا أثار
غيرة أمها ، حتى أنها طردتها من المنزل ، ثم اندفعت الى
حجرتها ، وأطلقت الرصاص على صورتها ! ..

الى هذا الحد بلغ الامر بزوجته ! وكانت تصاب - حين
يعارضها - بنوبات هستيرية ، وتهدهد بالانتحار ! .. ولكنها
- في أحيان أخرى - كانت تذكر جبهما لاخفى ، فترجع عند

قدميه ، وتلحف في الرجاء أن يقرأ لها العبارات الغرامية التي كتبتها عنها في يومياته - قبل أربعين عاما - فكانا يبكيان معا ، وهما يستعيدانها !

على أن حنقها عليه اشتد بعد أن أصر على أن يهب الشعب الروسى حقوق نشر كتبه بدون مقابل . ولم يعد يحتمل نوباتها حين بلغ الثانية والثمانين .. وفى ليل ٢١ أكتوبر سنة ١٩١٠ ، هرب من بيته - وابنته الكسندرا ترافقه - وانطلق هائما على وجهه فى الظلام والبرد الزمهرير .. وبعد احد عشر يوما ، مات بالتهاب رئوى ، فى محطة (استابوفو) للسكك الحديدية .

تسع قصص تهجد للشوامخ

• **والآن ،** تعال أحدثك عن القصصتين الطويلتين اللتين ستقرأهما ، فى هذا العدد :

لقد كان اختيار المادة من أصعب الامور ، اذ أن روائع « تولستوى » قدمت لك من قبل ، وان لم تكن كاملة او دقيقة .. كما أن البحث عن تحف جديدة ، لم يسبق أن نقلت اليك بالعربية ، كان كالبحث عن ابرة وسط كوم من التبن ! وأخيرا ، ظهر أن « تولستوى » كان قد وضع - قبل أن يفرغ لكتبه الضخمة - تسع قصص ، بين قصيرة وطويلة ، تناول فى بعضها أحداثا من صميم حياته مزجها بالخيال ، وتناول فى اثنتين منها حياة الرقيق فى روسيا .. فقد كانت هناك - فى تلك الحقبة - من العهد القيصرى - طبقة مستعبدة ، لا تختلف كثيرا عن الطبقة التى عهدناها يوما فى ريفنا - فى بعض العهود المظلمة - اللهم الا فى أنها كانت ترسف فى مزيد من النل والهوان .. تلك هى طبقة الرقيق : رقيق الارض ، الذى كان يعيش على اراضى الاسرات الاقطاعية ، فهى تستنزف دمه

وقواه وحيويته ، في سبيل زيادة ثرواتها .. ورقيق البيت ، من أبناء الجوارى والعبيد ، الذين لا سبيل لهم في الحياة في مجتمع سادس الظلم والفوضى ، إلا بالبقاء في أسار السادة !

القصة التي أذهلت « تورجنيف »

• وكانت « للعبيد ضمير ! » - أو « بوليكوشكا » ، كما أسماها تولستوى - هي أقوى هاتين القصتين .. وهي صورة لنحياة ربما شبيهتها أجيال قبلنا في بعض البلاد العربية ، ولكنها بالنسبة لجيلنا ، صورة جديدة ، طريفة ، تحرك أقسى القلوب الانسانية صلابه ، وتعلو من قدر الكرامة والعزة البشرية التي كانت كامنة تحت مظاهر الذلل والاستكانة ! .. انها تبين كيف أن الرقيق بشر ، يستطيع أن يتوب بعد ضلال ، وأن يستقيم بعد تخبط .. فلما أبت الظروف إلا أن تظهر بطل القصة بمظهر يفقده ثقة مولاه ، وإيمان زوجته به ، وتقدير زملائه ، قضى على خياله !

ولست أملك أن أقول في هذه القصة أبلغ مما قاله « ايغان تورجنيف » ، وهو الآخر من أعمدة القصة الروسية :

« قرأت قصة تولستوى « بوليكوشكا » ، فأذهلتني قوة موهبته الهائلة .. وإن فيها لصفحات من أروع ما كتب حقاً . انها لترسل قشعريرة باردة في ظهري ، رغم ما تعرفه من أن ظهري قد أصبح أكثر سمكا وصلابة .. انه لاستاذ ! استاذ ! »

أما القصة الثانية : « ضابطان وعذراء » - لو « ضابطان من الفرسان » كما أسماها - فلها في حد ذاتها قصة .. إذ أن القصص الاولى لتولستوى - في تلك الحقبة التي بدأ فيها استقراره في أملاك أسرته - كانت مستمدة من تجاربه وحياته الخاصة ، دون أن تتعلق برسالة معينة .. فلما أقدم على كتابة هذه القصة ، كان قد بدأ يهتم برسالاته في الادب الروسي ،

فجعل لها نطاقا خاصا خارج نطاق تجاربه الشخصية .

دم وخمر .. بلا حساب !

• ولقد تسألنى - ومن حقك أن تسأل - لماذا اخترت لهذا العدد من « مطبوعات كتابى » ، الذى ضم القصتين ، اسم « دم .. وخمر ! » .. والجواب بسيط .. فإن القصتين تصوران حقبة من تاريخ روسيا ، لم يكن فى تلك البلاد شيء يراق باسراف ، ودون حساب ، قدر : الدم والخمر .. دم الرقيق والفلاح .. تلك الطبقة المستعبدة ، التى كان زمامها فى أيدي الاقطاعيين .. وهو « دم » لا يقتصر على ذلك السائل الذى يجرى فى العروق فحسب ، بل يضم أيضا الدمع ، والعرق ، وعصارة الحياة .. ثم ، الخمر التى كان السادة يسرفون فى اراقتها ليزدادوا انسياقا وراء لهوهم وعيبتهم ، كما كان العبيد يفرقون أنفسهم فيها ، لئى ينسوا .. ينسوا كل شيء !

وبعد .. اظننى احتجزتك طويلا من نبع « تولستوى » النмир . فلأرفع القلم ، لأتركك تغترف من هذا النبع !

الحرر

للعبید ضمیر!

(بوٹیکوشکا)





(١) سيدة الضيعة

• أنت صاحبة الكلمة ياسيدتى ، فالامر لك ! .. كل ما هنالك انه سيكون من دواعى الرثاء ان يقع الخيار على آل «دوتلوف» .. كلهم صالحون ، ولا بد من ان يذهب احدهم ، ما لم نرسل واحدا من رقيق البيت ، على الاقل !

وسكت وكيل الاعمال لحظية ، ثم اردف : « وهذا ما يلزم اليه كل امرئ .. ولكن الامر رهن بمشيئتك ياسيدتى ! » .

ووضع يمينه على يسراه فوق صدره ، ومال برأسه على كتفه اليمنى ، وجذب شفثيه الى الداخل ، موشكا ان يحدث صوتا مسموعا (مضمصة) ، وصعد بصره الى اعلى ، ولم يزد على ما قال ، بل بدا انه اعتزم ان يلزم الصمت طويلا ، وان ينصت - دون رد - الى كل لغو كان من المؤكد ان يصدر عن مولاته !

وكان وكيل الاعمال الحليق ، الذى ارتدى سترة طويلة ، صيغت على نمط خاص يليق بوكيل الاعمال ، والذى جاء فى تلك الليلة من ليالى الخريف ، ليعرض امرا على مالكة زمائه .. كان وكيل الاعمال هذا ، عبدا من رقيق البيت ، بحكم مولده ! .. وكان (عرض الامر) - من وجهة نظر السيدة - معناه الانصاف

الى حديث عن امر يجرى في ضيعتها، واصدار تعليمات للمضى في العمل . اما من وجهة نظر « ايجور ميخيلوفيتش » - وهو رئيس الخدم - فان « عرض الامر » كان يتطلب الوقوف معتدلا ، واصابع قدميه مرفوعة الى اعلى ، في ركن مواجهه للأريكة . مع الانصات الى كل ألوان الثرثرة المتبورة العبارات، والعمل بمختلف الطرق والوسائل على تهيئة ذهن السيدة لكي تقول بسرعة ونفاد صبر : « حسننا ! .. لا بأس ! » . ولكل هذا كان « ايجور ميخيلوفيتش » قد رسم خطته ! .. وكان « الامر » المعروف هو تعيين المجندين . فقد كان على ضيعة (بوكروفسك) ان تقدم في عيد « بوكروف » ثلاثة افراد ليجنّدوا في الجيش . ولاح ان القدر قد اختار بذاته اثنين منهما بحكم ظروف عائلية واخلاقية واقتصادية . ولم يكن ثمة تردد او نزاع في أمرهما ، سواء من جانب السيدة ، او الحكومة ، او الراى العام . ولكن الذى كان متار الجدل هو : من يكون الثالث ؟

وكان وكيل الاعمال توافا الى ان ينقذ ابناء دوتلوف - الذين كان في أسرهم ثلاثة رجال في سن التجنيد - والى ايفاد « بوليكوشكا » ، وهو رجل من رقيق البيت ، متزوج ، سيمى « السمعة » ، فوجيء - أكثر من مرة - وهو يسرق الاكياس ، وسروج الخيل ، والتبن .. ولكن السيدة - التى كثيرا ما كانت تعطف على اطفال بوليكوشكا في اسماهم ، وتعمل على اصلاح اخلاقه بآيات من التوراة - ابت أن تفرط فيه .. غير أنها - في الوقت ذاته - لم تكن راغبة في ايداء آل دوتلوف ، الذين لم تكن قد عرفتهم ، ولا رأتهم قط . ولكنها - لسبب ما - لم تبد قادرة على ادراك وجهة نظر وكيل اعمالها ، كما أنه لم يقو على ان ينبئها صراحة بأنه لابد لواحد من ابناء دوتلوف ان يذهب ، اذا لم يذهب « بوليكوشكا » ، فقد راحت تقول له في تأثر : « ولكنى لا ابغى سوءا بآل دوتلوف ! » . وكان خليقا بوكيل الاعمال ان

يقول : « ما دمت لاتبغين ، فادفعي ثلاثمائة روبل لبديل ! » (١) .. ولكن مثل هذا الرد كان سياسة خرقاء ، ومن ثم ركن « ايجور ميخايلوفيتش » الى وقفة مريحة حتى لقد استند — دون ان يفتن — الى اطار الباب ، بينما كان يحتفظ بمظاهر الخضوع على وجهه ، وهو يراقب خلجات شفتى السيدة ، ويمجب بحواشي قلنسوتها وظلالها الملقاة على الجدار ، تحت احدى الصور !

ولكنه لم ير من الضروري ان ينتبه لمانى كلمات السيدة ، اذ انها كانت تتكلم طويلا ، وتقول كثيرا .. وتوترت العضلات التى خلف اذنيه ، تحت رغبة واثته فى التثاؤب ، ولكنه تحايل فحولها الى سعال اطلقه وهو يرفع يده الى فمه . ومنذ عهد غير بعيد ، رأت « لورد بالمرستون » (٢) يجلس وقد أرخى قبعته على وجهه ، بينما كان احد أعضاء المعارضة يصب الحميم على الوزارة . وما لبث اللورد ان نهض فجأة ، فرد على المعارض — نقطة نقطة — فى خطاب استغرق ثلاث ساعات . ولم أدهش حين شهدت ذلك ، لاننى رأيت الشيء ذاته يجرى بين « ايجور ميخايلوفيتش » ومولائه ، آلاف المرات ! .. على انه لم يلبث ان القى ثقله على ساقه اليمنى بدلا من اليسرى — ولعله خشى ان ينساق للنعاس ، او ظن ان السيدة كانت تتعمد اطالة الموقف — وشرع يمهّد للحديث بمقدمة مليئة بالرياء ، كما اعتاد ان يفعل دائما : « الامر رهن بمشيئتك ياسيدتى .. على ان ثمة اجتماعا امام نافذة مكتبى الآن ، ولا بد ان نبث

(١) كان من الجائز فى روسيا ان يدفع المجند الميسور الحال مبلغا لشخص آخر يؤدى الخدمة العسكرية بدلا منه . فاذا كان المجند من الرقيق ، وثيسا ، مالكوه ان يحتفظوا به ، دفعوا عنه

(٢) لورد بالمرستون : كان رئيسا للوزارة الانجليزية من سنة ١٨٥٩ الى ان توفى فى سنة ١٨٦٥ ، ومن كبار ساستها فى القرن التاسع عشر

بقرار ، فان الاوامر تقول بأن المجندين يجب أن يكونوا في المدينة قبل عيد «بوكروف» ، وهناك اجماع بين الفلاحين على ترشيح أبناء دوتلوف ، دون سواهم . أما «المير» (١) فليس يشقى بمصالحك ، اذا ما الذى يهمه اذا خربنا بيت آل دوتلوف؟ .. اننى اعرف قسوة الضائقة التى آلت بهم ، فانهم - منذ توليت وكالة اعمالك - يعيشون فى عوز . واليوم وقد كبر ابن اخ الشيخ ، واوشك ان يكون عونا ، اذا بالاسرة تمنى بنكبة ثانية! .. اما أنا ، فكما عهدت ، امين على ثروتك كما لو أنها كانت ثروتى .. وهم - على اية حال - ليسوا اهلانى او اقارب ، ولست اجنى منهم شيئا ..»

فقطعت عليه السيدة حديثه قائلة : « ما هذا يا اجور ؟ .. كنا ما فكرت أنا يوما فى هذا ! » . على انها ارتابت لصورها فى ان يكون قد تقاضى من آل دوتلوف رشوة . فقد واصل حديثه قائلا : « .. ان دارهم هى خير دار فى (بوكروفسك) من حيث العناية والتدبير . وهم فلاحون مجتهدون ، اتقياء ، وكبيرهم شيخ للكنيسة منذ ثلاثين عاما .. فهو لا يشرب الخمر ، ولا يسب ، وانما هو يواظب على الذهاب للكنيسة .. » . وكان وكيل الاعمال يعرف الوتر الذى يحسن أن يضرب عليه ، فقال : « على ان أهم ما أريد ان أعرضه عليك ، هو أنه لم يؤت غير ولدین ، اما الآخرون فابناء أخوة له ، كفلمهم بزا بهم .. ومن ثم فيجب ان يجرى الاقتراع بين الاسرات ذات الرجلين . كم من اسرات تفككت بسبب قلة حكمتها ، فانفصل عنها ابناؤها ، وأصبحوا الآن آمنين (٢) . أما آل دوتلوف ، فسيتعرضون للعناء ، لمجرد أنهم طيبون بارون ! »

(١) العملة او رئيس القوم .. ولعلها تعريف « امير » ، التى انتقلت الى اللغة الروسية عبر القبائل المتاخمة لتركيا والدول الاسلامية

(٢) كان الاقتراع على المجندين يجرى بين الاسرات العديدة الذكور أولا

ولكن السيدة لم تستطع ان تتبع حديثه عند هذه النقطة ،
اذ انها لم تفهم ماذا يعنى بالاسرات « ذات الرجلين » ، ولا
ب « البر » . فننعت بأن تسمع صوته ، وتربق الازرار
المكسوة بالقماش ، فى ستره وكيل الاعمال . كان اعلاها ثابتا
فى مكانه ، ولعله لم يكن يستعمل كثيرا .. اما الاوسط فكان
مدلى ، وكان من الواجب ان يثبت فى مكانه منذ زمن طويل ..
على انه من المعروف ان ليس من الضروري - فى المحادثات
التي تدور حول الاعمال ، بوجه خاص - ان تفهم ما يقال ،
وانما يكفى ان تذكر ما تريد انت ان تقول ! .. وقد عملت
السيدة بهذا ، فقالت : « كيف يتعذر عليك الفهم يا ايجور
ميخاييلوفيتش ؟ .. ليست بى اذنى رغبة فى ان يصبح أحد
ابناء دوتلوف جنديا . كنت اظن ان امرأ يعرفنى - كما تعرفنى
انت - قمين بأن يشهد لى بالرغبة فى ان ابدل ما فى طوقى
لمساعدة رفيق اسرتى ، فانا لا ابغى أن يصيبهم اى ضرر ، بل
اننى على استعداد لان اضحى بكل ما امتلك ، لانهرب من هذه
الضرورة المحزنة ، فلا ارسل دوتلوف او بوليكوشكا ! » ..
ولست ادرى « هل خطر لوكيل الاعمال ان لا حاجة هناك
للتضحية بكل شيء للهروب من الضرورة المحزنة ، وانما كانت
ثلاثمائة روبل كافية .. على ان من المحتمل ان هذه الفكرة
طرات على باله !

- ان اقول لك سوى هذا : ان افرد فى بوليكوشكا ، مهما
يكن الامر . فعندما اعترف لى من تلقاء نفسه - بعد حادث
الساعة - وبكى ، وعاهدنى على الاستقامة ، تحدثت اليه طويلا ،
ورأيت انه كان صادقا فى تأثره ، وفى توبته !

وهنا قال ايجور ميخاييلوفيتش لنفسه : « ها هى ذى تضل
ثانية ! » : وشرع يتأمل الشراب الذى كانت تحتسيه من كوب
من اكواب الماء ، ويسائل نفسه : « اهو عصير برتقال او ليمون ؟

« اظنه لا ذعا قليلا ! » .. بينما استطردت السيدة قائلة :
 « ولقد انقضت سبعة أشهر ، لم يحث فيها مرة ، بل كان رائع
 السليك . ان زوجته تقول لى أنه اصبح رجلا آخر . فكيف
 تريدنى على ان ابعده بعد ان استقام ؟ .. ثم انه من المجافاة
 للانسانية ان تجند رجلا ذا خمسة اطفال ، لا عائل لهم سواء ..
 لا ، يحسن ان لاتزيد فى اللجاج يا ايجور ! » . ورشفت من
 الشراب رشقة ، فراقب « ايجور ميخايلوفيتش » حركة حلقها
 والسائل ينساب فيه ، ثم اجاب باقتضاب وجفاء : « اذن فقد
 استقر رأى على دوتلوف ؟ »

وعقدت السيدة يديها ، وقالت : « كيف لاتفهم ؟ .. افاريد
 بدوتلوف سوءا ؟ اترانى اكن له ضغينة ؟ .. الله شاهد على
 اننى على استعداد لان افع كل شيء من اجلهم .. » . ونظرت
 الى صورة فى ركن الحجرة ، ثم تذكرت انها لم تكن ايقونة ،
 فقالت لنفسها : « لا بأس .. ليس هذا محور الاهتمام ! » .
 ومن الغريب ، ان فكرة الروبيلات الثلاثمائة لم تخطر لها فى هذه
 المرة أيضا ! .. وعادت تقول : « حسنا ، ما الذى املك ان
 افعله ؟ وما درائتى بهذا الامر ؟ .. من المستحيل ان اعرف :
 ومن ثم فاننا اعتمد عليك ، وما قد عرفت رغباتى ، فاعمل على
 ارضاء الجميع ، وفقا للقانون .. ما الذى ينبغى عمله ؟ .. انهم
 ليسوا الوحيدين ، بل ان كل امرئ يتعرض لآوقات عصيبة .
 كل ما هنالك ان ليس من سبيل الى ارسال بوليكوشكا ..
 يجب ان تفهم ان من ابغض الامور على نفسى ان افعل شيئا
 كهذا ! »

وكان الحماس قد تملكها . ومن المحتمل انها كانت على
 استعداد لان تسترسل فى الحديث طويلا ، لولا ان دخلت
 احدى خادمتها الحجرة ، فتحولت تسألها : « ماذا هناك
 يا دنياشا ؟ » فأجاب الخادم : « لقد جاء فلاح ليسال ايجور

ميخايلوفيتش عما اذا كان للاجتماع ان يستمر في انتظاره ! .
ورمقت ايجور ميخايلوفيتش في حلق ، وهى تقول لنفسها :
« يا لوكيل الاعمال هذا ! .. لقد ضايق السيدة ، ومن ثم فلن
تسمح لى باغماضة عين قبل الساعة الثانية صباحا ! »

— حسنا يا ايجور ، اذهب وافعل خير ما فى وسعك !

واجاب الرجل : « سمعا ياسيدتى ! » . ولم يعد الى الحديث
من دولوف ، وانما تساءل : « من الذى يذهب الى الموكل
بالبستان ، لياتى بالنقود ؟ » . فقالت السيدة : « ألم يعد بيتر
بعد من المدينة ؟ » . فاجاب : « لا ياسيدتى » . وسألته :
« الا يستطيع نيكولاس ان يذهب ؟ » . فقالت دنياشا : « ان
ابى مريض ، يشكو من ظهره ! » . وتساءل وكيل الاعمال :
« اأذهب أنا غدا يا سيدتى ؟ » . ولكن السيدة قالت : « لا يا ايجور ،
فانك مطلوب هنا » . وفكرت قليلا ، ثم اردفت : « كم المبلغ ؟ »
— اربعمائة واثمان وستون روبل ..

فقالت السيدة ، محمقة فى وجه ايجور ميخايلوفيتش
باصرار : « ارسل بوليكوشكا ! » . وبسط الرجل شففيه فى
شبه ابتسامة ، دون ان يكشف عن اسنانه .. ولم تتبدل
اسارير وجهه . وقال : « سمعا ياسيدتى ! » . فقالت : « ارسله
الى هنا ! » . فقال وهو ينصرف الى مكتب المحاسبة : « سمعا
ياسيدتى ! »

(٢) بوليكوشكا .. بيطرى بالسليقة !

هـ لم يكن لبوليكى — او بوليكوشكا ، كما كان ينادى عادة ،
من قبيل الاحترار — أى اعتبار لدى حارس الدار ، ولا رئيس
الخدم ، ولا وكيل الاعمال ، ولا وصيفة السيدة . اذ انه
كان رجلا قليل القيمة ، ملوث السمعة .. ولم يكن من أهل
القرية أصلا . فكان ركنه أسوأ الاركان ، رغم انه أوتى سبعة



افراد في أسرته . وكان المالك السابق قد أمر ببناء هذه الأركان، على النحو التالي : ففي وسط مبنى من الطوب - مساحته حوالي ثلاث وعشرين قدما مربعا - أقيم قرن كبير من الطوب، أحيط بردهة . وكانت أركان المبنى الأربعة تنفصل عن هذه « اللدنة » - كما كان يقيق البيت ينطقونها - بجواجز خشبية، ومن ثم فلم يكن في الأركان فراغ فسيح، لا سيما ركن بوليكي، الذي كان أقربها إلى الباب . . وكان سرير الزوجية - بلحاف من قماش منقوش ، ووسادتين - ومهد يشغله طفل رضيع ، ومنضدة - يجرى عليها الطهو والغسل ، وتوضع عليها كافة أنواع الأشياء المنزلية ، كما كان بوليكي ، الذي كان طبيبا للخيول ، يشغل عليها . واومضة ، وثياب ، وبعض فرايج ، وعجل ، وسبعة أفراد يؤلفون الأسرة . . كل هؤلاء كانوا يملأون فراغ الركن ، وما كان يوسعهم أن يتحركوا فيه ، لولا ربع القرن الذي كان تابعا لهم - والذي كان يوسع الناس أن ينلموا عليه ، وان يضعوا عليه الأشياء - ولولا أنه كان لهم أن يخرجوا إلى درجات السلم . . وهو أمر لم يكن ممكنا ، إذا ما أشتد البرد - في شهر أكتوبر - ولم يكن الأفراد السبعة يمتلكون سوى معطف واحد من فراء الغنم ، يتشاطرونه فيما بينهم . على أنه كان يوسع الأطفال - من ناحية أخرى - أن يدفأوا بالجري، كما كان في استطاعة الكبار أن يدفأوا بالشغل .

وكان لهؤلاء واولئك ان يصعدوا فوق الفرن ، حيث كانت الحرارة ترتفع الى مائة وعشرين درجة فهرنيتية . وقد يبدو ان الإقامة في مثل هذه الظروف بغيفية ، ولكنهم لم يكونوا يحفلون بذلك .. كان يكتفيهم ان يستطيعوا ان يعيشوا !

كانت «اكوлина» - زوجة بوليوكوشكا - تفصل ثياب زوجها واولادها وتحكها ، وتفزل ، وتنسج ، وتبيض النسيج ، وتطهو ، وتخبز في الفرن المشترك ، وتتشاجر وتثرثر مع جارقاتها . وكانت المخصصات الغذائية الشهرية لا تكفي الاولاد وحدهم ، بل تغذي البقرة كذلك . وكان خشب الوقود دون مقابل ، وكذلك العلف للماشية ، كما كان يصيهم بعض التبن من الحظائر ، احيانا . وكانت لهم رقعة صغيرة من الارض ، يستنبتون فيها الخضر .. وقد انجبت بقرتهم عجلا ، كما كان لديهم بعض الدواجن .. وكان «بوليكي» مستخدما في الحظائر للعناية بجوادين فيها ، كما كان يقوم بحجامة الخيل والماشية ، وينظف حوافرها ، ويشرب قروحها ، ويعالجها ببلاسم من ابتكاره . وكان يتقاضى أجره من ذلك نقدا وعينا . كذلك كان بعض شوفان صاحبة الضيعة يتسرب الى حوزته ، وكان احد فلاحى القرية يقدم له عشرين رطلا من لحم الضأن - شهريا - في مقابل كيلين من الشوفان . وكان من الممكن ان تكون الحياة محتملة ، لو لم يكن ثمة اضطراب ومتاعب .. فقد كانت الاسرة في عناء كبير !

كان «بوليكي» قد عاشى - في صباه - في مزرعة لتربية الخيل ، في قرية اخرى . وكان السائس الذى قدر لبوليكي ان يقع بين يديه هو اكبر لص في المنطقة ، وقد انتهى امره الى ان نفي الى (سيبيريا) . وقد دعى «بوليكي» لفترة المران والتدرب ، تحت اشراف هذا الرجل ، ومن ثم اعتاد من صغره تلك «الفسافس» التى لم يستطع في كبره ان يتخلص منها ، رغم انه كان من اليسير عليه ان ينصرف عنها ! .. كان فتى صغيرا ،

ضعيفا ، لا اب له ولا اما ولا اى ناصح أمين يعلمه . ومن هنا جنح الى الشراب ، ولم يعد يحب ان يرى شيئا حوله مهما دون ان يستحوذ عليه . . فما من شيء ، سواء كان عنان جواد ، أو قطعة من عدة الركوب ، أو قفلا ، أو مزلاج ، أو شيئا أهم من ذلك وأعظم قيمة ، الا ووجده له « بوليكى » نفعا لديه ! . . فقد كان ثمة أناس - فى كل مكان - يودون أن يحصلوا على هذا الشيء ، وان يدفعوا ثمنه شرابا أو نقودا . . حسب الاتفاق ! ومثل هذه المكاسب من أيسر الامور ، كما يقول الناس ، فهي لا تحتاج الى تعلم أو مران ، ولا الى جهد ، ولا الى أى شيء . . والذى جرب هذا مرة ، لا يحفل بمصدر للكسب سواء . . ولم يكن ثمة سوى عيب واحد . . فمع انك تحصل على الاشياء بسهولة ، ودون ما كثير عناء أو نفقة ، فتتعم بعيش رغد ، الا ان الامور قد تنقلب فجأة ، نتيجة شر من شخص ما ، فاذا الاخفاق يصيب حرفتك ، والكساد يلحق بتجارتك ، واذا بك تسأل - فورا - ان تقدم حسابا عن كل شيء . . حتى تلعن اليوم الذى ولدت فيه !

وهذا ماجرى لبوليكى ! . . كان قد تزوج ، وانعم الله عليه بحظ طيب . اذ ظهر ان زوجته - ابنة الراعى - كانت موفورة الصحة ، ذكية ، ذات جلد على العمل ، وقد انجبت له طفلا بعد آخر ، اطفالا ملاحا لطافا . . ومع ان بوليكى ظل دائبا على حرفته ، دون ان يصادفه أى سوء . **الا ان الحظ تخلى عنه يوما ، فاذا بأمره يفتضح . . وكانت الفضيحة كلها حول شيء تافه ، اذ كان قد خبا بعض اعنة الخيل الجلدية ، التى كانت ملكا لاحد الفلاحين ، ثم تسنى العشور عليها . . فضرب «بوليكي» من اجلها ، ورفع الامر الى مولاته - سيدة الضيعة - وفرضت عليه رقابة . . وضبط مرة ثانية ، ومرة ثالثة ، متلبسا . . وبدأ القوم يسبونهم ويعيرونهم . . وانذرهم وكيل اعمالها بان يزج به بين المجندين . . ويختسه سيدة الضيعة ، وبكت**

زوجته واصبحت كسيرة الفؤاد. وهكذا ساءت الامور جميعا!
 وكان رجلا ذا فطرة طيبة ، فهو لم يكن سيئا بطبيعته ، وانما
 كان ضعيفا .. كان مغرما بالخمير ، وقد اعتاد الاقبال عليها ،
 حتى لم يعد يقوى على هجرها .. وكانت زوجته تؤنبه - بل
 وتضربه - أحيانا ، اذا عاد اليها ثملا ، فكان يبكي ويقول :
 « ماذا أصنع وأنا رجل منكود ؟ .. فلأفقد عيني اذا أنا لم
 اكف من الخمر .. لن أعود اليها البتة ! » .. وينقضى شهر ،
 ثم يغادر البيت يوما ، فيسكر ، ولا يرى لمدة يومين . واذا ذاك
 يقول جيرانه : « لا بد له من أن يحصل على المال ، لكي يغرب
 به ! » .. وكان يعمد الى الطريقة الميسورة ، ثم لا يلبث أن
 يفتضح أمره !

• وكان آخر مآزقه ناشئا عن ساعة مكتب الضيعة .. كانت
 من ساعات الحائط ، قديمة ، تعطلت من العمل منذ أمد طويل .
 وتصادف أن وجد الباب مفتوحا - من تلقاء ذاته - فدخل ..
 وأغوته الساعة ! .. فأخذها ، وتخلص منها في المدينة . وشاء
 سوء الطالع أن كان صاحب الحانوت الذي اشتراها منه ،
 قريبا لاحدى جوارى المنزل ، فجاء يزورها في يوم عطلة ،
 وحادثها عن الساعة .. وشرع القوم - لا سيما وكيل الاعمال ،
 الذى كان يكره بوليكي - يتحرون ويتقصون ، وكان الامر يعنى
 كلا منهم ! .. وانكشف الامر ، ورفع الى السيدة ، فارسلت
 تستلعي « بوليكي » ، فاذا به يرتدى على قدميها تنوءه ،
 ويعترف بكل شيء - في لهجة مؤثرة - كما اوصته زوجته أن
 يفعل ! .. واحسن تنفيذ تعليمات زوجته بحنانها ، فأخذت
 السيدة تفرغه ، ثم أخذت تعظه .. ومضت تتكلم ، وتتكلم ،
 مذكرة آياه بالله ، وبلاستقامة ، وبالحياة الآخرة ، وبالزوجة
 والاولاد ، حتى أثرت في نفسه ، وأدفعت بعينيه .. ثم قالت :
 « اتنى أصفح عنك ، على أن تعدنى بأن لا تعود اليها ثانية ! »

فقال بوليكي ، وهو ينشج بيكاء مؤثر : « أبدا لن أعود
ما حييت .. أو فلاهلك ، ولتنفجر أمعائى ! »
وعاد بوليكي الى داره ، فقضى يومه مستلقيا على الفرن ،
وهو يجهش بيكاء أشبه بخوار العجل .. ومنذ ذلك اليوم لم
يؤخذ عليه أى مأخذ . بيد أن حياته لم تعد ممتعة ، فقد ظل
القوم ينظرون اليه كلكس ، حتى اذا اقترب موعد التجنيد ،
أخذ كل امرئ يومئذ اليه !

ولقد كان بوليكي طبيبا للجياد ، كما قدمنا .. اما كيف
أصبح كذلك فجأة ، فهذا ما لم يدره أحد ، ولم يدره هو بوجه
خاص ! .. اذ كان واجبه الاوحد فى مزرعة الخيل - حيث
كان يعمل تحت امرة رئيس حراس انتهى أمره الى النفى -
أن ينظف الحظائر من الروث ، وأن ينظف الجياد أحيانا ، وأن
ينحمل الماء .. فليس من المحتمل أن يكون قد تعلم المهنة هناك !
.. ثم بات ناسجا ، وعمل - بعد ذلك - فى بستان كان يجتث
الاعشاب من دروبه ، ثم قضى عليه بتكسير الطوب عقابا على
ذنب آتاه ، ثم أصبح حمالا لدى تاجر كان يدفع لخليلته مبلغا
سنويا لتدعه فى هذا العمل .. ومن ثم فمن الواضح أنه لم
يكن ممكنا أن يحظى بأية خبرة بأعمال البيطرى هناك أيضا !
.. ومع ذلك فإن شهرته كبيطرى رافع للمهارة - بل خارقها -
بدأت تذيب تدريجا ، وبطريقة ما ، خلال اقامته - آخر مرة -
فى قريته . اذ حجم جوادا مرة أو اثنتين ، ثم أرقده أرضا ،
وراح ينخسه فى خاصرته ، ثم أمر باحكام وثاقه ، وراح يجرح
خصيتيه - والجواد يناضل عبثا - قائلا ان هذا يؤدى الى
« استنزاف الدم المرتد من الحوافر » ! .. ثم أوضع لفلأح
أن من الضرورة - التى لا غنى عنها - فصد الدم من ويريدى
جواده «زيادة فى اراحته » ، وشرع يدق المبضع المثلوم السن،

بمطرقة من الخشب .. وضد - بعد ذلك - جرحا في أسفل
 بطن جواد صاحب فندق القرية بشريحة اقتطعها من شال
 زوجته .. وأخيرا ، راح يمارس علاج كافة أنواع القرح بنثر
 مسحوق الشب عليها ، ثم ترطيبها بمادة من زجاجة لدهنه ..
 وكان - أحيانا - يوصي باعطاء الجواد جرعات من أى شيء يخطر
 بباله .. وكلما ازداد عدد الجياد التى يعذبها ، ويفضى بها
 إلى الموت ، ازداد القوم إيمانا ببراعته وأقبالا بجيادهم عليه !
 وأشعر بأنه ليس لنا - معشر المتعلمين - « يسوع المسيح »
 من « بوليكي » ، فإن الأساليب التى اتبناها لبث الثقة ، هى
 عين تلك التى كانت تؤثر على آبائنا عوالتي لا تزال تؤثر علينا ،
 ولتى ستظل تؤثر على ابنائنا ! .. فان الفلاح الذى ينكب
 على رأس جواده الاوحد - الذى لا يمثل كل ثروته فحسب ،
 وانما هو فرد من أسرته ، فى الغالب - وهو يحملق فى يقين
 وخوف إلى وجه « بوليكي » العابس ، وأسايرره الدالة على
 خطورة شأنه ، وكميه المحسورين من ذراعيه النحيلتين ، وقد
 راح يضغط موقع الداء من الجواد تماما - وبين فكيه خرقة
 مبللة بدواء ، أو زجاجة مليئة بمسحوق الشب ، ثم يقدم فى
 جراحة على شق اللحم الحى - وهو يقول لنفسه فى السر :
 « لسوف يتغلب الحيوان المعوج السيقان على جراحه ويبرا
 منها ! » - فى حين يتظاهر بأنه يعرف أين الدم وأين القيح ،
 وأين رباط العضل وأين العرق ! .. هذا الفلاح الذى يرقب
 كل هذا ، لا يمكن أن يرتاب فى أن « بوليكي » ما كان ليرفع يده
 كي يشق اللحم ، لو أنه لم يكن على دراية بما يفعل ، لا سيما
 وأنه - أى الفلاح - لا يستطيع أن يقدم على شيء كهذا بنفسه !
 .. فاذا حم القضاء ، وانتهى الامر ، فانه لا ينحو باللائمة على
 نفسه اذ أذن للبيطرى بشق لحم جواده دون ما داع لذلك !
 ولست أدري رايك فى هذا ، بيد أننى جربت الامر ذاته مع
 طبيب راح - برجاء منى - يعذب أولئك الذين أعزهم ! ..

ليس الموضع ، وزجاجة الدواء المتسامي (١) ، و « يترنج .. السقاوة .. تفصيل الدم .. المادة » وما إليها .. ليس لكل هذه الكلمات من الاثر ما لكلمات : « العصاب .. والروماتيزم .. والكائنات الحية » ، وما إليها ؟ .. ان الحكمة القائلة : « يقدمون على الخطأ وهم يحلمون » ، لا تنطبق على الشعراء قدر ما تنطبق على الاطباء والجراحين البيطريين !

(٢) في « ركن » بوليكي !



• وعندما اجتمع اهل القرية في العتمة الباردة - التي شابت ذلك المساء من امسيات أكتوبر - لاختيار المجندين وعلان اصواتهم ، امام مكتب ادارة الضيعة ، كان « بوليكي » يجلس على حافة فراشه ، منهمكا في صحن دواء للخيول وضعه على المنضدة وراح يمر عليه بزجاجة .. أما كنه هذا الدواء ، فلم يكن « بوليكي » نفسه يعرفه ! .. كان يتألف من المادة الاكالة المتسامية ، والكبريت الخام ، وأملاح جلوبير ، وبعض انواع العشب التي كان قد جمعها اذ خيل اليه فجأة انها ذات

(١) المادة الكيميائية المتسامية هي التي تتحول اذا عرضت للهواء الى بخار يتصاعد .. وغالبا ما يكون نفاذ المير.

نفع للخيل المصابة بالرياح المحتبسة (١) ، ثم قدر انها لن تكون غير لازمة للاضطرابات الاخرى !

وكان أطفاله قد ناموا : اثنان على الفرز ، واثنان على السرير ، وواحد في المهد الذي جلست « اكوлина » الى جواره تغزل .. وكانت بقية الشمعة - احدى شموع مالكة الضيعة ، لم تلق من الصون ما يبعدها عن يد بوليكي - تحترق في شمعدان خشبي على حافة النافذة ، و « اكوлина » تنهض اليها - من آن الى آخر - فتسوى ذبالتها بأصابعها ، حتى لا يضطر زوجها الى أن يتعطل من عمله الهام . وكان بعض التحررين في الراى يعتبرون « بوليكي » بيطريا غير ذى قيمة ، وانسانا غير ذى شان . ولكن سواهم - وهم الاغلبية - كانوا يعتبرونه انسانا غير ذى شان ، غير أنه استاذ عظيم في فنه .. اما « اكوлина » فكانت تراه طبيب الخيل الاول ، وخير الرجال بلا مراء ، برغم انها كثيرا ما كانت تؤنبه ، بل وتضربه !

ونثر « بوليكي » بعضا من مادة خام على كفه ، اذ انه لم يكن يستخدم الموازين قط ، وقد اعتاد أن يسخر من الالمان الذين يستخدمونها قائلا : « ليس هذا من صنعة العقاقير في شيء ! » .. ووزن « بوليكي » المادة على راحة يده ، فلاح له أن الكمية غير كافية ، فأفرغ عشرة أمثالها من جديد ، وقال محدثا نفسه : « سأضع هذا القدر كله ، ليكون أفضل تأثيرا ! » .. واسرعت « اكوлина » تلتفت عند سماعها صوت زوجها مولاهما وسيدها - مترقة منه امرأ . حتى اذا رأت أن حديثه لم يكن يعنيه ، هزت كتفها ، وجال بخاطرها : « يا للمعرفة ! .. ترى من أين يستقيها ؟ ! » .. ثم واصلت الغزل . وكان بوليكي قد وضع المادة على ورقة ، فاذا الورقة تهوى الى الارض .. ولم يفت ذلك « اكوлина » ، فصاحت : « آنى ، انتبهى ! ..

(١) انتفاخ البطن لاحتباس الغازات الناشئة عن سوء الهضم .

لقد أسقط أبوك شيئاً ، فالتقطه ! »

وابرزت «آنى» ساقىها العاريتين ، الصغيرتين ، الناحيتين ، من تحت المعطف الذى كانت تغطى به ، وانسابت تحت المنضدة كالهريرة الصغيرة ، والتقطت الورقة ، قائلة : « هاك يا أبت ! » . ثم اندفعت عائدة الى السرير ، وقد اثلج البرد قدميها الصغيرتين . وصاحت أختها الصغيرة بصوت رفيع وسنان ، ونطق التبغ : « لا تدفعينى ! » . فتمتمت اكوлина : «لسوف أضربكما ! » . وعاد الرأسان يختفيان تحت المعطف !

وقال بوليكى بعد ان وضع المادة فى الزجاج ، وأحكم سداده : « لسوف يمنحنى ثلاثة روبلات . ولسوف ابرىء جواده . ما أرخص الثمن ! .. انه جهد يفلق الدماغ ! .. اذهبى يا اكوлина فاطلبى من «نيكىتا» قدرا من التبغ ، وسأدفع له الثمن غدا » . وأخرج من جيب بسريره أنبوبة غليون من خشب الليمون - كانت مطلية يوما - وقد انتهت بفوهة (مبسم) من الشمع الاحمر ، وشرع يثبتها فى قصعة الغليون (المكان الذى يوضع فيه التبغ)

وتركت «أكولينا» مغزلهما وخرجت ، وهى تحرص على ان تتفادى كل ما كان فى طريقها . وان لم تكن هذه بالمهمة اليسيرة . وفتح «بوليكى» الصوان ، فوضع فيه الدواء ، ورفع الى فمه زجاجة «فودكا» فاذا بها خالية ، واذا ذلك قطب محياه . حتى اذا عادت زوجته وقد احضرت التبغ ، جلس على حافة السرير ، وحشا غليونه وأشعله ، ثم اشرفت أساريره رضى واعتزازا ، شأن الرجل الذى اتم عمل يومه . وسواء راح يفكر فى غده - وكيف سيمسك بلسان الجواد - ويصعب بواءه ، هذا المزيج القوى ، فى حلقه - أو راح يتأمل كيف ان احدا لا يرفض للشخص النافع طلبا - « ألم تر

بنفسك؟ .. الم يرسل له نيكيتا التبغ ؟! « - فان «بوليكى»
شعر بهناء .

* * *

وفجأة ، دفع الباب الذى كان معلقاً على محور (مفصلة)
واحدة - ودخلت «الركن» خادم من .. «(فوق)» ! ولم تكن
الوصيفة الثانية ، ولا الثالثة ، وإنما الخادم الصغيرة التى
كانت مكلفة بنقل الرسائل . و «(فوق)» - كما يعرف كل
امرىء - يعنى منزل سيدة الضيع ، ولو كان مقاماً على
منخفض من الارض !

ولقد اعتادت «أكسيوتكا» - وهو اسم الفتاة - ان تدخل
فى اندفاع ، مارقة كأنها رصاص ، دون ان تثنى ذراعيها
اللتين كانتا تتحركان فى اتساق مع سرعتها ، وتهتزان كبندول
الساعة ، لا الى جانبيها ، وإنما أمامها ! .. وكانت وجنتها
أشد احمراراً من ثوبها الوردى دائماً ، كما كان لسانها يتحرك
بسرعة ساقها . وقد اندفعت الى الحجرة ، وامسكت بحافة
الفرن ، لسبب ما ، غير معروف ! .. وشرعت تترنج الى امام
والى خلف ، ثم اخذت تخاطب «أكولينا» - وهى قطعة
الانفاس - دون أن تطلق أكثر من كلمتين أو ثلاثاً فى كل مرة ،
على النحو التالى :

« ان السيدة .. اصدرت أوامرها .. بأن يصعد اليها ..
بوليكى توفاً .. أوامرها ان يصعد ! »

ثم امسكت ، والتقطت أنفاسها بعناء ، وعادت تقول :
« لقد كان ايجور ميخايلوفيتش مع السيدة .. وقد
تحدثنا عن الجندين .. وذكرنا بوليكى .. وقد امرت اهدوشيا
نيكولايفنا .. بأن يصعد فى «تو واللحظة» .. هكذا امرت
اهدوشيا نيكولايفنا .. » ، وتنهدت مرة أخرى ، ثم اتمت
عبارتها : « بأن يصعد فى هذه اللحظة .. ! »

واخذت « اكسيوتكا » تكجيل بصرها - لنصف دقيقة - بين بوليكي، واكولينا، والاطفال الذين كانوا قد اخرجوا رؤوسهم من تحت الاغطية .. ثم التقطت قشرة ثمرة من ثمار البندق - كانت على الفرع - ورمت بها « آنى » الصغيرة . وما لبثت ان رددت : « ان يصعد في هذه اللحظة ! .. » . ثم اندفعت الى خارج الحجرة كالاعصار، والبندولان - المثلان في ذراعيهما - يتارجحان كالعادة ، بعرض الاتجاه الذى كانت تندفع فيه ! ونهضت « اكولينا » عن مغزلها مرة اخبرى ، فأحضرت لزوجها حذاءيه .. وكانا حذاءين رثين من احذية الجنود تخللتهما الثقوب .. ثم اخذت سترة زوجها من فوق الفرع، فناولته اياها دون ان تنظر اليه، وقالت : « الا تبديل قميصك يا بوليكي ؟ » . فاجابها : « لا » . ولم تكن « اكولينا » قد نظرت الى وجهه مرة، وهو يرتدى حذاءيه وسترته . وحسنا كانت تفعل بعدم النظر .. ولقد كان وجه بوليكي - فى هذه المرة - شاحبا ، وكان فكه الاسفل يختلج ، وتبدت فى عينيه نظرة دامعة ، وادعة ، عميقة الاسى .. نظرة لا يراها المرء الا فى أعين المساكين ، والضعفاء ، والمذنبين !

ورجل « بوليكي » شعره ، ثم هم بالخروج ، ولكن زوجته استوقفته ، فدست فى صدره رباط شريطه الذى كان مدلى تحت سترته ، ووضعت له قلنسوته على رأسه .. ومن خلف الحاجز الخشبي، انبعث صوت زوجة النجار : « ما هذا يا بوليكي ؟ .. هل ارسلت السيدة فى طلبك ؟ » .. كانت زوجة النجار قد رفعت صوتها فى ذلك الصباح بالذات ، متشاجرة مع « اكولينا » من اجل وعاء الفسيل المصنوع من رماد الفرن ، الذى قلبه اولاد « بوليكي » فى ركن النجار . ومن ثم فقد سرت - فى بداية الامر - اذ سمعت بأن « بوليكي » قد استدعى امام السيدة .. فغالبا ما يكون الاستدعاء لغير خير ! وكانت امرأة ماهرة ، دبلوماسية ، ذات لسان لاذع ، فما

كلن احد ليعرف - خيرا منها - كيف يشطر امرءا بكلمة ..
او هكلنا كانت تتصور ، على الاقل ! .. وقد عادت تقول :
« اتوقع ان توفدك السيدة الى المدينة لشراء اشياء ، فما
اعتقد مهمة كهذه تتطلب سوى من هو اهل للثقة ، ولهذا
فان السيدة تستدعيك ! .. فلعلك تبتاع لى ربع رطل من
الشاي - من هناك - يا بوليكي ! »

وكبحت «اكولينا» دموعها ، وقد راحت شفتاها تختلجان
معبرتين من غضب . واحست بانها تمنى لو استطاعت ان
تمسك « هذه السليطة ، زوجة النجار ، من شعرها الرث
الاكثرت ! » . ولكنها نسيت زوجة النجار ذات اللسان
السليط ، اذ نظرت الى اطفالها وفكرت في انهم قد يصبحون
بلا اب - اذا جند الوهم - كما تصبح هى زوجة جندي ،
لا تكاد تكون احسن حالا من الارملة في شيء ! .. واخفت
وجهها في راحتها ، وجلست على السرير ، واسلمت رأسها
الى الوسائد . فقالت ابنتها اللثغاء ، وهى تجذب المعطف -
الذى كانت تنفطى به - من تحت مرفق امها : « اماء ، انك
تهشمينى ! »

فصاحت اكولينا : « ليتكم تموتون .. جميعا ! لقد انجبتكم
الى الدنيا لغير ما شئ سوى الحزن ! » . واجهشت ببكاء
مرتفع ، مما سر زوجة النجار التى لم تكن قد نسيت بعد
انقلاب وعاء الفسيل فى ركنها ، فى الصباح !

(٤) بوليكي .. مبعوث السيدة الى المدينة !

• وانقضى نصف ساعة .. وشرع الرضيع يبكى ، فنهضت
«اكولينا» ، واقلمته ثديها . وكانت قد كفت عن البكاء ، ولكنها
اسلمت وجهها - الذى ظل محتفظا بوسامته رغم نحوله -
الى يدها ، وثبتت بصرها على الومضات الاخيرة للشمعة



المحتضرة ، وجلست تفكر فيما دفعها الى الزواج ، وتمجب مما يدعو الى طلب جنود بهذه الكثرة ، وتتدبر كيف تستطيع ان تثار من زوجة التجار !

وسمعت وقع قدمي زوجها ، فجففت دموعها ، ونهضت لتفسيح له مكانا يمر خلاله . ودخل بوليكي كما لو كان غائبا مظلوما ، فطوح بقلنسوته على السرير ، ونفخ ، وفك أزرار سترته

— ترى ما الذي كانت تبغيه منك ؟

— أممم ! .. طبعاً ! ان بوليكوشكا هو آخر من يخطر بالبال من الرجال .. ولكن ، عندما تكون ثمة مهمة تحتاج للاداء ، فمن الذي يرتجى لها ؟ .. بوليكوشكا ، بلا شك .. .
— واية مهمة هي ؟

ولم يجد بوليكي داعياً للتعجيل بالرد ، فأشعل غليونه ، وبصق ، قبل ان يقول : « ان اذهب فاحضر نقوداً من احد للتجار »

وهتفت اكلينا متسائلة : « تحضر نقوداً ؟ ! »
فضحك بوليكي — بصوت خافت — وراح يهر رأسه ، قائلاً :
— آه ! .. او ليست السيدة بارعة في اختيار الكلمات ؟ ..
قالت : « لقد كنت معتبراً غير اهل للثقة ، ولكنني اؤتمنك اكثر مما اؤتمن اى رجل آخر » !

وكان بوليكي يتكلم بصوت مرتفع حتى يسمعه الجيران .

وامتطرد قائلا :

— قالت : « لقد وعدتني بأن تستقيم ، فهالك الدليل الاول على اننى اصدقك .. اذهب الى التاجر ، فخذ منه النقود التى هو مدين بها ، واحضرها الى ! » . فقلت لها : « انسا جميعا عبيدك يامولاتى ، ومن واجبنا ان نخدمك كما نخدم الله . ولهذا اشعر بأن بوسعى ان افعل أى شىء لفخامتك ، ولست املك ان ارفض اداء أى عمل .. مهما تكن اوامرك اصنع بها ، لاننى عبيدك ! »

وعاد يتسم من جديد، تلك الابتسامة المنطوية على ضعف واستخذاء، وتلطف، وشعور بالذنب. ثم استأنف الحديث قائلا:
— فقالت : « احسنت .. انن فسوف تؤدي المهمة باخلاص ؟ » .. ثم اردفت : « انك لتعلم ان مصيرك يتوقف عليها ! » فرحت اقول لها : « كيف امجز عن ان ادرك ان بوسعى ان انفذ اوامرك بحذافيرها ؟ .. اذا كانوا قد تقولوا على ، فان كل امرئ يستطيع ان ينسج الاقاويل عن سواه .. ولكنى لم ارفع يوما آية فكرة توحى بأن فخامتك تصدقن هذه الاقاويل .. أو هكذا اعتقد، على الاقل .. » . وقصارى القول اننى رحت ادق فى رفق ، حتى لانت مولاتى تماما .. فقالت : « لسوف احسن الظن بك ! »

ولاذ بالصمت دقيقة ، ثم عادت الابتسامة ترسم على محياه من جديد ، واستأنف الحديث :

— اننى اعرف جيد المعرفة كيف اتحدث الى اسئلتها ! .. وعندها كنت انطلق لاعمل لحسابي — فيما مضى — كان يحدث ان يقسو شخص من طبقتها على ، ولكنى لا اكاد اجتذبه بكلمة لو اثنتين ، حتى اروح «اصقله» الى ان يصبح فى نعومة الحرير !

— وهل المبلغ كبير ؟

فاجاب بوليكي فى غير اكتراث: « الف وخمسمائة روبل ».

وهزت زوجته رأسها ، ثم عادت تسأله : « ومتى أمرت بأن
ترحل ؟ »

— لقد قالت : « غدا .. خذ أى جواد يروق لك ، واذهب
الى ادارة ضيعتى ، ثم انطلق فى رحلتك .. والله معك ! »
فكانت اكولينسا ، وهى تنهض فترسم علامة الصليب على
وجهها وصدرها : « المجد للرب ! » .. ثم اردفت فى همس ،
حتى لا يسمع صوتها خلال الحاجز الخشبى : « وليساعدك
الله يابوليكي » .. وامسكت بكم قميصه ، وقالت ، وهى
ساندة فى همسة : « اصغ الى يابوليكي ! .. استحلفك باسم
المسيح ربنا ان تقبل الصليب حين تشرع فى رحلتك ، وعاهده
على ان لا تمس قطرة من الخمر شفيتك ! »

فقال ساخرا : « امر محتمل ! .. ان أشرب وانا احمل
كل هذه النقود ! .. آه ! ما أبدع العزف الذى كان يوقعه
شخص ما على البيانو ، هناك ! بديع ! .. » . وصمت لحظة ،
ثم ابتسم وقال : « احسبها السيدة الصغيرة .. كنت أقف
هكذا امام السيدة الكبيرة ، بجانب ذلك الذى لا أدريه ، وكانت
السيدة الصغيرة تعزف خلف الباب . وظلت تدور وتدق ،
حتى نسقت بين الاوتار فانسابت فى تناسق بديع ! .. آه ،
ياعجبى ! .. لكم اتمنى ان أعزف لحنا ! .. اننى سرعان ما
أحذق العزف ، وانى بهذا لقمين ! لكم انا بارع فى اجادة مثل
هذا الامر ! .. اعطنى قميصا نظيفا فى الغد ! »
وأويا الى فراشهما سعيدين .

(٥) فى اجتماع الفلاحين

♦ وكان الاجتماع صاحبيا ، خارج ادارة الضيعة ، فى تلك
اللائناء . فان المهمة التى كانوا يعالجونها لم تكن هينة . وكان



كل الفلاحين - تقريبا - حضورا . وبينما كان وكيل الاعمال مع السيدة ، ظلوا مرتدين قلنسواتهم ، وازدادت اصواتهم عددا وارتفاعا . وكانت تتخلل اللفظ العميق - في اويقات نادرة - اصوات مهذجة ، واصوات متحشجة ، واصوات رفيعة ، تملأ الجو ، وتبدو - اذ تنساب خلال نوافذ دار السيدة - كهدير البحر ينساب من بعيد ، فيشير في السيدة انفعالا عصبيا كذلك الذي تحدثه عاصفة مرعدة ثقيلة الوطاة .. انفعالا هو خليط من الخوف وعدم الارتياح . فقد كانت السيدة تشعر كما لو ان الاصوات كانت توشك ان تزداد - في آية لحظة - ارتفاعا فوق ارتفاعها ، وسرعة فوق سرعتها ، ثم يحدث امرها ! .. وراحت تقول في نفسها : « كأنما من العسير ان يجري كل شيء في هدوء وسلام ، بدون نزاع وصياح ، وفقا لشريعة الحب الاخوي والتواضع المسيحي ! » كانت ثمة اصوات عديدة تتكلم في آن واحد ، ولكن صوت « ثيودور ريسون » النجار كان اكثرها ارتفاعا . فقد كان في اسرته شابان مكتملا النمو ، ومن ثم فقد أخذ يحمل على آل « دوتلوف » . وانبرى الشيخ دوتلوف يدافع عن نفسه ، فبرز من بين الحشد الذي كان يقف خلفه - في بادئ الامر - وراح يتكلم مرسلا ناثارا من لعابه ومخاطه ، وهو يبسط ذراعيه أنا ، ويمسك بلحيته الصغيرة أنا آخر ، ويطلق الكلمات بطريقة

كان من العسير عليه - هو نفسه - أن يفهم معها ما كان يقول . وكان ابنه وابن أخيه - وهم جميعا من الشباب الليدع - يقفون خلفه منكمشين ، بينما كان الشيخ أشبه بالدجاجة التى تذود الصقر عن أفراخها . . . وكلن الصقر هو (ويسون) . . . بل إن (ويسون) لم يكن يهاجم وحده «دوتلوف» ، بل رآح يهاجمه معه جميع الرجال الذين أوتى كل منهم فى أسرته شقين مكتملى النمو . . والآباء الذين أوتى كل منهم ابنا واحدا ، وكل المجتمعين تقريبا ! وكانت نقطة الخلاف أن شقيق « دوتلوف » كان قد جند منذ ثلاثين سنة ، ومن ثم فقد رغب «دوتلوف» فى أن تعفى أسرته من دورها - فى التجنيد - بين الأسرات التى أوتيت كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان صالحين للجندية . . وأراد أن تحسب خدمة أخيه فى الجيش لصالح أسرته ، فتمنع بذلك عين الفرصة التى تمنحها الأسرات التى لا يوجد بين أفرادها غير شبابين ، ويجرى الاقتراع بين هذه الأسرات جميعا - على قدم المساواة - ليختار المجند الثالث من بين شبائها . وكانت ثمة أربع أسرات أخرى - الى جانب أسرة دوتلوف - تضم كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان . ولكن أحداها كانت أسرة شيخ القرية ، وقد أعفها سيدة الضيعة . أما الأسرة الثانية ، فكان أحد ابنائها قد جند فى العام السابق . . ومن كل من الأسرتين الباقيتين اختير مجندا ، فى هذه المرة . . بل إن أحد هذين المجندين لم يحضر الاجتماع ، ولكن زوجته وقفت محزونة خلف الآخرين جميعا ، يساورها أمل مبهم فى أن عجلة الحظ قد تتجه نحوها ، بطريقة ما ! . . أما «رومان» ذو الشعر الاحمر ، والد المجند الآخر ، فقد وقف فى سترة مهلهلة - وإن لم يكن فقيرا - ونكس رأسه فى صمت ، وهو يستند الى جدار المبنى ، لا يكاد يتحرك الا ليرمق باهتمام أى أمرىء كان يرفع صوته - من حين الى حين - ثم يعود الى تنكيس رأسه من جديد ، وكأنما كان كل كيانه ينضح بالتعاسة ! . . وأما الشيخ

سمعان دوتلوف ، فقد كان رجلا يستطيع اى امرىء - عرف عنه شيئا - ان ياتمنه على مئات وآلاف الروبلات ، وهو مطمئن . كان رزينا ، تقيا ، يمكن الركون اليه .. وكان شيخ الكنيسة كذلك . وهذا مما جعل الضجيج الذى احاط به - فى هذه المناسبة - يبدو اكثر اثارة للدهشة والعجب !

وعلى العكس منه، كان «ريسون» النجار ، وهو رجل طويل اسمر . فقد كان سكيراً عربيداً ، بارعا جدا فى محاجة العمال والتجار والفلاحين والسادة ومجادلتهم فى الاجتماعات والاسواق . وقد بدا فى الاجتماع معتدا بنفسه، لاذع السخرية، وراح - من علياء طوله - يسحق شيخ الكنيسة المتداعى بكل ما لصوته الرنان من قوة ، وبكل ما اوتى من موهبة للخطابة ، حتى لقد اهتج شيخ الكنيسة واخرج عن وقاره العميق المهود .

والى جانب هؤلاء ، كان « جارسكا كوبيلوف » حاضرا ، وكان احد المتكلمين باسم الجيل الشاب ، اذ لم يكن قد تجاوز مرحلة الشباب . وكان مستدير الوجه، مربع الرأس ، مجعدا شعر اللحية، ربعة القوام . وقد حدا حذو «ريسون» ، وانحاز اليه فى الجدل . وكان قد اكتسب مكانة وقدر فى اجتماعات القرية ، اذ امتاز بخطبه القاطعة الباترة .. ثم ، كان هناك ، « ثيودور ميلنيكنى » . وكان شابا هو الآخر ، طويلا ، رفيعا ، اصفر الوجه ، ملتف الكتفين ، خفيف اللحية ، ضيق العينين ، دائم الهم والاكتئاب، لا يرى سوى الجانب المظلم من كل شىء .. وكثيرا ما اثار الارتباك فى الاجتماعات بما كان يوجهه من اسئلة وملاحظات مفاجئة ، مخرجة !

وقد انحاز كل من هذين الخطيبين - كوبيلوف وميلنيكنى - الى «ريسون» . وكان هناك - فضلا عنهما - اثنان من المهذارين الثرثارين ، راحا ينضممان - بين آن الى آخر - الى الثلاثة .. وكان احدهما يدعى « خرابكوف » ، وقد اوتى وجها

من اكثر الوجوه بشاشة ، ولحية بنيسة مسترسلة ، وقد راح يردد : « آه ، يا صديقي الاعز ! » : اما الآخر ، فهو « زيدكوف » ، وكان شابا قلة في الجسم ، ذا وجه كوجه الطائر ، وقد ظل يردد في كل فرصة : « هكذا الامر فعلا يا اخوتي ! » ، موجهها الحديث الى كل امرئ ، ومتكلما في لباقة دافقة ، دون ان يلزم الموضوع اطلاقا . . . وكان هذان الاثنان قد انحازا - في بادئ الامر - الى احد الجانبين ، ثم ناصرا الفريق الآخر ، ولكن احدا لم يكن ينصت اليهما . وقد كان هناك غيرهما ، ممن على شاكلتهما ، ولكن هذين الاثنين اللذين ظلا يتناقلان خلال الحشد ، ويرفعان عقيرتيهما بالصياح فوق كافة الاصوات - فيشيران الجزع في نفس سيدة القرية - كانا اقل الجميع ظفرا باصغاء الجمع . واذ انتشيا بالضجيج والصياح ، اسلما نفسيهما للذة اطلاق صوتيهما بالجمجمة .

وكان بين اعضاء الاجتماع كثيرون غيرهم ، من ذوى الشخصيات الرصينة ، المحترمة ، وقد وقفوا غير مكترئين ، او مستامين . كما كانت هناك نسوة وقفن خلف الرجال ، وفي ايديهن عصي . . . على اننى سأحدث عنهن في مرة اخرى ، ان شاء الله . وعلى كل حال ، فان الشطر الاكبر من الحشد كان من الفلاحين الذين وقفوا كما لو انهم كانوا في كنيسة ، يتهايمسون - كل من خلف ظهر الآخر - باحاديث عن شؤونهم المحلية ، او عن موعد اقتطاع الحطب من الغابة . . . او كانوا ينتظرون - في صمت - انتهاء الجدل .

كذلك كان هناك فلاحون اثرياء ، ما كان الاجتماع ليزيد من رفاهيتهم او ينقص . من هؤلاء كان شيخ القرية « ارميل » ذو الوجه العريض اللامع ، الذى كان الفلاحون يطلقون عليه « المكزش » لانه كان غنيا . . . ومنهم كذلك كان « ستاروستين » الذى كان وجهه ينم عن رضى ذاتى بقوته ونفوذه ، وكأنه يقول :

« لكم ان تتكلموا ماشاء لكم الكلام، ولكن احدا ان يمسنى !.. ان لى اربعة ابناء ، ولكن ما من واحد منهم سيضطر الى الذهاب! » . وكان هذان الاثنان يتعرضان - بين وقت وآخر - لهجوم من بعض ذوى التفكير المستقل ، مثل كويلوف او ريسون ، ولكنهما كانا يجيبان فى هدوء وحزم ، وباطمئنان الى مناعتهما .

واذا كان « دوتلوف » قد شابه الدجاجة التى تلدود الصقر عن افراخها ، فان فتيانها لم يكونوا يشبهون الافراخ فى كثير . فلم يحوموا حوله ويشقشقوا، وانما وقفوا خلفه صامتين .. كان ابنه الاكبر « اجنات » قد بلغ الثلاثين من عمره فعلا ، كما ان الثانى « فاسيلى » كان رجلا متزوجا . اما الثالث - ابن اخيه « ايليشا » - فكان قد تزوج من عهد قريب .. وكان شابا اشقر ، متورد الوجه ، فى ستره انيقة من جلد الفهم ، اذ كان من سائقى عربات البريد .. وقد وقف ينظر الى الجمع، ويحك - فى بعض الاحيان - رأسه ، تحت قبعته ، وكان الامر كله لم يكن يعنيه فى شيء ، بالرغم من ان الصقور كانت تحوم لى تنقض عليه هو بالذات !

وقال أحد الحضور ، معرضا بما قاله دوتلوف عن تجنيد أخيه : « اذا كان الامر كذلك ، فان جدى كان جنديا، ومن ثم فلى ان ارفض ان اكون بين المقترعين - أنا الآخر - على الاساس ذاته !.. ليس هناك قانون يقر هذا يا صديقى . ففى موسم التجنيد الماضى ، أخذ (ميخيتشيف) بالرغم من ان عمه لم يكن قد عاد من الخدمة بعد ! »

وكان دوتلوف يقول ، فى الوقت ذاته : « لا ابوك ولا عمك قد خدم القيصر يوما . ولماذا نذهب بعيدا ، وانت نفسك لم تخدم سيده الضيعة ، ولا الحكومة ، وانما كنت تقضى كل

وقتك في الحانة !.. لقد انفصل عنك ابناؤك لان من المستحيل عليهم ان يقيموا معك ، ولهذا فأنت تتحمس لترشيح ابناء الغير للتجنيد !.. اما أنا فقد انضويت في خدمة البوليس عشر سنوات ، وخدمت كشيخ للكنيسة . ولقد احترق كل ما كنت املك مرتين ، فلم يعد لى أحد يد العون . فهل يقضى على اليوم بالخراب ، لان الامور تسير في دارى بسلام وتقوى ؟... اعيدوا الى شقيقى اذن ! فقد مات في الخدمة العسكرية ، على وجه التأكيد .. احكموا بأمانة ، وفقا لقانون الرب ، ايها القوم المسيحيون ، ولا تقتصتوا الى هذيان سكير ! »

وفي الوقت ذاته ، كان «جيراسكا» يقول لدوتلوف : «اقتنذ من اخيك حجة ؟» ولكن اهل القرية لم يرسلوه الى الجيش ، وانما ارسله سيد الضيعة ، بسبب اساليبه الشريرة ، ومن ثم فهم ليس بالعذر الذي يعفيك ! »

ولم يكن جيراسكا قيد أتم حديثه ، عندما تقدم ثيودور ميلنيكنى - الاصفر الوجه - وشرع يقول وهو بادى الكتابة : « اجل ، هكذا ينبغى القول .. ان السادة يرسلون الى الجيش بمن يروق لهم ، ومن ثم فعلى القوم ان ينفضوا ايديهم . لقد اجتمع القوم على فتاك ، فاذا لم يرق ذلك لك ، فاذهب واصل السيدة ، فلعلها تأمرنى - أنا الرجل الذى يقول اسرة - بأن اترك اولادى واذهب !.. » . ثم اردف بمرارة : « هالك قانونا يرضيك ! » ، ولوح بيده ، ثم عاد الى مكانه السابق . واذا ذلك ، انتبه «رومان» ذو الشعر الاحمر - الذى كان ابنه أحد المجندين اللذين تم اختبارهما - فرفع رأسه وغمغم : « هو كذلك !.. هو كذلك ! » ، وجلس على عتبة الباب فى استياء وكره .

على ان هؤلاء لم يكونوا كل من راحوا يتكلمون معا ، فى وقت واحد . فالى جانب اولئك الذين كانوا يتحدثون عن شؤونهم الخاصة فى المؤخرة - لم ينس المهذاران ان يؤديا دورهما :

فقال زيد كوف - الضئيل الجسم - يناصر دوتلوف : « وهكذا ينبغي أيها القوم الأوفياء ! .. يجب ان يحكم المرء بضمير مسيحي .. اعني اننا يجب ان نحكم كمسيحيين ، أيها الاخوة ! » .. وكان « خرابكوف » البشوش يقول مرددا كلمات « جارا سكا كوييلوف » ، وهو يجلب سترة دوتلوف المصنوعة من جلد الغنم : « يجب على المرء ان يحكم وفقا لضميره يا صديقي العزيز .. لقد كانت تلك ارادة السيد ، وليس قرار اهل القرية الذي ارسل باخيك الى الجيش ! » .. وقال آخرون : « هذا صحيح ! هكذا كان ! »

وصاح ريسون في دوتلوف : « اى سكير يهرف هناك ؟ .. هل قدمت لى اى شراب ؟ .. ام ترى ابنك - الذى يلتقطونه من قارعة الطريق وهو ثمل - يجرؤ على لومى على الشراب ؟ .. يجب ان نتخذ قرارنا أيها الاصدقاء ! اذا اردتم ان تغفوا آل دوتلوف ، فاختاروا مجندا .. لا من بين الاسرات ذات الرجلين فحسب ، بل ومن بين الاسرات التى لم تؤت كل منها سوى ابن واحد .. ودعوا الرجل يضحك منا ! »
 - لا بد لواحد من ابناء دوتلوف من الذهاب ! ففيم اطلالة الكلام ؟

وشرعت اصوات مختلفة تقول : « من الطبيعى ان تكون الاسرات ذات الابناء الثلاثة هى الاولى فى الاقتراع ! »
 فصاح صوت : « لا بد لنا من ان نرى أولا ماسوف تقول السيدة . لقد كان يجوز ميخايلوفيتش يقول انهم كانوا راغبين فى ارسال أحد عبيد البيت ! »

وأوقفت هذه العبارة الجدل برهة ، ولكنه سرعان ما تأجج من جديد ، وتحول - مرة اخرى - الى المسائل الشخصية . فان « اجنات » - الذى رماه ريسون بأن الناس يلتقطونه من الطريق ثملا - شرع يرمى ريسون بأنه سرق منشارا من جماعة

من النجارين الرجل، وأنه كان يضرب زوجته — حين يشعل — حتى يكاد يقضى عليها ! .. فرد عليه ريسون بأنه يضرب زوجته حقاً ، ويضربها وهو في وعيه ، دون أن ترعوى .. فأضحك قوله كل أمرىء . ولكنه استنكر في إباء مفاجيء مسألة المنشار، ودنا من «اجنات» وسأله : « من الذى سرق ؟ .. » . فأجاب اجنات — المتين البنيان — وهو يدنو منه بلبوره : « أنت ! »

وصاح ريسون : « من الذى سرق ؟ .. ألم تكن أنت السارق ؟ » . فأجاب اجنات : « لا .. بل أنت ! » .. ومن المنشار انتقلا الى سرقة جواد ، وكيس من الشوفان ، وخضر قطعت من حديقة أحد المنازل .. بل اتبها تبادلا الاتهام بشأن جثة ميت معين . وقال كل من الفلاحين عن الآخر أشياء رهيبة، لو صح جزء من مائة منها ، لكأنه يستحقان النفى الى سيبيريا على الأقل — بحكم القانون .

وكان دوتلوف — في تلك الاثناء — قد اختار طريقة أخرى للدفاع عن نفسه ، فانه لم يرض عن صراخ ابنه ، فحاول ان يوقفه قائلاً : « انها خطيئة ! .. كف عن هذا ! اننى آمرك ! » . وفي الوقت ذاته، راح يقول ان الذى لوتى ثلاثة شبان يقيمون معه ليس وحده رب اسرة ذات ثلاثة ابناء ، وانما ينطبق الوصف كذلك على من له ثلاثة ابناء يعيشون منفصلين عنه . و اشار بذلك الى «ستاروستين» . فابتسم «ستاروستين» ، وأجلى حلقه ، وأخذ يسوى لحيته ، كما يفعل الفلاح الذى اوتى بسطة فى الرزق، واجاب بأن الامر كله يتوقف على سيدة الضيعة ، وان من الجلى ان ابنائه كانوا موضع تقدير ، اذ ان الامر صدر باعفائهم .. وحطم « جارسكا » حجج دوتلوف بشأن الاسرات التى انقسمت ، بان قال انه لم يكن ينبغى لها ان تنقسم — اذ كانت هذه هى القاعدة التى سادت خلال حياة سيد الضيعة المتوفى — وأنه ليس للمرء ان يبكي على لبن

أريق ، فقد تم الانقسام فعلا ، وأصبح كل ابن ربا لاسرة ،
ولا سبيل الى تجنبيد الرجل الاوحد في هذه الاسرة .
وانبعثت اصوات الرجال الذين انقسمت اسراتهم ، وقد
انضم اليهم المهذاران : « اتراهم انفصلوا عن أهلهم حبا في
اللهو ؟ .. لماذا يقضى عليهم الآن بالخراب المبرم ؟ » .. وقال
ريسون لدوتلوف : « يحسن بك ان تبتاع بديلا اذا لم يرضك
هذا ، وفي وسعك ان تفعل ! » . فشدد دوتلوف اطراف سترته
حوله ، في حركة يائسة ، وتقهقر وراء الآخرين ، وهو يلطم
مغضبا : « يبدو انك تعذ على نقودي ! .. لسوف نرى مايقول
ايجور ميخايلوفيتش عندما يعود من لدن السيدة ! »

(٦) .. وانفض الاجتماع !



♦ وفي تلك اللحظة بالذات ، برز « ايجور ميخايلوفيتش »
من الدار ، فاذا القلنسوات ترتفع واحدة بعد أخرى ، اثناء
اقتراب وكيل الاعمال ، حتى تعرت جميع الرؤوس من شيباء
وسوداء تتخللها بواكير الشيب ، وحمراء ، وبنية ، وصفراء ،
وصلعاء من امام ، أو صلعاء في أم ناصيتها ! .. وأخذت
الاصوات تخفت تدريجا ، حتى ران الصمت في النهاية ، وسيطر
السكون . وخطا « ايجور ميخايلوفيتش » الى عتبة الباب ،

للعبيد ضمير ! (بوليكوشكا) م

وقد تجلى انه كان ينتوى الكلام . . ووقف في سترته الطويلة ، وقد دس يديه في جيبه الامامين اخفاء لخرجه ، وجذب على جبينه قلنسوته المصنوعة في المدينة . . وقف ثابتا ، وقد باعد بين ساقيه ، على العتبة المرتفعة ، فبدأ كأنه كان يطل من عل على تلك الرؤوس ، وعلى الوجوه التى تطلعت اليه ومعظمها مسن ، ملتح ، مليح . . وكان في وقفته هذه رجلا غير ذلك الذى كانه حين وقف امام مولاته . . كان متعاليا ، ذا سلطان . . وما لبث ان قال :

— هاكم قرار السيدة بارجال ! . . ليس مما سرها ان تقدم احدا من رقيق الدار . انما الذين سيذهبون منكم ، هم الذين تقرررون بانفسكم اختيارهم . ان المطلوبين — في هذه المرة — ثلاثة ، والواجب ان يكونوا اثنين ونصف رجل ، ولكن النصف الآخر سرامى حسابه في المرة المقبلة فالامر سيان ، واذا لم يذهب اليوم ، فلا بد له من الذهاب باكر !

فقالت بعض اصوات : « طبعاً ، هذا صحيح ! » . بينما استطرد ايجور ميخايلوفيتش : « وفي رأى ان لابد لخاروشكين ولفاسكا ميتيوخين من الذهاب . . فهذه ارادة الله ، كما يبدو ! » . وقالت الاصوات : « اجل . . هذا صحيح ! » . وظل هو ماضيا في الحديث : « . . اما الثالث فلا بد ان يكون من آل دوتلوف ، او واحدا من الاسرات ذات الرجلين . . فما قولكم ؟ » وصاحت الاصوات : « دوتلوف ! . . ان في الاسرة ثلاثة من الشبان ، في سن التجنيد ! » . ومن جديد ، عاد الصباح يتزايد شيئا فشيئا ، وانبعث حديث خضر الحديقة وبعض الاكياس التى سرقت من ساحة السيدة مرة اخرى ، بطريقة ما . وكان « ايجور ميخايلوفيتش » قد قضى في ادارة الضيعة الاعوام العشرين الاخيرة ، فكان اربيا ، خبيرا . ومن ثم فقد ظل واقفا يصغى زهاء ربع ساعة ، ثم امر الجميع بالصمت ، وأمر شبان اسرة دوتلوف الثلاثة بان يقتنعوا على من يذهب

منهم . واعدت اوراق الاقتراع ، وخلطت داخل احدى القيعات ، ثم سحب « خرابكوف » احداها ، **هاذا بها ورقة « ايليشا »** . وسيطر الصمت على الجميع . وقال ايليشا في صوت مرتعش : « اهى ورقتى ؟ .. دعنى اراها ! » فظل الجميع سكونا ، بينما امر « ايجور ميخايلوفيتش » بأن يحضر كل امرئ نقود التجنيد في اليوم التالى - سبعة كوبكات من كل دار - ثم اردف ان الامر قد انتهى ، وفض الاجتماع . وتحرك الحشد منصرفين ، واخذت اصواتهم ووقع اقدامهم تخفت رويدا ، حتى اصبحت كطينين يسرى من بعيد . ومكث وكيل الاعمال واقفا يرقب انصراف الجمع ، حتى اذا غاب ابناء دوتلوف الثلاثة ، في منعرج الطريق ، أشار الى الشيخ دوتلوف ، الذى كان قد وقف من تلقاء نفسه ، ثم دخلا غرفة المكتب معا . وقال ايجور ميخايلوفيتش ، وهو يجلس في مقعد وثير امام المكتب : « اننى آسف من اهلك ايها الشيخ . على ان الدور كان دورك . فهل ستدفع لمجد يحل محل ابن اخيك او لا ؟ » - **لكم يسرنا ان ندفع لبدل يا ايجور ميخايلوفيتش ، لولا اننا لانملك الى ذلك سبيلا . لقد آل جوادان - في هذا الصيف - الى تاجر الجياد التى لم يعد لها نفع (١) ، ثم .. كان هناك زواج ابن اخى .. انه قدر مكتوب علينا ، كما ترى .. جزاء اننا نعيش بأمانة وشرف . ان له حقا في ان يتكلم كما يشاء !** (وكان يفكر اذ ذاك في ريسون)

ومسح ايجور ميخايلوفيتش وجهه يده وتثاوب . كانت المهمة قد اتعبته وأسقمته - كما ظهر - وكان تواقا لان يتناول الشاى . فقال : « آه ، يا صديقى الكهل ، لاتكن شجيجا ! .. ابحث في ارض دارك ، فانى لموقن من انك ستخرج من تحتها زهاء اربعمائة ورقة قديمة من فئة الروبل ، وسأبحث لك من

(١) كانت الغيل المريضة والمكتهلة تباع لتذبح وتجر فى لعبها .

بديل .. واحد ممن اعتادوا التطوع ! .. لقد جاءنى شاب منذ أيام يعرض نفسه !
وتسائل دوتلوف : « في الحكومة ؟ » .. وكان يقصد « في المدينة »

— حسنا ، هل تدفع له ؟

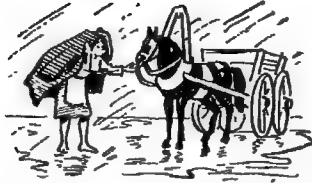
— لكم كفى يسرني ، والله على ما أقول شهيد ، ولكن ...
فقاطعه ايجور ميخايلوفيتش بلهجة صارمة : « آه ، اذن فاسمع ايها الشيخ ! .. حذار من ان يلحق ايليشا بنفسه اذى (١) ، ولا بد من اخذه الى المدينة فوراً .. بمجرد ان اخطركم بذلك ، ان اليوم أو غدا .. لسوف تصحبه أنت ، وستكون مسئولاً عنه ، ولو ان شيئاً حدث له — لا قدر الله ! — فسأبعث بابنك الاكبر بدلا منه ! هل تسمعني ؟ »

— ولكن ، اما من سبيل لارسال واحد من اسرة ذات رجلين ؟
.. ان هذا ليس من الانصاف في شيء يا ايجور ميخايلوفيتش !
وصمت لحظة ، ثم عاد يقول ، والدمع يكاد يطر من عينيه :
« لقد مات اخي في الجندية ، وها هم اولاء ياخذون ابني ! ..
كيف استحق مثل هذه البلوى ؟ » وأوشك ان يهوى جاثيا على ركبتيه ، فقال ايجور ميخايلوفيتش : « لا بأس ، لا بأس .. انصرف ! لا سبيل الى عمل شيء ، فهذا حكم القانون ! .. راقب ايليشا ، فسوف تكون مسئولاً عنه ! »
وعاد دوتلوف الى داره ، وهو يدق الارض بعصاه المصنوعة من خشب الزيزفون ، اثناء سيره !

(٧) «بوليكى» يذهب الى المدينة

♦ في ساعة مبكرة من الصباح ، وقف عند عتبة اركان رقيق

(١) كان من الشائع ان يصيب المجند نفسه باذى يجعله غير صالح للخدمة العسكرية ، كان يقطع من يده اصبعاً .



الدار ، جواد عريض العظام ، مخصى - كان يدعى « الطبل »
 لامر ما - شد الى عربة صغيرة ، اعتاد وكيل الاعمال ان يستقلها
 بنفسه احيانا .. وبالرغم من ان السماء كانت تمطر بردا ،
 والرياح قارسة ، فان «آنى» - ابنة بوليكي الكبرى - وقفت
 حافية عند رأس الحصان ، ممسكة عنائه على قيد ذراع ، بينما
 امسكت باليد الاخرى سترة خضراء مصفرة حائلة اللون ، كانت
 ملقاة على رأسها ، وكانت تستخدم كغطاء فراش للأسرة ،
 ومعطف ، وغطاء للرأس ، وبساط ، ومعطف لبوليكي ، واداة
 لعدة اغراض اخرى بجانب ذلك . وكان «ركن» بوليكي يضج
 بالحركة . وكان الضوء الواهن - لذلك النهار المطير - قد بدأ
 يتسرب خلال النافذة التى كان زجاجها مهشما - هنا وهناك -
 وقد سدت الثغرات بالورق .

وتركت « اكوينا » الطعام الذى كانت تطهوه فى الفرن ، كما
 تركت اطفالها - الذين كان اصفرهم فى الفراش - يرتجفون ،
 لان السترة التى كانت بمثابة غطاء لهم فى نومهم ، اخذت منهم
 ولم تستبدل بغير الشال الذى اعتادت اهمهم ان تضعه على
 رأسها . وانهمكت « اكوينا » فى مساعدة زوجها على التأهب
 لرحلته .. كان قميصه نظيفا ، ولكن حذاءيه - اللذين كانت
 اصابعه تطل منهما تنشند قوتا ، كما يقول المثل - كبداها كثيرا
 من العناء . فقد نزع جوريها الصوفيين الثقيلين - جوريها

الوحيدين - واعطتهما لزوجها ، واقتطعت بمهارة زوجا من النعال الداخلية ، من كساء سرج كان ملقى في حظيرة الخيل مهملًا - وقد أحضره بوليكي الى داره قبل ذلك بيومين - حتى تسد ما كان في الحذاءين من ثقوب ، وتصون قدميه من الرطوبة .

وجلس بوليكي على السرير بكل جسمه وقدميه ، وراح يسوى حزامه حتى لا يبدو كحبل قذر . وكانت الابنة الصغرى اللثغاء ، الحولاء البصر ، قد التفت في جلد الغنم - الذي غطي رأسها واسترسل فراجت تجرجره على الارض - ووافدت لتسال « نيكيتا » ان يعير اباها قلنسوة . وضاعف الحركة في « الركن » مقدم رقيق الدار ليسالوا بوليكي ان ياتيهم بمختلف الاشياء من المدينة . فطلب واحد ايرا للحياكة ، وطلب آخر شايًا ، وثالث تبغًا ، وغيرهم زيت زيتون . وكانت زوجة النجار قد وجدت وقتًا لتذكي النار تحت غلاية الماء ، وتعد قدحا مليئا بسائل اسمه شايًا ، قدمته الى بوليكي استرضاء له ، لتسأله ان يحضر لها قفرا من السكر .

ومع ان نيكيتا رفض ان يعير قلنسوته ، فاضطروا الى تزيين قلنسوة بوليكي ، وذلك برد الوبر الذي حشيت به - والذي برز من جوفها - وحياتها بابرقة من ابر جراحة الخيل . . ومع ان الحذاءين ايا - في بادىء الامر - ان يتسعا لقدمي بوليكي ، بعد ان زج فيهما بالنعلين المصنوعين من كساء السرج . . ومع ان « آني » كادت تفلت عنان « الطبل » وقد اثلجت اطرافها ، وكان لابد لمارى ان تحل محلها وهى ملتفة بجلد الغنم ، ثم اضطرت « ماري » ان تخلع عنها جلد الغنم ، لكى تلتف به « اقولينا » وتحل محلها لتمسك بالجواد . . بالرغم من كل هذا ، فقد انتهى الامر بان وفق « بوليكي » الى ان يكسو جسمه بكل ما لدى الاسرة من ثياب للتدفئة ، فلم يخلف وراءه

سوى السترة وزوجا من النعال المكشوفة !

واذ استكمل اهبتة ، صعد الى العربة الصغيرة ، واحكم جلد الفم حول جسمه ، وهز كيس التبن المعلق أسفل العربة ، ثم عاد فلف نفسه جيذا ، وامسك بعنان الجواد ، وشد اطراف المعطف حوله من جديد ، كما يفعل ذوو الشأن والمكانة ، وشرع في رحلته .. واقبل ابنه الصغير «ميشكا» على الدرج مهرعا ، وتوسل اليه ان يدعه يركب قليلا ، كما ألحفت عليه ماري اللثغاء ان يسمح لها بأن يدعها « تلكب » - أى تركب - قائلة انها لا « تشعل بيلد (أى تشعر ببرد) ولو انها بدون جلد الفم » . فبادر «بوليكى» الى استيقاف «الطبل» ، وابتسم ابتسامته الواهنة ، بينما كانت « اكولينا » ترفع الطفلين الى العربة . ومالت نحوه فتوسلت اليه همسا ان يتذكر عهده ، فلا يتناول أى خمر في رحلته . وجاس « بوليكى » بالطفلين خلال القرية حتى حاثوت الحداد ، ثم انزلهما ، ولف جسمه جيذا ، وسوى من وضع قلنسوته ، وساق الجواد في خيب رزين متزن ، وخداه يختلجان مع كل هزة ، وقدماه ترتطمان بجانبى العربة الخشبيين . واندفعت « ماري » و« ميشكا » حافيين ، يهبطان التل الزلق الى البيت ، وهما يصرخان عاليا ، حتى ان كلبا مشردا من كلاب القرية تطلع اليهما ، ثم سابتهما الى البيت وذيله بين ساقيه ، مما جعل خليفتى بوليكى يرفعان صراخهما قدر ما كان عشر مرات

* * *

وكان الجو لا يطاق ، فالريح لاذعة ، تتأرجح بين المطر والصقيع ، وبين آن وآخر كان البرد يرتطم بوجه «بوليكى» ويديه العاريتين اللتين كانتا ممسكتين بعنان الجواد - واللتين لم ينفك يجذب كفى معطفه ليغطيهما - ويجلد نير الجواد ، وبرأس «الطبل» المكتهل ، الذى رد اذنيه الى الخلف ، وأغمض

عينيه نصف اغماضة !

ثم كف المطر فجأة ، واشرق الكون في لحظة . وانتشعت
الفيوم الجليدية ذات اللون الضارب الى الزرقة ، وشرعت
الشمس تشق طريقها لتبزغ ، ولكن .. في احجام ودون ما
انتهاج ، كابتسامة « بوليكي » ! .. ومع ذلك ، فان « بوليكي »
كان مغرقا في افكار بهيجة .. فيها هوذا - هو الذي كان مهيدا
بالنفي وبالتجنيد ، والذي لم يكن يعنف به ويضربه سوى
أولئك الذين يشتد بهم الكسل ، والذي كان يزج به دائما في
اسوأ الاماكن - ها هو ذا ينطلق بالعربة ليحصل مبلغا من
المال - بل مبلغا كبيرا - وقد اتمنته مولاته .. ها هوذا ينطلق
في عربة وكيل الاعمال ، يجرها « الطبل » الذي كانت السيدة
نفسها تستخدمه في جسر عريتها .. وكأنه مالك من اصحاب
الارض ، يسرج جواده بنير واعنة من الجلد بدلا من الجبال ! ..
واعتمد « بوليكي » في جلسته ، ودس الحشو الذي تدلى من
قلنسوته ، وعاد يحكم لف معطفه حول جسده !

على ان « بوليكي » اذا كان قد وهم انه بدا في مظهر الفلاح
المثري صاحب الاملاك ، فانما كان يخدع نفسه ويغشها . فمن
الحقيقى - كما يعرف كل امرئ - ان تجارا يمتلكون عشرة
آلاف روبل ، يرحلون في عربات تجرها جياد ذات سروج
جلدية ، الا ان هذا لم يكن كل شيء .. ولقد يمر بك رجل
ذو لحية ، وقد ارتدى معطفا أزرق أو اسود ، وجلس وحيدا
في عربة يجرها حصان جيد التغذية ، فلا تلقى اليه نظرة إلا
لترى ما اذا كان الجواد ناعم البشرة ، وما اذا كان الرجل جيد
التغذية ، ولتتبين الطريقة التى يجلس بها ، وسرج جواده ،
واطارات عجلات عربته ، وعباءته ، فتعرف لفورك ما اذا كان
الرجل يتجر حقا في مئات الروبلات او في آلاف ! .. وكان اى
شخص مجرب يتاح له ان ينظر عن كثب الى « بوليكي » ويديه،
ووجهه، ولحيته الحديثة المنبت ، وعباءته ، والتبن الذى وضع

في العربية باهمال ، و « الطبل » النحيل ، والاطارات البالية حول العجلات .. كان أى شخص ذو تجربة يرى ذلك ، خليقا بأن يدرك أنه ليس سوى عبد وليس تاجرا ، ولا وسيطا يتسوق صفقات الماشية ، بل ولا فلاحا يملك أرضا .. وأنه لا يتعامل بالآلاف ولا بمئات - بل ولا بعشرات - الروبلات !

ولكن « بوليكي » لم يكن يفكر على هذا النسق .. فقد آثر ان يفرر بنفسه ، وان يقرر بها مختارا ، راضيا .. انه لن يلبث ان يعود حاملا ألفا وخمسمائة روبل في صدر معطفه .. ولو شاء فان بوسعه ان يولى وجه « الطبل » صوب (اوديسا) ، بدلا من ان يوجهه شطر قريته ، وان يسوقه الى حيث يشاء القدر والمصير . ولكن « بوليكي » لن يفعل شيئا من هذا القبيل ، بل انه سيحمل النقود كلها الى السيدة ، كما ينبغي ، وسيحدثها بأنه حمل يوما مبالغ تفوق هذا المبلغ قيعا !

وعندما بلغا حانة - في الطريق - شرع « الطبل » يجذب العنان الايسر ، موليا صوب الفندق ، ثم وقف . وكانت مع « بوليكي » النقود التي اعطيت اليه كي يشتري بها ماسئله ان يشتريه ، ولكنه - رغم ذلك - ساط « الطبل » ، واضطره الى أن يواصل السير . وتكرر الامر ذاته عند الحانة التالية . حتى بلغا المدينة - حوالى الظهر - وقفا لدى حانة . وهبط « بوليكي » من العربية في هذه المرة ، وفتح باب فناء دار صاحب الحانة - حيث اعتاد كل اتباع مولاته أن ينزلوا - وقاد الجواد والعربة الى الفناء . وهناك ، فك قيود « الطبل » ورفع عنه النير ، وقدم له بعض التبغ ، ثم تناول غداءه مع اتباع صاحب الحانة ، دون أن يغفل ذكر المهمة الخطيرة التي أقبل من أجلها .. وما لبث أن انطلق ليبحث عن التاجر الذى كان يشتاع منتجات بستان السيدة ، ومعه قائمة الحساب في ثنايا مقدم

فلنسوته !

وكان التاجر يعرف «بوليكي» ، وقد بدا بوضوح مرتابا في امره . فلما قرأ الخطاب ، راح يسأله ليستوثق من انه كان أوفد فعلا لتحصيل النقود . وحاول « بوليكي » ان يبدى استياء ، وكان الاسئلة قد جرحت شعوره ، ولكنه لم يستطع ان يجيد الاصطناع ، ولم يملك سوى ان يتسم ابتسامته المعهودة . وعاد التاجر يقرأ الخطاب من جديد ، ثم أسلمه النقود .

وما ان تسلم «بوليكي» المبلغ ، حتى دسه في صدر معطفه ، وعاد الى الخان، فلم يستهوه المشرب ولا الحانة ولا أى شيء . . . كان يشعر بالفعل مستعذب يسرى في كل كيانه ، وقد وقف أكثر من مرة أمام الحوانيت التي كانت تعرض سلعا مغرية - من أحذية ، ومطاف ، وفلنسوات ، واقمشة ، ومواد غذائية - ثم كان يعضى في سبيله ، وفي نفسه مشغور متع ، وكأنه يقول لنفسه : « بوسمى ان ابتاع كل هبة ، ولكن . . ولكنى - مع ذلك - لن افعل » ! وذهب الى السوق لشراء الاشياء التي كلف بشرائها ، فحصل عليها جميعا ، ثم شرع يساوم على معطف مبطن بفراء الغنم، سئل ان يدفع خمسة وعشرين روبلا ثمنها له . ولامر ما ، لاح على البائع - بعد ان تأمل بوليكي - انه يرتاب في قدرته على شراء المعطف . بيد ان بوليكي أشار الى صدره ، قائلا ان بوسمه ان يشتري الحانوت كله ، لو انه شاء . واصر على ان يرتدى المعطف للتجربة وراح يتحسسها ، ويجس قماشه ، وينفخ الصوف ليबाعد بين شعيراته ويتأمل النسيج ، حتى امتلا برائحته . . ثم خلعه عنه وتهد ، وقال : « ان السعر لابلأثمنى ، فهلا بعته بخمسة عشر روبل ؟ » . فطوح البائع بالمعطف عبر نضد الحانوت وهو مغيظ ، بينما خرج بوليكي مبتهجا ، وسار الى الخان الذى نزل فيه . وبعد العشاء روى «الطبل» وقدم له قدرا من الشوفان ،

ثم اعتلى المدفأة (١) ، وأخرج المظروف الذى ضم النقود ، ففحصه طويلا ، ثم سأل حملا كان يعرف القراءة ، ان يقرأ عليه العنوان وما خط تحته ، فاذا به : **طيه الف وستمائة وسبعة عشر من الروبلات المحولة** (٢) . وكان المظروف مصنوعا من الورق العادى ، ومختوما بشمع بنى صلب - نقش عليه رسم مرساة (هلب) - فى خمسة مواقع .. خاتم كبير فى الوسط ، وأربعة فى الأركان . كما كانت ثمة نقاط من الشمع بقرب الحافة . ولقد فحص «بوليكى» كل هذا وتأمله وطبعه فى ذاكرته .. بل انه تحسس حواف الاوراق المالية المرهفة، التى كانت بداخله . وداخله شعور صبيانى بالسرور وهو يرى انه يمسك بين يديه بمبلغ ضخيم كهذا . ثم دس المظروف فى ثغرة بين ثنايا القلنسوته ، ورفد القلنسوة تحت رأسه .. ولكنه لم يطمئن - مع ذلك - فظل يستيقظ خلال الليل ليتحسس المظروف . وكان - فى كل مرة - يجده فى مكانه ، فيخالجه شعور مستعذب بالرضى .. فها هو ذا «بوليكى» الملطخ السمعة المستضعف ، المهين .. ها هو ذا يحمل مبلغا كهذا ، ليسلمه الى مولاته بعناية دونها عناية اى امرئ آخر .. حتى وكيل اعمالها نفسه !

(٨) هياج فى الخان

♦ استيقظ خدم صاحب الخان و «بوليكى» - حوالى

-
- (١) كانت البيوت الروسية مزودة بمدافئ مبنية بالطوب ، كبيرة الحجم ، على شكل الاثران المعروفة فى ريفنا .
 (٢) الروبل المحول عملة ورقية تعادل سبعة الروبل الفضى فى القيمة .
 فكان المبلغ كله ٤٦٢ روبل .. وهو ما ذكره ايجور كولاته فى نهاية الفصل الاول



منتصف الليل - على طرقات على الباب الخارجى ، وصياح صادر من فلاحين . واذا بفريق المجندين من (بوكروفسك) قد وصل . . كان ثمة عشرة افراد تقريبا : خوريوشكين ، وميتيوكين ، وابليشا (ابن أخى دوتلوف) ، وبديلان رافقا القوم عسى ان تدعو الحاجة اليهما ، وشيخ القرية ، ودوتلوف الكهل ، والرجل الدين ساقوا العربات التى اقلتهم . وكان فى الحجرة ضوء ساهر ، وقد رقدت الطاهية على اريكة خشبية تحت الايقونات ، فقفزت ناهضة ، وبادرت الى اشعال شمعة . . كذلك استيقظ «بوليكى» ، واطل من اعلى المدفأة ، فنظر الى الفلاحين اثناء ولوجهم المكان .

ودخلوا وهم يرسمون علامة الصليب على صدورهم ، وجلسوا على المقاعد الخشبية المخصوصة بحذاء جدران الحجرة . وكانوا جميعا يلوحون فى اكمل هدوء وسكينة ، حتى ليعجز المرء عن ان يحدس ايهم المجندون ، وايهم الذين كانوا يرافقونهم . واخذوا يحيون اهل الخان ، ويتحدثون بأصوات عالية ، ويطلبون طعاما . . وصحيح ان بعضهم كانوا سكوتا ، واجميين ، محزونين ، الا ان بعضا آخر كانوا على النقيض ، فى مرح غير عادى . . كان من الجلى انهم سكارى . وقد كان بين هؤلاء «ابليشا» الذى لم يسرف يوما فى الشراب من قبل

وتساءل شيخ القرية : « وبعد يا اولاد .. هل ننام او نتناول عشاء ؟ » . فقال « ايليشا » وهو يفتح صدر معطفه ، ويجلس على مقعد خشبي : « عشاء ! .. واطلبوا لنا بعض الفودكا ! » . فقال شيخ القرية في ايجاز : « كفاك فودكا ! » . والتفت الى الآخرين قائلاً : « ليقطع كل منكم لنفسه لقمة من الخبز يا اولاد ! .. لماذا نوقظ القوم ؟ » . فعاد ايليشا يصيح ، دون ان ينظر الى اخذ ، وبصوت نم عن انه لن يسكت : « آتوني بفودكا ! »

واخذ الفلاحون بمشورة شيخ القرية ، فأحضروا خبزا من العربات التي اقلتهم ، وطلبوا قليلا من الجعة ، ثم استلقوا .. بعضهم على الارض ، وبعضهم على المدفأة . وظل ايليشا يردد بين فترة واخرى : « دعوني أصب بعض الفودكا . اتسمعون ؟ .. اريد بعض الفودكا ! » . ثم فطن الى « بوليكي » ، فصاح : « بوليكي ! ها ، بوليكي ! .. آنت هنا ايها الصديق العزيز ؟ .. الا تعلم اننى ذاهب لاصير جنديا ؟ .. ودعت امي وزوجتي .. لكم راحت تعول وتجهش بالبكاء ! .. لقد حزموني حزما وارسلوني كالطرد لاصبح جنديا .. اطلب لي بعض الفودكا ! » . فأجابه بوليكي : « لست املك أية نقود ! » . وأخذ يواسيه ، ثم أردف : « من يدري ؟ .. لعلك يرفضون تجنيذك بعون الله ! »

— لا يا صديقي ، فانا متين البنيان كالشجرة الصلبة .. ابدا لم أصب بمرض . لا سبيل الى رفضي ! .. اى جندي يرفضه القيصر خيرا مني ؟

وأخذ بوليكي يروي له كيف ان فلاحا اعطى طبيبا ورقة مالية من ذات الروبلات الخمسة ، ففاز بالاعفاء من الجندية .. واقترب « ايليشا » من المدفأة ، وشرا يتكلمان بمزيد من الحرية . فقال ايليشا : « لا يا بوليكي ، لقد انتهى الامر ! لم اعد أنا نفسي راغباً في البقاء ، فقد أستغنى عني ، وكأنه لا يملك ان يدفع

لبديل يحل محلي !... لا ، لقد ضن بابنه، وضن بالمال ، ومن ثم فقد أرسلوني . لا !... أنا نفسي لا أريد المكث ! » . وكان يتكلم بصوت منخفض . تحت تأثير أساه الهادىء - وكأنه يبت الأخر سره .. واستطرد يقول : « انما آسى على شيء واحد .. آسى على امي ، تلك الحبيبة ! .. لشدة ما كان حزنها ! والزوجة كذلك ! .. لقد قضوا على المراتين بالخراب ، لغير نفع ! .. لسوف تهلك امرأتى .. أو - بمعنى آخر - ستصبح زوجة جندي ، وكفى ! .. كان خيرا لو اننى لم اتزوج ! فلماذا زوجونى ؟ .. انهم آتون الى هنا غدا ! »

وتسأل بوليكى : « ولكن ، لماذا احضروكم بهذه العجلة ؟ .. ان احدا لم يسمع بالامر كله ، ثم اذا بهم فجأة .. » . فأجاب ايليشا مبتسما : « تصور انهم يخشون أن أحدث بنفسى اذى . لا داعى للخوف ، فلن أحدث بنفسى شيئا من هذا القبيل .. كل ما هنالك اننى آسف من اجل امي .. » . ثم اردف فى رفق واسى : « ما الذى حملهم على ان يزوجونى ؟ »

وفتح الباب اذ ذاك ، ثم اغلق بصوت عال ، ودخل الشيخ دوتلوف وهو ينفذ البلل عن قلنسوته ، وقد غيب قدميه فى حذاءين من لحاء الخشب مفرطى الكبر - كعادته - فكأنهما قاربان حول قدميه ! .. وقال لخادم الخان وهو يمر به : « أليس هناك مصباح يا افاناسى ، لا حضر على ضئوئه بعض الشوفان ؟ » . وشرع يشعل - فى بطة - بقية من شمعة ، دون ان ينظر الى ايليشا ، وقد بدا قفازاه وسوطه مدسوسين تحت حزامه الذي شد باحكام وعناية حول معطفه . ولاح وجهه - الذى أضناه الجهد والنصب - مألوا ، ساذجا ، وادعا ، مليئا بهوم العمل ، وكأنه وصل لتوه مصطحبا قافلة من العربات المحملة !

وصمت ايليشا عندما رأى عمه، وعاد بطرق، متأملاً مقعده الخشبي في وجوم . ثم تمت مخاطباً شيخ القرية : « فودكا ، يا ارميل ! .. اريد بعض الشراب ! » .. وبدأ صوته محنقاً ، ساخطاً . فأجابه الشيخ الذي كان يأكل شيئاً من وعاء أمامة : « شراب ، في مثل هذا الوقت ؟ الا ترى الآخرين قد اكتفوا بلقمة وناموا ؟ .. لماذا تثير شغباً ؟ » . وتجلّى ان كلمة « شغب » قد وسوست الى « ايليشا » بالعنف ، فصاح : « لسوف أقدم على عمل غير طيب ، اذا أنت لم تعطني فودكا ، ايها الشيخ ! » . فالتفت شيخ القرية نحو دوتلوف الذي كان قد وضع الشمعة في « فانوس » ، وهم بأن يخرج ثم توقف ليرى ما قد يحدث ... والذي كان يرمق ابن أخيه - من ركن عينه - في رثاء ، وكأنها هو في عجب لمسلكه الصبياني .

وعاد ايليشا يفض بصره ، وهو يتمتم : « فودكا ! .. اعطني ! .. اقدم على شر ! » . فقال شيخ القرية في لين : « دمك من هذا ، يا ايليشا ! .. اجل ، دمك ، وكفى ! .. ان هذا خير لك ! » .. وقبل ان يفرغ من كلماته ، كان « ايليشا » قد وثب فضرب زجاج أحسنى النوافذ بقبضته ، وهو يصيح بأعلى صوته : « مادمت تاني ان تسمع كلامي ، فهلك العاقبة ! » . واندفع نحو النافذة الاخرى ليكسر زجاجها . وفي لمح البصر ، ثقل « بوليكي » مرتين ، واختبأ في الركن القصي على قمة المدفأة .. وقد فعل ذلك بسرعة خاطفة ، بثب الفزع في جميع الصراصر التي كانت هناك . والقى شيخ القرية بملعقته ، واندفع نحو « ايليشا » . ووضع دوتلوف فانوسه ببطء ، وفك حزامه ، وهز رأسه ، وهو يصك لسانه بسقف فمه محدثاً صوتاً ينم عن الاستنكار ، وسار الى « ايليشا » الذي كان قد انهمك في نضال ضد شيخ القرية واحد اتباع صاحب الخان ، وهما يردانه من النافذة .

وكانا قد أمسكا بذراعيه ، ولاجّ انهما قد سمراه في مكانه .

ولكنه لم يكد يرى عمه والحزام في يده ، حتى تضاعفت قواه عشر مرات ، وانتزع نفسه منهما ، وتقدم من دوتلوف وعينهاه تكادان تقفزان من محجريهما ، وقبضتاهم مشدودتان ، وصاح : « لسوف أقتلك ! .. ابتعد ، أيها الحيوان ! .. لقد قضيت علي ، أنت وابنائك الزنيمان ! لقد قضيتهم علي بالخراب ! .. لماذا حملوني علي الزواج ! .. ابتعد ! لسوف أقتلك ! .. » . وكان إيليشا رهيبا في هياجه ، فقد احتقن لون وجهه ، وراح انسانا عينيه يدوران في محجريهما ، واخذ جسده الشاب السليم يرتجف بأجمعه كالحموم . وبدا كأنما كان يبغى أن يقتل الرجال الثلاثة الذين وقفوا في وجهه ، وكان قادرا على قتلهم ! - أنك تشرب دم أخيك ، يا مصاص الدماء !

وأومض بريق خاطف خلال وجه دوتلوف الدائم الرزانة ، وتقدم خطوة ، ثم قال فجأة : « أنك تأبى أن تسكن في سلام ! » . وكان أمجب ما في الامر هو : من أين جاء بتلك الطاقة ؟ .. فقد أمسك بأذن أخيه بحركة سريعة ، وألقى به علي الأرض ، وارتمى معه ، وأحكم وثاق يديه بحزامه ، بمعونة شيخ القرية ! وظلا يتصارعان زهاء خمس دقائق ، ثم نهض دوتلوف أخيرا - بمساعدة الفلاحين - وهو يجنب معطفه من قبضة (إيليشا) . وما لبث أن أنهض « إيليشا » الذي أصبحت يدها مكتوفتين خلف ظهره ، واضطره إلى أن يجلس علي مقعد خشبي في الركن . وقال وهو لا يزال متهدج الانفاس - من جراء الصراع - وقد راح ينتزع من حول قميصه حزاما غير عريض : « لقد قلت لك أنك ستسعى إلى نفسك ! .. لماذا تأثم ؟ أن الموت مكتوب علينا جميعا ! » . ثم التفت إلى اتباع صاحب الخان ، وقال : « اطووا معطفا ليتوسده ، والا فسوف يتصاعد الدم إلى رأسه » . وراح يربط الحزام الضيق حول معطفه المصنوع من جلد الغنم ، ثم تناول الفانوس ، وخرج ليعلنى بالجياد . وراح إيليشا - وهو صاحب الوجه ، مشعث الشعر ، وقد

تهدل قميصه - يطوف ببصره في الحجرة ، وكأنه يحاول أن يتذكر أين هو .. بينما انهمك اتباع صاحب الخان في جمع شظايا الزجاج المهشم ، ثم دسوا في الثغرة - التي خلفها في النافذة - معطفا ، ليحولوا دون انسياب تيار الهواء القارس . وعاد شيخ القرية يجلس الى وعائه ، وهو يردد : « آه ، يا ايليشا ! يا ايليشا ! .. لكم انا آسف من اجلك حقا ! .. آية حيلة لنا في الامر ؟ .. هاك خوريوخين .. انه الآخر متزوج ! .. من الواضح أن لا حيلة لنا في الامر ! »

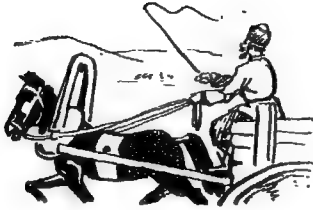
وعاد ايليشا يقول بصوت خشن ، ولهجة مشبعة بالسخط : « انما قضى على بالدمار ، من اجل ذلك الشرير عمى ، فحسب ! .. لقد كان كل حرصه منصبا على ابنه .. لقد قالت امي أن وكيل الاعمال دعاه الى أن يدفع من اجل بديل عنى ، فأبى ، وقال انه لا يملك ما يدفع .. كأننا لا قيمة لكل ماجلته وأخى على أسرته من خير ! .. انه شرير ! »

ورجع دوتلوف الى الحجرة ، فأدى الصلاة امام الايقونات ، وخلع ثيابه الخارجية عنه ، وجلس بجوار شيوخ القرية ، فأحضرت الطاهية بعض الجعة ، وملقعة أخرى . ورأى السكون على ايليشا ، ورقد على المعطف المطوى ، وأغمض عينيه . فأشار شيخ القرية نحوه ، وأخذ بهز رأسه في صمت . بينما لوح دوتلوف بيده قائلا : « كأننا المرء غير آسف من اجله ! .. إنه ابن اخي ، من صلبى ودمى ! .. وكأننا الامور ليست بالغة السوء ، كما هو جلى ، فراق لهم أن يصوروني له وغدا شريرا ! .. ولعلها زوجته التي بشت في رأسه أن يوسعنا أن ندفع من اجل بديل عنه ، فهي امرأة ضئيلة الجسم ، خبيثة ، رغم صغر سنها .. ومهما يكن ، فإنه ينحو باللائمة على ! .. ولكن المرء يرنى للفتى ! .. » . فعقب شيخ القرية قائلا : « آه ! ..

ويا له من فتى بديع !

— ولكن صبرى بلغ مداه معه ! .. على اننى سأمد له ! ..
فقدنا سيأتى « اجنات » ، وقد رغبت زوجة الفتى فى ان تأتى
معه هى الاخرى .

فقال شيخ القرية وهو يبارح مكانه ، ويصعد الى سطح
المدفأة : « أحسنت صنعا . دعهما يأتيان ! .. الا ما أتفه
المال ، انه عرض زائل ! » . فغمغم أحد اتباع صاحب الخان ،
وهو يرفع رأسه : « لو كان لنى المرء مال لما ضن به .. مندا
الذى يضمن بالمال ؟ » . فرد عليه دوتلوف قائلا : « آه ! المال ،
المال ! .. أنه سبب الخطايا ! لا شيء فى الدنيا يسبب من الآثام
أكثرهما يسبب هو .. وقد قال الكتاب المقدس ذلك ! » .
فقال العامل يقره على قوله : « كل شيء مثبت فى الكتاب
المقدس . لقد روى لى رجل كيف أن تاجرا اختزن كوما من
المال ، ولم يشأ أن يخلط وراءه شيئا منه ، فقد بلغ من حبه للمال ،
أن أراد أن يأخذه معه الى قبره . وعندما كان يحتضر ، طلب
أن تدفن معه وسادة صغيرة . فلم يرتب احد فى الامر ،
ودفنها معه . ثم راح ابناؤه يبحثون عن ماله ، فلم يستطيعوا
أن يعثروا على شيء منه . وأخيرا ، خطر لواحد منهم أن من
المحتمل أن المال كان أوراق نقد وضعت كلها فى الوسادة .
وعرض الامر على القيصر ، فسمح بأن يفتح القبر . فماذا
تظن أنه حدث ؟ .. لقد فتحوا التابوت ، وشقوا الوسادة فلم
يجدوا فيها شيئا . ولكن التابوت كان مليئا بشعابين صغيرة ،
ومن ثم فقد دفن ثانية .. أرايت ما يفعل المال ؟ »
وقال دوتلوف وهو ينهض قائما : « هذه حقيقة واقعة ،
فالمال يجلب كثيرا من الآثام ! » . وشرع يصلى . حتى إذا
فرغ ،لقى نظرة على ابن أخيه ، فإذا الشاب نائم .. وسار
اليه دوتلوف ففك الحزام الذى كان يوثق يديه ، ثم رقد هو
الأخر . وخرج فلاح من الحجرة ، لينام مع الخيل !



(٩) مفاجأة في نهاية الطريق !

♦ ما أن سيطر السكون على كل شيء ، حتى هبط بوليكي من المدفأة متسللا في رفق ، وكأنه مجرم ، وشرع يتأهب للرحيل . . فقد شعر - لسبب ما - بعدم ارتياح لمجرد التفكير في قضاء الليل في الخان ، مع المجندين . وكانت الديكة قد بدأت تكثر من التصايح ، ينادى بعضها بعضا : كما كان « الطبل » قد أتى على كل الشوفان الذي قدم اليه ، وشرع يمد عنقه الى دلو الماء . فأسرجه بوليكي ، وقاده - خلال عربات الفلاحين - الى الخارج . . وكانت قلنسوته سليمة بمحتوياتها ، فسرعان ما راحت عجلات العربة تدرج على الارض المكسوة بالصقيع ، ميممة شطر (بوكروفسكى) .

ولم يشعر بوليكي بطمأنينته الا حين خلف المدينة وراه . فقد ظل - حتى بارحها - يتصور أنه لن يلبث أن يسمع أصواتا تنم عن أنهم يطاردونه في أية لحظة ، وأنهم لن يلبثوا أن يستوقفوه ، وأن يوقفوا كتافه - بدلا من ايليشا - ثم يأخذوه الى مركز التجنيد في صباح اليوم التالي . . وكان ثمة شيء - لعله الصقيع ، أو لربما كان الخوف - يرسل قشعريرات باردة تسرى في ظهره ، فراح يلهب « الطبل » مرة بعد أخرى ، يستحثه على الإسراع . . وكان أول من صادفه قسا ارتدى

قلنسوة طويلة من الفراء ، يصحبه عامل أعور . فتشساءم « بوليكي » من هذا الأخير ، واشتد جزعه ، فازداد انطلاقا ، ولكنه عاد يظلمن من خوفه تلديجا ، عندما بارح المدينة ، حتى تبدد الخوف أخيرا . . وخفف « الطبل » من ركضه ، وقد ازدادت الطريق وضوحا أمامه . . وخلع « بوليكي » قلنسوته ، فتحسس الأوراق المالية ، وقال لنفسه : « هل أخبئها في صدري ؟ . . لا ، فقد اضطر الى أن أفك حزامي . . مهلا ! فلاهبط عندما أبلغ أسفل التل ، وأسوى من حالي . . إن القرص الأعلى قد حيك بعناية واحكام » ومن ثم فلا سبيل الى أن ينزلق المظروف خلال طبقات النسيج . . وخبر لى - على أية حال - أن لا أخلع القلنسوة حتى أبلغ البيت ! »

ولما بلغ أسفل التل ، واستقبل أمامه التل الذى يليه ، ركض « الطبل » من تلقاء نفسه صاعدا اياه ، فلم يحاول « بوليكي » أن يكبح جماحه ، اذ كان مشوقا مثله الى العودة الى الدار . . وكان كل شيء على ما يرتجى ، أو هكذا تصور « بوليكي » - على الأقل - فأسلم نفسه للأحلام ، متخيلا ما سوف تبديه السيدة من عرفان ، متصورا الروبلات الخمسة التى ستمنحه اياها ، والفرح الذى سيطغى على أسرته ! . . وخلع القلنسوة ، فتحسس المظروف وابتنسم ، ثم ردها الى رأسه واحكم وضعها . وكانت المقدمة المخملية للقلنسوة بالية ، ونظرا لان « اكولينا » كانت قد رتقت فتوقها رتقا محكما فى احد جوانبها ، فانها لم تلبث أن تفسخت من جانب آخر . . واذا الحركة التى ظن « بوليكي » فى وهن الفجر الوليد أنها دفعت المظروف الى جوف طبقات القلنسوة ، تزيد من تمزق الجانب المتفسخ ، وتدفع ركننا من المظروف الى الخارج ، خلال المقدمة المخملية .

وبدا الفجر يسفر النقاب ، فشرع النعاس يداعب أجفان « بوليكي » الذى لم يكن قد نام فى ليلته . . وفى نعاسه شد

القلنسوة لتزداد التصاقا برأسه - فازداد بذلك بروز المظروف الى الخارج - وارطم رأسه بمقدم المركبة . واستسلم للنعاس ، فلم يستيقظ الا وقد اقترب من القرية . وهم بأن يفحص قلنسوته ، ولكنه احس بأنها محكمة الوضع فوق رأسه ، فلم ير داعيا لرفعها ، مطمئنا الى أن المظروف بداخلها . ومس « الطبل » بسوطه ، ونسق القش الذي كان يكسو أرض العربية ، وعاد يتخذ مظهر الفلاح الموسر ، ويتلفت حوله في خيلاء ، والعربة تدرج نحو القرية !

وترأى له مطبخ الدار ، و « الاركان » التي يسكنها الرقيق .. ولاحت له زوجة النجار وهي تحمل الفسيل ، ثم تبين مكتب ادارة الضيعة ، ومسكن السيدة .. المسكن الذي لن يلبث أن يبرهن فيه على أنه رجل أمين ، اهل للثقة .. لسوف يقول للسيدة : « بوسع كل امرئ ان يتقول على اى شخص كما يحلو له ! » .. وسترد السيدة قائلة : « لاباس يا بوليكي ! .. هالك ثلاثة (او ربما خمسة ، بل عشرة) روبلات ! » .. وستامر بتقديم الشاي اليه ، بل ربما امرت بتقديم بعض الفودكا ! .. ولن يكون هذا بالامر المستغرب ، بعد الوقت الذي قضاه في البرد ! .. ومضى بوليكي يحدث نفسه : « بعشرة روبلات نستطيع ان ننعم غدا بعيد طيب ، وأن نبتاع احذية ، ونرد الى نيكيتا روبلانه الاربعة والنصف .. اذ لا حيلة في ذلك ، فهو قد بدأ يضايقنا بالمطالبة ... »

وعندما أصبح على حوالى مائة خطوة من الدار ، احكم لف معطفه حول جسمه ، وسوى من وضع حزامه وياقته ، وخلع قلنسوته فسوى شعره ، ودس يده تحت بطانة القلنسوة ، غير متعجل .. واخذت اليد تعيث وتبحث داخل البطانة ، واشتدت سرعة اصابعها .. ثم انضمت اليها اليد الاخرى ، بينما اخذ وجه « بوليكي » يزداد شحوبا فوق شحوب . ودخلت احدي اليدين في جوف القلنسوة باكملها . ثم هوى

« بوليكي » على ركبتيه ، واستوقف الجواد ، وراح يبحث في
العربة ، منقبا بين أنقش ، وبين الأشياء التي كان قد ابتاعها
.. متحمسا معطفه وسرواله .

ولكن .. لم يكن ثمة أثر للنقود !

وشرع يزار ، وهو يشد شعره : « يا للسموات ! ما معنى
هذا ؟ .. ما الذي سيحدث الآن ؟ » .. ثم قطن الى انه قد
يشاهد ، فحول وجه الجواد نحو الطريق الذي اتى خلاله ،
وأحكم قلنسوته على رأسه ، ثم ساق « الطبل » عائدا من
حيث أتى ، والجواد مشدوه مستنكر ، ولا بد انه كان يقول
لنفسه : « ليس بوسعى أن أخرج ثانية مع بوليكي .. لقد
عنى باطعامي وسقايتي أتم عناية ، لمرة واحدة في حياته ، ثم
لم أحظ منه بغير الخداع الذي لا يسر النفس ! .. لكم أجهدت
نفسى في الجرى أثناء العودة ، حتى اشتد بى التعب ! .. ومع
ذلك ، فأننى لم أكد أصبح على قيد خطوات من العلف ، حتى
شرع يسوقنى راجعا بى ! »

أما بوليكي ، فقد راح يصيح فيه ، خلال الدموع : « هيا
أيها الحصان المنهوك القوى ! » . ووقف منتصباً في العربة ،
يشد عنان « الطبل » في عنف ، وينهال عليه ضرباً بالسوط !

(١٠) بوليكي ! .. أين بوليكي ؟

♦ لم ير أحد « بوليكي » في (بوكروفسك) طيلة ذلك
اليوم . وقد سألت السيدة عنه مرارا بعد الغداء ، واندفعت
« اكسيوتكا » كالاعصار الى « اكولينا » ، ولكن « اكولينا »
قالت انه لم يعد بعد ، لعل التاجر الذي كان يبتاع خضر
البستان قد عطله عن العودة ، أو لعل شيئا قد جرى للحصان
.. واردفت قائلة : « ليت له لم يصب بالعرج ! .. لقد قضى
« مكسيم » يوما بأكمله في الطريق — عندما ذهب به في المرة



السالفة - واضطر الى ان يقطع المسافة كلها على قدميه ،
في العودة ! »

ولتها « اكسيوتكا » ظهرها ، وعادت وهي تحرك بندوليتها ،
بينما أخذت « اكولينا » في ابتكار الاعذار التي تبرر غياب
زوجها ، لتطامن من هواجس نفسها . ولكن ، دون جدوى !
.. كان قلبها مثقلا ، ولم تقو على أن تعمل بنفس راضية
فيما كانت تتخذه من استعدادات للعيد الذي كان مرتقبا في
اليوم التالي . وضاعف من ألمها أن زوجة النجار راحت تؤكد
لها أنها رأت بعينها « رجلا يشبه بوليكي تماما ، مقبلا في
عربة ، ثم ولى راجعا » .. كذلك راح الاطفال يرتقبون « بابا »
في لهفة وصبر نافذ ، وان اختلف حافزهم من الحافز الذي
كان يثير قلق أمهم . فان غيابه حرم « آني » و « ماري » من
جلد الغنم ومن السترة الثقيلة ، وهما اللذان كانا يمكنهما
من أن يقوموا بجولات خارج البيت ، فلم تعودا تملكان سوى
أن تجريا في دورات سريعة قصيرة ، حول البيت . ولم تكن
المضايقات - التي ترتبت على ذلك - قليلة ، بالنسبة لجميع
من كانوا يقطنون مساكن الرقيق . ولقد ارتطمت « ماري »
مرة - وهي تجري - بساقي زوجة النجار التي كانت تحمل
ماء بين يديها .. ومع أنها بدأت تعول مستبقة العقاب - بمجرد
أن اصطدمت بركبتي المرأة - إلا أن هذا لم يعفها من الضرب

وجذب الشعر ، مما جعلها تزداد صراخا .. اما اذا لم ترتطم بأحد ، فانها كانت تندفع من الخارج مارقة خلال الباب ، وتبادر الى اعتلاء وعاء لترقى الى قمة القرن !

ولم يكن ثمة من راح يعاني القلق حقا من أجل بوليكي - سوى السيدة و « اكولينا » .. أما الاطفال ، فلم يكن يشغلهم سوى ما كان عليه من ثياب !

ولم تكن السيدة تكف عن سؤال ابجور ميخايلوفيتش : « ألم يحضر بوليكي بعد ؟ » .. او : « ترى أين يحتمل أن يكون ؟ » . فكان يجيبها وكأنه مفتبط لان ماتوقعه قد تحقق : « لست أدري » .. ثم كان يضيف في لهجة ذات معنى : « كان الواجب أن يكون هنا حوالى الظهر ! »

* * *

لم يسمع أحد شيئا عن « بوليكي » طيلة اليوم ، اللهم الا ما عرف - في اواخر النهار - من أن بعض فلاحى المناطق المجاورة ، قد وأوه يجرى في الطريق عارى الرأس ، يسأل كل من كان بصافه عما اذا كان قد عثر على خطاب ما . وراه رجل راقدا على حافة الطريق بجوار عربة ربط جوادها الى شجرة . وقال الرجل : « لقد حسنته سكرانا . وكان الجواد يبدو وكأنه لم يذق الماء ولا الطعام منذ يومين ، اذ كُن جنبا مهملين ! »

ولم تنم « اكولينا » الليل طوله ، بل ظلت ساهرة ، مرهفة السمع . ولكن « بوليكي » لم يعد . ولو انها كانت بمفردها ، او لو انها اوتيت طاهية او خادمة ، لشعرت بمزيد من التعاسة ، ولكن اولادها كانوا يلهونها أحيانا عن هواجسها . وما ان صاحت الديكة ، واستيقظت زوجة النجار ، حتى اضطرت « اكولينا » الى النهوض ، والى اشعال النار ، فقد كان اليوم عيدا .. وكان لا بد من انضاج الخبز واخراجه من الفرن

قبل أن يطلع النهار ، وكان لا بد من اعداد الجعة ، ومن خبز الفطائر ، ومن حلب البقرة ، ومن كي الثياب والاقمشة ، ومن تنظيف الاطفال ، ومن اجتلاب الماء الى «الركن» ، ومن الحيلولة دون أن تنفرد جارتها بالفرن كله .. ومن ثم شرعت «اكولينا» في العمل ، وهي لا تزال ترهف سمعها .. ولكن النهار ازداد ضياء ، واخذت أجراس الكنيسة تدق ، واستيقظ الاطفال .. ولم يعد بوليكي بعد !

وكانت بوادر الصقيع قد اكتنفت اليوم السابق ، وتساقط بعض الجليد وتراكم في أكوام صغيرة في الحقول ، وعلى الطريق واستقف الدور . ولكن الجو كان بديعسا ومشمسا ، رغم الصقيع ، في ذلك اليوم . وكانما كانت الطبيعة تمجد العيد .. وفي هذا الجو الصحو ، كان بوسع المرء أن يمد بصره فيرى على مسافة بعيدة ، ويسمع الاصوات عن بعد . ولكن «اكولينا» - التي كانت تقف بجوار الفرن - راحت تدفع رأسها خلال الباب ، وهي منزهة في اعداد الفطائر .. ومع ذلك فانها لم تسمع بوليكي - وهو يصل بالعربة - وانما عرفت من صيحات الاطفال أن زوجها قد عاد

كانت « آنى » قد ضمخت شعرها بالزيت ، وتهيات دون معونة أحد ، بوصفها الابنة الكبرى . وكانت ترتدي ثوبا من قماش منقوش ، جديدا ولكن المكواة لم تسرع عليه .. منحة من السيدة . وكان مشدودا وكأنه مصنوع من الياف الشجر . مما غبطها عليه الجيران . واخذ شعر الصبية يلعب ، اذ كانت قد اذابت لتضميحه نصف بوصة من شحم الشموع . بينما غابت قدمها في حذاءين رقيقين ، وان لم يكونا جديدين .. اما « ماري » فكانت لا تزال ملتفة في سترة قديمة ، وقد تلطخت بالوحل ، فلم تدعها « آنى » تدنو منها خشية أن يتسخ ثوبها . ومن ثم فقد مكثت « ماري » خارج الركن ، فرأت أباهما وهو يقبل في العربة ، ومعه كيس كبير . وصرخت :

« بابا جاء ! » ، واندفعت خلال الباب الى الخارج ، مارة بآني التي خفت لترى ما جعل أختها تصرخ - ملطخة لها ثوبها . ولم تعد « آني » تحفل بالحيطه ، بعد أن اتسخ الثوب ، فانقضت عليها وضربتها . ولم يكن بوسع « أكوлина » أن تبرح مكانها ، فلم تملك سوى أن صاحت في البنيتين : « وبعد ؟ .. سوف اسوطكما معا ! » . والتفتت نحو الباب ، فإذا بوليكي يدخل من الباب الخارجي ، حاملا كيسا ، فيسير الى « ركنه » مباشرة . ولاح لأكولينا أنه كان شاحبا ، وبدأ لها من وجوه أنه اما كان يتسهم ، واما كان يبكي .. ولكنها لم تجد وقتا كي تكتشف أى لاطالين كانت حاله .

وصاحت تسأله ، وهي في مكانها أمام الفرن : « أكل شيء على ما يرام يا بوليكي ؟ » . فغمغم بوليكي بكلمات لم تستبنيها .. وعادت تصيح : « اه ؟ .. هل ذهبت الى السيدة ؟ » . وجلس بوليكي على السرير في ركنه ، يتأمل ما حوله بنظرات طائشة ، وهو يتسهم ابتسامة تيم عن الذنب .. ابتسامة تعسة ، مفرطة التعاسة . وتناهى اليه صوت أكولينا ، تتسائل : « ماذا يا بوليكي ؟ .. لماذا اطلت الغياب ؟ » . فقال فجأة : « أجل يا أكولينا ، لقد اسلمت السيدة نفوسها .. وكم شكرتني ! » . وشرع يتلفت حوله ، وقد ازداد ما شاب ابتسامته من قلق وارترباك .

شيئان اجتنبنا نظراته المحمومة : الطفل الرضيع ، والاحبال التي كانت مدلاة من المهد المعلق . ونهض فصار الى حيث كان المهد معلقا ، وشرع يفك بعجلة عقدة حبل منها ، بأصابعه النحيله . ثم استقرت عيناه على الرضيع . ولكن « أكولينا » دخلت في تلك اللحظة ، حاملة صحفة الفطائر ، فاسرع بوليكي الى أخفاء الحبل في صدره ، وجلس على السرير .

وتسألت أكولينا : « ماذا بك يا بوليكي ؟ .. انك لست في حالك الطبيعية ؟ » . فاجابها : « لم أتم ! » . وفجأة ، مرق

شيء بجوار النافذة . وان هي الا لحظة حتى اندفعت « اكسيوتكا »
 — الخادم التي من « فوق » — كالسهم . وقالت : « السيدة
 تأمر بوليكي بأن يأتى فى هذه اللحظة .. هذه اللحظة ..
 افدوشيا نيكولايفنا تقول : هذه اللحظة ! » . فنظر بوليكي
 الى « اكولينا » ، ثم الى الفتاة ، وقال : « ها انذا قادم . ترى
 ما الذى تريد ؟ » . قالها ببساطة ، فهدأت وساوس اكولينا .
 ثم استطرد : « لعلها تريد أن تكافئنى .. قولى لها اننى قادم ! »
 ونهض فخرج . وتناولت « اكولينا » وعاء الاستحمام
 فوضعتة على مقعد خشبى ، وملأته بالماء من الدلاء التى كانت
 الى جوار الباب ، ومن الرجل الذى كان فى الفرن ، ثم شممت
 عن ساعديها ، ولست الماء لتتعرف مدى حرارته . وقالت :
 « تعالى يا مارى ، ساغسل لك جسمك ! » . فشرعت البنية
 الصغيرة — الحواء اللثفاء — فى الانتحاب . وصاحت اكولينا :
 « تعالى أيتها الشريرة ! ساغسل لك جسمك ، فلا تبثري
 ضجة ولا ضوضاء .. هيا ، فلا يزال أمامى أن أنظف أخاك ! »

* * *

فى تلك الاثناء ، لم يكن « بوليكي » قد تبع الخادم الموفدة
 من « فوق » ، وانما سعى الى مكان آخر .. فالى جانب
 الجدار — فى الردهة — كان ثمة سلم يفضى الى الفراغ الذى
 تحت السقف مباشرة . فلما بارح « بوليكي » مسكنه ، تلفت
 حوله ، حتى اذا لم ير احدا ، أحنى ظهره ، وتسلىق ذلك السلم
 بعجلة ، وخفة ، فكانه كان يجرى فوقه .

وتسألت السيدة فى صبر نافذ ، موجهة الخطاب الى
 « دنياشا » التى كانت ترجل لها شعرها وتنسقه : « ترى ما
 الذى جعل بوليكي لا يأتى حتى الآن ؟ .. أين بوليكي ؟ لماذا لم
 يأت ؟ » .. ومرة أخرى ، انسابت « اكسيوتكا » الى مساكن
 الرقيق ، واندفعت داخلة ، وهى تنادى بوليكي كى يوافي

مولاتها . فردت اكوлина التي كانت قد فرغت من « ماري » ،
 ووضعت ابنها الرضيع لتوها في حوض الفسيل ، وبدأت تبلل
 شعره الخفيف القصير ، غير حافلة ببكائه : « عجباً .. لقد
 ذهب منذ فترة طويلة » . وصرخ الطفل ، وتقلصت عضلات
 وجهه ، وراح يحاول أن يتشبث بشيء ما ، يديه الصغيرتين
 الواهنتين . فوضعت اكوлина إحدى يديها تحت ظهره الناعم ،
 البض ، الطرى ، وراحت بالأخرى تفسل جسمه ، وهي تقول
 متلفتة في قلق : « ابخشي عنه خشية أن يكون قد استسلم
 للنوم في مكان ما ! »

وفي تلك اللحظة ، كانت زوجة النجار قد صعدت مشعثة
 الشعر ، دون أن تحكم ضم أطراف أزارها ، الذي رفعت ذيله
 عن الأرض بيدها - إلى الفراغ الذي يلي السقف مباشرة ،
 حيث كانت قد علقت بعض الثياب لتجف . وضحجة ، ملأت
 ذلك الفراغ صرخة دعر ، وهبطت زوجة النجار كالخبولة ،
 وقد أغمضت عينيها ، وكادت لفرط اسراعها تنزلق على السلم
 انزلاقاً .. وصرخت : « بوليكي ! » .. وإظلمت اكوлина طفلها
 من بين يديها ، بينما راحت زوجة النجار تصرخ : « لقد شنيق
 نفسه ! »

واندفعت اكوлина الى الردهة ، غير حافلة بالرضيع الذي
 تقلب في الحوض ، ثم وقع وساقاه في الهواء ، ورأسه تحت
 الماء ! .. وكانت زوجة النجار تقول : « انه مدلى .. من إحدى
 العارضات الخشبية ! » . ولكنها أمسكت حين رأت « اكوлина » .

واندفعت « اكوлина » صاعدة السلم . وقبل أن يمسك بها
 أحد ، كانت قد بلغت قمته . ولكنها سرعان ما هوت من هناك ،
 وقد أرسلت صرخة رهيبية ، ولولا أن تلقفها القوم الذين
 أقبلوا مهرعين من كل ركن ، لكانت قد لقيت حتفها !



(١١) ضحكات في « ركن » بوليكي !

♦ لم يكن من سبيل الى تمييز شيء خلال الضجيج العام ،
لعدة دقائق . فقد تجمع حشد من القوم راحوا يصرخون
ويكلمون ، واخذ الاطفال والعجائز يبكون . بينما كانت
اكولينا مستلقية فاقدة الرشد . وأخيرا ، صعد رجلان -
النجار ووكيل الاعمال ، الذي كان قد هرع الى المكان - درجات
السلم . وشرعت زوجة النجار تروى - للمرة العشرين -
كيف انها لم تكن ترتاب في شيء ، اذ صعدت لتحضر ثوبا لها
. . « ونظرت حولى هكذا . . ورأيت . . رجلا ! ونظرت مرة
أخرى . . كانت ساقاه متدليتين . وتثلج كل جسمي ! . .
افهو أمر بديع ؟ تصوروا رجلا شثق نفسه ، وتصوروا ان
اكون انا التي قدر لها ان تراه ! . . اما كيف هبطت بسرعة ،
فهذا ما لست اذكره ! . . انها لمعجزة ان صان الله حياتي !
الحق ان الرب كان رحيما بي ! . . اهو أمر هين ؟ ان اقفز من
مكان على مثل هذا الارتفاع . كنت خليفة بأن أهوى قتيلا ! »
واقبل الرجلان اللذان صعدا السلم ، بعين القصة . .
كان بوليكي مملى من احدى العارضات ، بالجبل الذي اخذه
من المهد ، وهو في قميصه وسرواله . وكانت قلنسوته مقلوبة ،
باطنها الى الخارج ، وملقاة بجواره . . بينما كان معطفه وجلد

الغنم مطوين في تناسق وعناية ، على مقربة . وكانت قدماء
تمسكان الأرض ، ولكن أى أثر للحياة لم يكن يسعو عليه .
واستردت آكولينا وعيها ، فعادت تندفع نحو السلم ، ولكنها
صدت عنه . وفجأة ، صاحت الصبية اللثغاء من « الركن » :
« ماما .. لقد غلق (اى غرق) سيمكا ! » . وانتزعت آكولينا
نفسها من أيدى المسكين بها ، وجرت الى « الركن » .. كان
الطفل ملقى على ظهره في الحوض ، لا يحير حراكا ، وقد جمد
ساقاه عن كل حركة . فانتزعته آكولينا من الحوض ، ولكنه
لم يتنفس ، ولم يتحرك .. والقته على السرير ، وانطلقت -
وهي معقودة الذراعين على صدرها - بضحك مرتفع ، ثاقب ،
رهيب .. حتى أن « ماري » - التي ضحكت هي الأخرى ،
في بادئ الامر - غطت أذنيها بكفيها ، وهرعت خارجة الى
الردهة ، وهي تصرخ باكية !

وتقاطر الجيران على « الركن » معولين باكين ، فحملوا
الطفل الى الخارج ، وبدلوا يدلكون جسمه ، ولكن .. دون
جدوى . وكانت « آكولينا » تنقلب على الفراش وهي تضحك
.. تضحك بشكل بث الذعر في نفوس كل من سمعوها ! ..
وما كان المرء ليتبين عدد المقيمين في مساكن العبيد ، ولا أى
نوع من الناس هم ، الا في مثل هذه الآونة ، وقد تزاحم الرجال
والنساء .. كانوا جميعا في هرج ، يتكلمون في وقت واحد ،
وكثير منهم راحوا ييكون ، ولكن أحدا لم يقم بعمل يناسب
الموقف .. وكانت زوجة النجار لا تزال تجد أناسا لم يسمعوها
قصتها عن الصدمة التي أصابت مشاعرها الرقيقة ، عندما وقع
بصرها على المشهد غير المرتقب ، وكيف حفظها الله فلم تقع
من قمة السلم .. وراح كهل القى على كتفيه سترة امرأة -
وقد كان يوما خادما خاصا للسيد - يروى كيف أن امرأة
أفرقت نفسها في بركة ماء ، ذات يوم ، في عهد السيد السابق
.. وأوفد وكيل الأعمال رسلا الى القس وإلى « كونستابل » .

البوليس ، كما اقام رجالا على حراسة الجثة .. وظلت « أكسيوتكا » - الخادم التي من « فوق » - تحملق في الفتحة المفضية الى الفراغ الذى يلى السقف ، بعينين جامدتين ، دون أن ترى شيئا ، ودون أن تقوى - كذلك - على أن تنتزع نفسها من موقفها ، وتعود الى مولاتها .. وكانت « أجانا ميخايلوفنا » - التى كانت وصيفة لصاحبة الضيعة السابقة - تبكى وتطلب بعض الشئ لتهدئ أعصابها ! .. أما « آنا » القابلة (الدابة) فكانت ترقد جثة الطفل الصغير على المائدة ، وقد نضحت يديها البضتين ، المدربتين ، بزيت الزيتون . بينما وقفت نسوة أخريات حول « اكولينا » يحملن فيها صناعات !

وانكشبت البنات الصغيرات معا فى الركن، ورحن يسترقن النظر الى أمهن ، ثم انطلقن فى العويل . وما لبثن أن هذان لحظة ، ونظرن الى أمهن ، ثم ازدددن انكماشا وتماسكا .. وانتشر الرجال والعلماء خارج المبنى ، وهم ينظرون الى الباب والنوافذ ، وقد تجلى اللبر على أساريرهم ، وان لم يستطيعوا أن يروا أو يدركوا شيئا ، فراح كل منهم يسأل الآخر مما جرى ! .. فقال واحد أن النجار اجتث قدم زوجته ببيلة .. وقال آخر أن الفسالة قد حملت الى فراشها ، حيث وضعت ثلاثة توأم .. وقال ثالث أن قط الطاهية قد أصيب بلوثة فعرض عدا من الناس . على أن الحقيقة لم تلبث أن ذاعت تدريجا ، حتى صعدت - فى النهاية - الى سيدة الضيعة . ولاح أن أحدا لم يكن يدرك كيف يعلنها اليها . ولكن « ايجور » الجلف فاجأها بالحقائق مباشرة ، فاضطربت أعصاب السيدة ، وانقضت فترة طويلة قبل أن تسترد جأشها . وكان القوم المتجمعون فى أسفل الدار قد بدأوا يهدأون ، وأشعلت زوجة النجار النار تحت الغلاية ، لتعد بعض الشئ ، فلما لم توجه دموعه الى الدين لم يكونوا من المقيمين فى مساكن الرقيق ،

انصرفوا وقد رأوا أن ليس من اللياقة أن يبقوا . واخذ الغلمان يتصارعون خارج المبنى .

وكان كل امرئ قد عرف جليلة الامر ، فراحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم ، وينفضون ، حين دوت فجأة صرخة عالية : « السيدة ! .. السيدة ! » . وتراحم كل من في الحشد ، ليفسحوا لسيدة الضيعة طريقا ، وان راح كل منهم — في الوقت ذاته — يحاول أن يرى ما هي فاعلة .. وولجت السيدة الردهة بوجه شاحب لطحته الدموع ، اجتازت عتبة « ركن » اكولينا ، ودخلت عليها .. وتلاصقت عشرات الرؤوس وتراحمت لتنظر خلال الباب . واشتد الضغط على امرأة حبلى ، حتى اضطرت الى أن تطلق صرخة عالية ، ولكنها انتهزت هذا الظرف ، لتظفر لنفسها بمكان أمين في الصف الاول .. وكيف كان لاحد أن يتمالك نفسه من الرغبة في أن يرى سيدة الضيعة في « ركن » اكولينا ؟ .. كان الامر — بالنسبة لرفيق الدار — أشبه بالاضواء الملونة التي تنار في نهاية أى استعراض ! .. وكما أن اشعال نيران ملونة عمل عظيم ، يشير الى مناسبة جليلة ، فكذلك كان وجود سيدة الضيعة — في ثيابها الحريرية الموشاة بالبلانتيل — في « ركن » اكولينا !

وتقدمت السيدة ، فامسكت يد « اكولينا » ، ولكن اكولينا جذبت يدها من قبضتها ، فhez العبيد المسنون رؤوسهم في استهجان ، بينما قالت السيدة : « اكولينا ! .. ان اولادك بحاجة اليك ، فاحرصى على نفسك » . ولكن « اكولينا » انفجرت مقهقهة ، ونهضت قائلة : « ان اولادى كلهم من الفضة ، الفضة الخالصة ! .. فلست احتفظ بنقود ورقية ! » . ثم تمتعت في عجلة جعلت الكلمات تتلاحق وتندغم : « اني

فلت ابوليكي : « لا تأخذ نقودا ورقية ! » .. وها هي ذى النتيجة .. لقد لطخته بالقار .. بالقار والصابون يا سيدتى ! .. فان القار والصابون يخلصانك من أى جرب يلحق بك ، فى الحال ! » .. وازدادت قهقهتها ارتفاعا !

وتحولت السيدة عنها ، فأمرت باستدعاء مساعد الطبيب فورا ، وبأن يحضر معه لاصقات (لبخات) من الخردل . وقالت : « احضروا بعض الماء البارد ! » . وشرعت بنفسها تبحث عنه ، ولكنها اثباتت فجأة ، اذ رأت الطفل الميت مع القابلة المعجوز « آنا » . ورأى الجميع كيف أخفت وجهها فى منديلها ، وانفجرت باكية .. ومما يؤسف له ان السيدة لم تر ما كانت الجدة « آنا » تفعل ، فانها كانت قميئة بأن تقدره ، لا سيما وأنه كان من أجل خاطرها هي .. فقد غطت الطفل بقطعة من الكتان ، وبسطت ذراعيه بيديها الطريتين المدربتين ، وهزت رأسه ، وعبست ، ثم أرخت جفنيه على عينيه ، وتنهدت وقد شعرت بأن كل امرئ رأى - فى عملها - مدى طيبة قلبها ! .. ولكن السيعة لم تر شيئا من هذا ، لانها لم تقو على ان ترى أى شئ على الاطلاق . فقد راحت تبكى فى نشبيج هيسيتى !

وأسرعت الايدى تعينها على الوقوف والسير ، واقتيدت الى خارج المكان ، ثم الى دارها . وقال كثيرون لانفسهم : « اهنا كل ما يرى منها ؟ » . ثم عادوا ينفضون ويتفرقون . وظلت « اكولينا » سادرة فى ضحكها وهذيانها . وما لبثت ان نقلت الى حجرة اخرى ، حيث حجمت ليسيل الدم المفسود من رأسها ، ثم كسيت الجراح بلسقات الخردل ، ووضع ثلج على رأسها . ومع ذلك فانها لم تثب الى رشدها ، ولم تبك ، بل ظلت تضحك وتأتى من الافعال والاقوال ما لم يتمالك معه أهل الرحمة - الذين عنوا بها - انفسهم من ان يضحكوا هم الآخرون !



(١٢) ليلة رهيبة في الضيعة !

• لم يكن العيد بهيجا في (بوكروفسك) . ومع ان اليوم كان جميلا ، الا ان القوم لم يخرجوا للهو والنزهة ، ولم تردد الغنيات الاغاني في الشارع ، ولم يعزف عمال المصنع - الذين اقبلوا من المدينة ليقضوا ذلك اليوم بين اهلهم - على « الكونسرتينا » ولا على « الباليكا » (١) ، لا ولم يلعبوا مع الغنيات . وانما جلسوا جميعا في الاركان واجمين ، فاذا تكلموا كان حديثهم خافتا ، وكانما هناك روح شريرة تتصنت اقوالهم . ولم يكن الامر بالغ السوء ابان النهار ، ولكن .. ما أن هبط الليل ، وشرعت انكلاب تعوى - وقد زاد الامر سوءا أن هبت ريح راحت تولول خلال المداخل - حتى تملك القوم جميعا خوف طاغ ، دفع الذين كانوا يملكون شموعا الى أن يشعلوها امام ايقوناتهم . واضطر كل من تصادف أن كان وحيدا في « ركنه » الى أن يسعى الى جيرانه يسألهم الاذن ليمكث الليل معهم ، ليتخفف من الوحشة .. واى امرىء كان عمله يقتضيه ان يذهب الى الحظائر ، أبى أن يخرج ، وأثر أن يدع الماشية بلا علف - في تلك الليلة - غير مشفق عليها .. كما ان الماء المقدس - الذى كان كل امرىء يمتلك زجاجة صغيرة منه لطرده كل سوء ، استهلك عن آخره خلال الليل !

(١) الكونسرتينا والباليكا من الآلات الموسيقية الشائعة في روسيا

ومع ذلك فما أكثر من سمعوا شيئاً يسير في الفراغ - الذي يلى السقف مباشرة - بخطى ثقيلة .. وشاهد الحداد ثعبانا يطير نحو هذا المكان مباشرة ! .. أما « ركن » بوليكي فلم يكن يعمره احد ، فقد نقل الاطفال والمرأة المجنونة الى مكان آخر . ولم يبق سوى جثمان الطفل الميت راقداً هناك ، وقد جلست عجوزان ساهرتين عليه ، بينما كانت امرأة نالثة .. « حاجة » (١) تتلو الزامير ، مدقوقة بحرارة تقواها ، لا من أجل الطفل ، وانما بشعور مبهم بالنكبة التي حاقت بالجميع .. فهكذا ارادت سيدة الضيعة . ولقد سمعت « الحاجة » والمرأتان العجوزان ، كيف ان عارضات السقف الخشبية كانت تهتز ، كما كان ينبعث انين متوجع ، كلما انتهين من كل فقرة من كتاب « الزامير » . واذاً ذلك كن يهتفن : « ليقيم الرب ! » ، فاذا بكل شيء يهنا من جديد .

ودعت زوجة النجار صديقة لها ، فلم تناما ليلتهما طولها ، بل شربتا كل الشاي الذي كانت قد أعدته للأسبوع كله . وسمعتا - هما الاخريان - كيف ان العارضات كانت تثر فوق راسيهما ، كما سمعتا جلبة وكان اكياسا كانت تتساقط تباعا . ولقد امان وجود الحراس الفلاحين على استبقاء شجاعة اهل مساكن الرقيق بعض الشيء ، والا لكانوا قد ماتوا خوفاً في ذلك الليل .. وكان الفلاحون ينامون على بعض القش في الردهة ، وقد ذكروا - فيما بعد - انهم سمعوا هم الآخرون امورا عجيبة في الفراغ الذي يلى السقف ، وان كانوا - اذ ذلك - يتحادثون في هدوء تام عن التجنيد ، ويهضغون لقما من الخبز ، ويحكون أجسادهم ، و - فوق كل شيء - يملأون الردهة برائحة غثة عرفت عن الفلاحين ، حتى أن زوجة النجار لم تتمالك أن بصقت - إذ تصادف أن مرت بالقرب

(١) « الحاجة » امرأة تصطنع اللوثة الدينية ، فتصير من الاولياء ، وتسمى « حاجة » ، ولو لم تكن قد زارت الاراضي المقدسة

منهم - ونعتتهم بأنهم « فروخ الفلاحين » !
ومهما يكن الامر ، فإن الميت ظل معلقا في الفراغ الذى يلى
السقف . ولاح كأنها خيمت روح الشر ذاتها على مساكن
الرقيق ، باسطة جناحيها الهائلتين ، فى تلك الليلة ، مبدية
قوتها وسلطانها ، مقتربة من أولئك القوم كما لم تقترب قط
من قبل ! .. هكذا شعروا جميعا . ولست أدري ما اذا كانوا
على صواب ، بل اننى لاراهم كانوا فى خطأ مبين . واعتقد انه
لو كان قد قدر لشخص على شيء من الجراءة أن يأخذ شمعة
او مصباحا فى تلك الليلة الرهيبة ، وأن يرسم على صدره
علامة الصليب - بل وبدون أن يرسم الصليب - فصعد الى
ما تحت السقف ، وبدد رهبة الليل رويدا - خلال تقدمه
بالشمعة - ملقيا الضوء على العارضات الخشبية ، وعلى
الرمل ، وعلى أنبوبة المجارى المكسوة بنسيج العنكبوت ، وعلى
لفافات العنق التى خلفتها زوجة النجار وراءها . . ووصل
الى « بوليكي » ، فغالب مخاوفه ورفع المصباح الى مستوى
وجهه . لراى عين الشكل النحيل ، وقد مست القدمان الارض
لان الحبل ارتخى ، ومال الجسم جانبا وقد خلا من الحياة . .
ولا صليب تحت القميص ، وقد سقط الرأس على الصدر . .
ولراى الوجه الطيب السحنة وقد تفتحت عيناه بلا ابصار ،
والابتسامة التى تجمع بين المسكنة والشعور بالذنب ، وهدوا
ساجيا ، وصمنا يسيطر على كل شيء . . والواقع أن زوجة
النجار كانت أكثر بشاعة وازهابا من بوليكي - رغم أن صليبه
كان بعيدا عن جسمه ، وملقى على إحدى العارضات - لا سيما
وهي تنكمش فى ركن من سريرها ، بشعر مشعث ، وعينين
مغمضتين بالذعر ، وقد راحت تروى كيف انها سمعت ضجيج
أكياس تتساقط !
و « فوق » .. أى فى دار السيدة ، سيطرت عين الرهبة

التي سادت مساكن الرقيق . وكان مخدع السيدة نفسها معبقا برائحة « الكولونيا » والادوية ، بينما راحت « دنياشا » تصهر شمعا أصفر ، لتعد لاصقة « لبخة » . أما السبب الذي من أجله كانت هذه اللاصقة ، فهذا ما لست أدريه ، وأن كنت أعلم أن اللاصقات كانت تصنع عادة عندما تكون السيدة متوعدة . وقد كانت في تلك الليلة بالغة الاستياء ، حتى لقد حل بها المرض . ولقد أقبلت عمه « دنياشا » لتمكث الليل معها ، حتى تشد أزرها . ومن ثم فقد كانت في غرفة الوصيفة أربع ، رحن يتكلمن بأصوات خافتة : دنياشا ، وعمتها ، والوصيفة الثانية ، وأكسيوتكا . . وما لبثت « دنياشا » أن تساءلت : « من منكن تذهب لتحضر بعض الزيت ؟ » . فقالت الوصيفة الثانية في حزم وإصرار : « ما من شيء يفريني على الذهاب »

— هراء ! .. اذهبي مع أكسيوتكا !

فقالت أكسيوتكا : « سأهرع وحدي ، فلست خائفة من

شيء ! » . بيد أنها لم تكذ تفرغ من قولها ، حتى شعرت بخوف طارئ ! بينما قالت دنياشا : « حسن .. اذهبي اذن يا عزيزتي الى الجدة آنا ، وسئليها ان تعطيك بعض الزيت في قدح ، واحضريه الى هنا ، ولا تسكبي منه شيئا ! »

ورفعت « أكسيوتكا » ذيل ثوبها باحدى يديها . واذ حال هذا دون تارجح ذراعيها معا كالبندولين ، فانها راحت تحرك ذراعا واحدة بعنف مضاعف ، في خط متعامد على خيط سيرها ، وهي تندفع ! وكانت خائفة .. وخيل اليها أنها قعينة بأن تموت ذمرا اذا هي رأت او سمعت شيئا ، ولو كان هذا الشيء أمها التي كانت على قيد الحياة .. ومركت في طريقها المألوف ، وهي مغمضة العينين !



(١٣) فلاح يقتحم مخدع السيدة !

♦ وفجأة ، انبعث على مقربة من أكسيوتكا صوت ريفى عميق ، متسائلا : « هل السيدة نائمة أو غير نائمة ؟ » .
 ففتحت الفتاة عينيها - اللتين كانت تغمضهما - ورات امامها جسما خيل اليها انه أكثر ارتفاعا من الدار كلها . فصرخت وأرذلت عائدة بسرعة هوجاء ، حتى أن ذيل ثوبها راح يتطاير خلفها فى الهواء . وبقفزة واحدة تجاوزت المدخل ، وبقفزة أخرى كانت فى غرفة الوصيفة ، حيث ارتفعت على سرير وهي ترسل صراخا ضاريا . وأوشكت دنياشا وعمتها والوصيفة الثانية أن يمتن رعبا . وقبل أن يتمالكن حواسهن ، سمعن خطوات ثقيلة بطيئة مترددة ، فى الردهة ، انتهت أخيرا عند بابهن . واندفعت « دنياشا » الى مخدع مولاتها والشسمع المصهور يتناثر من بين يديها . واختبأت الوصيفة الثانية وراء الستائر . أما العمة - وكانت أقوى ممنهن شخصية - فقد همت بأن تدفع الباب المؤدى الى الردهة ، وتحكم اغلاقه . ولكن الباب فتح - فى تلك اللحظة - وولج فلاح الحجرة ! ولم يكن القادم سوى دوتلوف بجدايه الشبهين بالقارين ! . وراح يتلفت حوله باحثا عن ايقونة ، دون أن يحفل بما استولى على من كن فى حجرة الوصيفة من مخاوف . واذ لم يـم الايقونة الصغيرة التى كانت فى الركن الايسر من الحجرة ،

وقف امام صوان كانت اوانى الشاي واقداحه تحفظ فيه ، ورسم على صدره علامة الصليب . ثم وضع قلنسوته على حافة النافذة ، ودس يده فى صدر معطفه ، وراح يدفعها موغلا ، وكأنه يريد أن يحك جلده ، تحت الابط . وما لبث أن أخرج المظروف الذى كان يحمل خمسة أختام بالشمع البنى ، يحمل كل منها رسم مرساة (هلب) !

وضغطت عمة « دنياشا » قلبها بيدها ، ثم راحت تناضل ، حتى انتزعت الكلمات بعناء ، قائلة : « لعمري ! .. لقد أوقعت الدمع فى نفسى حقا ، حتى اننى لا أقوى على أن أنطق بك .. كلمة ! لقد ظننت أن لحظتى الأخيرة قد حانت ! » وصاحت الوصيعة الثانية ، وهى تبرز من وراء الستائر : « أفهكذا يتصرف الناس ؟ » .. وقالت « دنياشا » ، وهى تخرج من مخدع مولاتها : « لقد انزعجت السيدة نفسها . فما الذى تقصده اذ تقتحم الدار من مدخل الخادومات ، دون ما استئذان ؟ .. يا لك من فلاح جلف ! »

ولم يحاول « دوتلوف » أن يلتمس لنفسه الاعذار ، بل قال أنه راغب فى أن يقابل السيعة . فقالت دنياشا : « أهيا متوعكة المزاج ! » . وفى تلك اللحظة ، اطلقت « اكسيوتكا » ضحكا عاليا ، بدا أنها لم تكن تقوى على كبجه ، حتى أنها اضطرت الى أن تدفن وجهها فى وسادة السرير . وظلت ساعة لا تقوى - رغم تهديدات دنياشا وعمتها - على أن ترفع وجهها فترة ، دون أن تنفجر فى الضحك ثانية ، وكأنما كان ثمة شئ يفجر الضحك فى صدر ثوبها الوردى المنقوش ، وفى شدقيها المضرجين بالحمرة . فلقد لاح لها أن من المضحك كل الاضحك أن يستولى الخوف على الجميع - الى هذا الحد - وراحت تدس رأسها فى الوسادة ، وتدق الارض بحذاءها ، وكل جسمها يهتز بعنف لغرط الضحك !

وقف « دوتلوف » فى مكانه ، وراح يطيل النظر اليها بامعان ،

وكانه يستوثق مما أصابها . ولكنه لم يلبث أن تحول عنها ، دون أن يكتشف سر ما بها ، وعاد يقسول : « الواقع أن .. الأمر .. الأمر على جانب عظيم من الأهمية . وليس عليك سوى أن تتخلي للسيدة ، فتقولى لها أن فلاحا وجد الخطاب الذى ضم النقود ؟ » . فتساءلت دنياشا : « أية نقود ؟ » . وقرأت - قبل أن تحمل النبا للسيدة - ما كان مكتوبا على المظروف ، وسألت دوتلوف عن المكان والزمان اللذين وجد فيهما النقود التى كان على « بوليكى » أن يحضرها من المدينة . حتى اذا استمعت الى كل شيء ، دفعت عن طريقها الخادم الصغيرة - التى كانت لا تزال تتلوى لفسرت الضحك - وأقصتها الى البهو الخارجى ، ثم دخلت الى سيدتها .

ودهش « دوتلوف » اذ أبت السيدة أن تستقبله ، ولم تقل لدنياشا شيئا معقولا .. فقد كان كل ما قالت : « لست أرى شيئا عن هذا الخطاب ، ولا أريد أن أعرف شيئا ! .. أى فلاح ؟ وأية نقود ؟ .. لا أستطيع ، ولا أريد أن أرى أحدا ! .. ليت ركنى هذا الفلاح بسلام ! »

وقال دوتلوف ، وهو يقلب المظروف بين يديه : « ما الذى ينبغى أن أفعل ؟ .. انه ليس بالمبلغ البسيط ! » . ثم سأل دنياشا : « ما الذى كتب عليه ؟ » . فعادت الفتاة تقرأ العنوان .. و « دوتلوف » فى ريب من أمره ، وقد بقى فى نفسه شيء من الأمل فى أن النقود قد لا تكون نقود السيدة ، وأن العنوان لم يقرأ له كما ينبغى أن يقرأ .. ولكن « دنياشا » قطعت كل شك ورجاء بشأن المبلغ والعنوان ، فدس المظروف فى صدره وهو يتنهد ، وهم بالانصراف قائلا : « أعتقد أن على أن أسلمه الى ضابط البوليس » . فاستوقفته دنياشا قائلة : « مهلا ! .. سأحاول مرة أخرى » .. كانت قد عملت فكرها بعد أن احتفى

المظروف في صدر معطف الفلاح ، فلم تشأ أن تفسوت على سيدتها المبلغ ، وقالت : « هات هذا الخطاب ! » . فأخرج « دوتلوف » الخطاب ثانية ، ولكنه تردد برهة قبل أن يضعه في يد « دنياشا » المبسوطة . ثم قال : « قولى أن سمعان دوتلوف قد وجده في الطريق .. »

— حسنا .. هاته !

— لقد خيل الى أنه ليس ذا قيمة .. مجرد خطاب ! ولكن جنديا قرأ لى ما كتب عليه عن وجود نقود بداخله ..
— لا بأس .. اذن ، هاته !

فقال دوتلوف : « اننى لم أجسر على الذهاب الى أى مكان ، ولا الى بيتى قبل أن .. » ، وسكت لحظة ، ثم استطرد دون أن يتخلى عن المظروف الثمين : « قولى هذا للسيدة ! » .. وأخيرا ، أخذت دنياشا الخطاب منه ، ودخلت على مولاتها من جديد . فصاحت السيدة فى لهجة عاتبة : « **أواه ، يا الهى ! .. لا تحدثينى يا دنياشا عن هذه النقود ! .. فقط تصورى ذلك الطفل الصغير .. !** » . وارتجفت وهى تتمشىل ابن « اكولينا » الميت ، بينما عادت دنياشا تقول : « أن الفلاح لا يدرى لمن تريد أن يعطى هذا المبلغ يا مولاتى ! » . وهنا فتحت السيدة المظروف ، فارتجفت لرأى النقود ، ووجمت فترة وهى شاردة البال ، ثم قالت : « يا للنقود البهيسة ! .. ما أكثر ما تحدث من آثام ! » . فقالت دنياشا : « ان دوتلوف هو الذى أحضرها يا مولاتى . فهل تأمرين بأن ينصرف ، أو تكرمين بالخروج لكى تقابليه ؟ .. وهل النقود كاملة لم تمس ؟ » وفجأة ، قالت السيدة وهى تتلمس يد دنياشا لتتشبث بها . « لا أريد هذه النقود .. أنها نقود رهيبة ! ما أكثر ما فعلت ! أنبئه بأن له أن يأخذها اذا شاء ! » . وراحت تردد على مسمع من دنياشا الذهولة : « **أجل ، أجل ، أجل ! .. دعيه يأخذها بأكملها ، وليفعل بها ما يشاء !** » . وهتفت

دنياشا ، وهى تبسم ، وكأنها تحايل طفلة : « ألف وخمسمائة روبل ؟ ! » . فصاحت السيدة بصير نافذ : « دعيه ياخذها باكملها ! .. كيف لا تفهميننى ؟ أنها نقود منحوسسة ، فلا تحدثينى عن هذا بعد الآن . » . لياخذها الفلاح الذى عثر عليها ! هيا ! »

وخرجت دنياشا الى حجرة الوصيفة ، فسألها دوتلوف : « هل وجدت المبلغ كاملا ؟ » . فأجابت دنياشا ، وهى تسلمه المظروف : « يحسن بك أن تحصيه بنفسك ، فقد أمرت بأن أسلمك اياه ! » . ودس « دوتلوف » قلنسوته تحت ابطه ، وانحنى الى الامام ، وشرع يحصى المبلغ . ثم تساءل : « هل لديكم عداد ؟ » (١) . فلقد خطر لدوتلوف أن السيدة كانت غبية لا تحسن العد ، وأن هذا هو الذى دعاها الى أن تأمره بعد النقود . ولكن دنياشا قالت بجفاء : « تستطيع أن تعدها فى بيتك .. فالنقود لك ! » . لقد قالت السيدة : لا أريد أن أراها ، فدعها للرجل الذى أحضرها ! » . وحمل « دوتلوف » فى دنياشا ، دون أن يقيم ظهره المنحنى ، بينما بسطت عمسة الوصيفة راحتيها ، وهتفت : « آه ، أيتها الام المقدسة ! اى حظ ساقه الرب لهذا الرجل ! آه ، أيتها الام المقدسة ! » . ولم تستطع الوصيفة الثانية أن تصدق ما سمعت فهتفت بزميلتها : « ما أراك جادة يا أفدوشسبا بأفلوفنا .. أنك تمرحين ! » . فقالت دنياشا ، دون أن تخفى استنياها : « أمزح ؟ ! حقا .. لقد أمرتنى بأن أعطى الفلاح النقود .. هاك ، خذ النقود وامض ! .. مصائب قوم عند قوم فوائد ! » . فقالت العمسة : « ما هذا مجال المزاح .. انها ألف وخمسمائة روبل » . فعقبت دنياشا قائلة : « بل هى أكثر ! » . ثم أردفت قائلة لدوتلوف فى سخرية : « يجب أن تقدم شمعة بعشرة كوبيكات

(١) اطار خشبي تمتد بعرضه اسلاك فيها قطع من الغرز ، يستخدم لتعليم الاطفال العد . وكان استعماله شائعا بين فلاحى روسيا قديما

للقدیس نیقولا .. لماذا لا تثوب الى وعيك ؟ .. لو ان هذه النقود آلت الى رجل فقير .. ! ولكن هذا الرجل اوتى وفرة من المال !

وادرک « دوتلوف » أخيرا أن الامر لم يكن مزاحا ، فشرع يجمع الأوراق المالية التي كان قد نثرها حوله ليحصيها ، واخذ يضعها في المظروف . بيد أن يديه كانتا ترتجفان ، وقد ظل ينظر الى الوصيفتين ليطمئن الى أنه لم يكن في الامر كله أى مزاح .. بينما راحت دنياشا تقول ، متظاهرة بأنها تحتقر الفلاح والمال معا : « انظرون ! انه لا يكاد يعقل لقرطالفرح ! دعى اضع النقود لك في المظروف ! » . وهمت بأن تمسك بالأوراق المالية ، ولكن « دوتلوف » لم يمنعها تصل اليها ، بل كور الأوراق معا ، ودفعها الى جوف المظروف ، ثم تنسأول قلنسوته . فسألته دنياشا : « أمتهج أنت ؟ » . و أجاب : « لا أكاد أدري من امرى شيئا ! .. الواقع .. » . ولم يتم عبارته ، بل لوح بيده ، وابتسم ، وغادرا المكان وهو يوشك أن يبكي !

وذقت السيدة الجرس ، ثم تسألت : « هل أعطيتسه النقود ؟ » . فأجابت دنياشا : « أجل »

— وهل كان شديد الابتهاج ؟

— كان أشبه بمجنون

— آه ! .. أدعه ثانية ، فانى أريد أن أسأله كيف عثر على الخطاب . أدعه الى هنا ، فلست أقوى على مبارحة المخدع ! وهرعت دنياشا الى الخارج ، فوجدت الفلاح عند المدخل ، وهو لا يزال عارى الرأس ، وان كان قد أخرج كيس نقوده ، ويوقف منحنى القامة بفك رباطه ، بينما كان ممسكا بمظروف النقود بين أسنانه .. ولعله تصور أن النقود لن تصبح ملكا له ما لم تكن داخل الكيس . فلما نادته دنياشا ، اشتد به

الجزع ، وهتف : « ماذا جرى يا أفدوشيا .. أفدوشيا بافلوفنا ؟ هل تريد السيدة أن تسترد النقود ؟ .. الاتسطيعين أن تشفعى لى عندها ، وأعدك أن أحضر لك بعض العسل البديع ؟ » . فقالت ساخرة : « حقا ! .. كما أكثر ما أحضرت ! » وفتح الباب مرة أخرى ، واقتيد الفلاح إلى السيدة ، وهو أبعد ما يكون عن الابتهاج . فقد راح يفكر فى سريره - وهو ماض خلال الحجرات ، رافعا قدميه أكثر مما ينبغي ، وكأنه يخطو خلال حشيش طويل يحاول أن لا يسحقه بحذاءيه المتنوعين من اللحاء : « ويلاه ! لسوف تسترد النقود ! » . ولم يتبين شيئا مما كان حوله .. ومر بجوار امرأة ، فرأى زهورا ، وفلاحا فى حذاءين من اللحاء ، يرفع قدميه عاليا .. ثم رأى سيذا يضع على مينييه عوينتين (نظارة) ، فى رسم على الجدار .. ثم شيئا أخضر كأنه الحوض الخشبي ، وشيئا أبيض .. وفجأه ، بدأ الشيء الأبيض يتكلم ، فهو لم يكن سوى السيدة .. ولم يفقه دوتلوف شيئا ، بل اكتفى بأن راح يحملق أمله ، دون أن يعرف أين كان ، وقد خيل إليه أن ضبابا يكتنف كل شيء !

— أهذا أنت يا دوتلوف ؟

— أجل يا سيدتى .. تماما كما كنت ، لم أمنه .. اننى لم أكن مسرورا ، فليسمعنى الله ! .. لشدما أرهقت جوادى ، لأصل إلى هنا مسرعا !

فقالت السيدة فى ازدراء ، وان بدت ابتسامتها رقيقة : « حسنا ، انه حظك ! .. خذه ، خذه لنفسك ! » . ودارت عيناه فى محجريهما ، بينما استطردت السيدة : « اننى لمسورة إذ آل اليك المبلغ ، فليجعله الله ذا نفع لك ! أفسرور أنت الآن ؟ » . فأجاب مرتبكا : « وكيف لا أكون مسرورا ؟ .. اننى مسرور جدا يا مولاتى .. مسرور جدا ! سأصلى دائما من أجلك ، وأدعو لك ! .. انما انا مسرور بوجودك على قيد

الحياة . والحمد لله ! »

— وكيف عثرت عليه ؟

— أعني أن بوسعنا دائما أن نبذل قصارى طاقتنا من أجل مولاتنا ، في شرف وأمانة ، ودون ..

وهنا قالت دنياشا : « إنه مرتبك يا مولاتي ! »

— كنت قد صحبت ابن أخي المجند ، وفيما كنت أقود عربتي عائدا ، عثرت على الخطيب في الطريق .. ولا بد أن بوليكي قد أسقطه عفوا !

— لا بأس ، انصرف .. انصرف أيها الرجل الطيب ، ويسرنى أنك أنت الذي عثرت عليه !

وقال الفلاح : « لكم أنا مسرور يا مولاتي ! » . ثم تذكر أنه لم يقدم لها الشكر اللازم ، ولم يذكر كيف يتصرف . وابتسمت السيدة ودنياشا ، واذ ذاك شرع الرجل يسير وكأنه يخطو بين أعشاب عالية ، وهو يكبح نفسه بعناء حتى لا يجرى ، وقد داخله الخوف من أن يستوقف فتؤخذ منه النقود !

(١٤) مع جثة « بوليكي » !

• ما أن خرج دوتلوف من الدار ، حتى عرج صوب أشجار الزيزفون ، مبتعدا عن الطريق ، ثم فك حزامه ليخرج كيسه بسهولة ، وغيب فيه النقود . وكانت شفتاه تخرجان وتنبسطان وتقاربان ، دون ما صوت . فلما وضع النقود في الكيس ، نبت حزامه ، ورسم الصليب على صدره ، ثم عاد إلى الطريق مترنحا — وكأنه ثمل — تحت وطأة الأفكار التي تدافعت على ذهنه . وفجأة ، رأى شبح رجل مقبلا عليه فصاح ، فاذا به « إيفيم » وقد أمسك بيده راوثة ، وسهر على الحراسة عندهم مساكن الرقيق . وقال إيفيم بابتهاج ، وهو يقترب منه ، وقد أمضه السهر وحيدا : « آه ، أهذا أنت يا أبى سمعان ؟ ! .. هل ودعتم



المجندين يا ابت ؟ » . فأجابه : « ودعناهم .. وماذا تفعل ؟ »
 - لقد عيئت لحراسة « بوليكي » الذي شبق نفسه !
 - وأين هو ؟

- فوق ، معلق في الفراغ تحت السقف ، كما يقولون !
 وأشار بهراوته نحو سقف مساكن العييد ، فتطلع « دوتلوف »
 حيث أشار . ومع أنه لم ير شيئا ، فقد قطب عينيه ، وأرهف
 بصره . ثم هز رأسه . وقال ايغيم : « لقد جاء ضابط البوليس ،
 كما قال الحوذى ، وسينزلون الجثة حالا . اليست هذه ليلة
 رهيبة يا ابت ؟ .. ما من شيء يحملنى على أن أصعد اليه
 بالليل ، ولو أمرت امرا .. لن أصعد ولو شاء ايجور ميخايلوفيتش
 أن يقتلنى .. » وكان دوتلوف يردد ، دون أن يفقه ما يقول :
 « يا لها من خطيئة ! .. آه ، يا له من إثم ! » . وهم بأن
 يمضى في طريقه ، فاذا صوت ايجور ميخايلوفيتش يستوقفه ،
 اذ انطلق من مدخل مكتبه قائلا : « اسمع ، اينها الحارس !
 تعال ! » . فلبى « ايغيم » نداءه . واذا ذاك سألته : « من ذلك
 الفلاح الذي كان يقف معك ؟ » . وأجابه ايغيم : « انه
 دوتلوف » . فصاح وكيل الاعمال : « آه ، أهذا انت ياسمعان !
 تعال معنا ! »

واقترب دوتلوف .. وعلى ضوء مصباح كان الحوذى
 يحمله ، رأى الشيخ ايجور ميخايلوفيتش يقف مع رجل

قصير ، يحيط بقبعته شريط ، وقد ارتدى معطفا رسميا طويلا .. ذلك كان « كونسيتابل » البوليس . وأحس الشيخ بشيء من عدم الارتياح ، ولكنه لم يجد مفرأ من أن يقف أمامهما ، بينما كان ايجور يقول : « وأنت يا ايفيم .. أنك فتى شجاع ، فأصعد الى الفراغ الذى يلى السقف ، حيث شئق نفسه ، وأصلح وضع السلم ليرقى صاحب الفخامة اليه » . وهرع « ايفيم » - الذى كان منذ لحظة يقول أن شيئا فى الدنيا لن يحمله على الصعود - فيمم شطر المكان ، وحذاءه الخشبيان يقرقعان .

وأشعل ضابط البوليس ثقابا ، أوقد به غليوننا .. كان يقيم على حوالى ميل ونصف الميل . ولما كان قد تلقى من رئيسه تقريرا شديدا - لافراطه فى الشراب - فقد أبدى همة وحمية ، فوصل فى الساعة العاشرة مساء ، ورغب فى أن يرى الجثة لغوره ! .. وتحول « ايجور ميخايلوفيتش » الى « دوتلوف » فسأله عما أتى به . ولكنى يجيبه دوتلوف ، راح يروى له كيف عثر على النقود ، وما فعلته السيدة . وقال انه كان فى طريقه الى « ايجور ميخايلوفيتش » ليسأله رايه . وشدهما جنزع حين سأله وكيل الأعمال أن يعطيه المظروف ، ثم أخذ فيحصيه .. وتناول « كونسيتابل » البوليس المظروف بدوره ، فأمسك به للحظة وجيزة ، وسأل دوتلوف عن بعض الامور بشيء من الجفاء . وأخذ الشيخ يقول لنفسه : « واحسرتاه ! لقد طارت النقود ! » . ثم مضى يتلمس تبرير امره ، ولكن « الكونسيتابل » لم يلبث ان ناوله النقود ثانية ، وهو يقول : « يا له من حظ ، لغبى ما فون ! » . فقال ايجور ميخايلوفيتش : « لقد واثاه فى الوقت المناسب ، فقد كان عائدا بعد أن رافق ابن أخيه المجند . وبوسعه الآن أن يفنديه ! » .. وقال رجل البوليس : « آه ! » . ثم سار نحو مساكن الرقيق وتحول ايجور ميخايلوفيتش لدوتلوف : « هلي ستفتديه ..

اقصد ايليشا ؟ » . فقال الرجل : « وكيف لى ان افتديه ؟ . هل ستكون ثمة نقود كافية ؟ .. ثم ، قد تكون الفرصة فاتت ! » . فقال وكيل الاعمال : « انت ادرى بذلك ! » . وتبعنا « كونستابل » البوليس . واقتربوا من مساكن الرقيق ، حيث كان الحراس الكريهو الرائحة يقفون فى الردهة ، ومعهم مصباح .. ولاحوا وكأنهم مذنبون ، ولعل ذلك كان راجعا الى الرائحة الكريهة التى كانوا يبتئونها حولهم .. وكانوا جميعا صامتين . فتسائل كونستابل البوليس : « أين هو ؟ » .. فقال ايجور ميخايلوفيتش هامسا : « هنا » . ثم أردف قائلا لايفيم : « انك فتى جسور ، فتقدم الضابط ، ومعك المصباح » . وكان ايفيم قد وضع لوحا مستقيما من الخشب ، فوق قمة السلم . وبدأ انه فقد كل خوف ، فصعد السلم ، طاويا كل درجتين أو ثلاث معا ، مبتهجا ، ملقيا الضسوء على طريق « كونستابل » البوليس . وعندما غابا فى الفراغ الذى يلى السقف ، تنهد دوتلوف ، ووقف واحدى قدميه على أدنى درجات السلم وتبعهما وكيل الاعمال .

ومرت دقيقتان أو ثلاث . وكان وقسح الاقدام — تحت السقف — قد انقطع ، مما نم عن انهما بلغا الجثة . وما لبث « ايفيم » أن نادى من أعلى : « ابتاه ، انهم يريدونك ! » . فبدأ دوتلوف يصعد السلم . ولم يكن ضوء المصباح يكشف سوى الجزء الأعلى من جسم كل من « كونستابل » البوليس و « ايجور ميخايلوفيتش » ، خلف القوائم الخشبية . وكان ثمة شخص آخر يقف خلفهما وظهره نحو فتحة المكان .. وكان هذا هو « بوليكي » . وصعد « دوتلوف » ، ثم وقف ، ورسم علامة الصليب على صدره .. وقال « كونستابل » البوليس : « اديروه يا أولاد ! » . فلم يتحرك أحد . واذ ذاك قال ايجور ميخايلوفيتش : « ايفيم .. انك فتى جسور ! » . فتقدم « الفتى الجسور » ، وادار « بوليكي » ، ووقف بجانبه ،

وهو ينقل بصره - وقد تهلل وجهه - بين بوليكي ورجسلب
البوليس ، كرجل يعرض أمهق أو « جوليا باسترانا » (١) ،
وينقل بصره بين الناس وما يعرض ، وهو على استعداد لأن
يفعل كل ما يتغيه النظارة .

وقال رجل البوليس : « أدركه مرة أخرى ! » . فأدير
« بوليكي » ، وذراعاها يتأرجحان قليلا ، وقدماه يحتكان
بالرمال . وعاد الكونستابل يقول : « أمسكه ، واهبطوا به » .
فتساءل ايجور ميخايلوفيتش : « هل نقطع الجبل كله يا صاحب
الفخامة ؟ .. آتونا بفأس يا اولاد ! » .. ولم يكن ثمة بد
من تكرار التعليمات على الحراس ودوتلوف ، قبل أن يشرعوا
في العمل . على أن « الفتى الجسور » حمل بوليكي كما يحمل
جثة خروف .. وما لبث الجبل أن قطع في النهاية ، وحملت
الجثة الى اسفل ، ثم نشر عليها غطاء . وقال « كونستابل »
البوليس ان الطبيب سيفد في اليوم التالي .. وصرف الجميع .

(١٥) عودة الجند الى قريته !

• سعى دوتلوف الى داره ، وهو لا يزال يحرك شفتيه .
وكان - في البداية - يشعر بتوجس وتشاؤم ، ولكن هذا
الشعور لم يلبث أن زائله ، حين اقترب من البيت ، وتولاه
ابتهاج أخذ يسرى في فؤاده تدريجا . وسمع أغاني وأصوات
السكاري تنبعث من القرية .. ولم يكن دوتلوف قد عاقر
الخمر اطلاقا ، ومن ثم فقد يمم - في هذه المرة ايضا - شطر
بيته مباشرة . وكان الوقت متأخرا ، حين ولج كوخه ، فاذا
زوجته المعجوز نائمة . وكان ابنه الاكبر وأحفاده نياما على

(١) الأمهق هو الشخص الشديد البياض والشفرة ، ويسمى عادة « عبو
الشمس » . أما « جوليا باسترانا » فكانت أنثى نصف امرأة ونصف حمامة ،
عرفت في روسيا منذ قرن تقريبا .



الفرن ، في حين كان ابنه الثاني نائما في المخزن . ولم يكن من مستيقظ سوى زوجة إيليشا ، فقد جلست تبكي . . عارية الرأس ، على مقعد خشبي ، وفي ثوب العمل اليومي القذر . ولم تنهض لاستقباله ، بل ازدادت نحيبا ، وراحت تزني حالها عندما دخل . وكانت - كما قالت زوجته المعجوز - تجيد النذب والنصيب بطلاقة ، لا سيما وأن صغر سنها لم يكن قد أتاح لها فرصة للمران !

واستيقظت المعجوز فاعدت عشاء لزوجها . . وأقصى دوتلوف زوجة إيليشا عن المائدة قائلا لها : « كفى ! كفى ! » . فابتعدت « أكسينيا » عن المائدة ، واستلقت على أريكة خشبية ، وواصلت النذب والنصيب . ووضعت المعجوز العشاء على المائدة ، ثم رفعته - فيما بعد - في صمت . . ولم يتكلم الشيخ كذلك . وبعد أن صلى لله شكرا - عقب العشاء - تجشئا ، وغسل يديه ، تم رفع العداد عن مسمار في الجدار ، وذهب الى المخزن . وهناك ، راح المعجوز يتكلمان همسا لبرهة ، ثم شرع - بعد انصرافها - بعد على العداد ، وليس من صوت سوى صلصلة الخرز . . وأخيرا ، رفع غطاء صندوق كبير - هناك - وهبط الى فراغ تحت الأرض . وقضى وقتا طويلا في الحجرة والفراغ الذي كان تحتها . وعندما عاد الى غرفة الجلوس ، كان الظلام يسود الكوخ ، إذ أن شسطة الخشب - التي كانت تستخدم كشمعة - انطفت ، فأشعلها .

من جديد . وكانت زوجته - الهادئة ، الصامتة اثناء النهار - قد تكورت على السرير الخشبي وملأت الكوخ غطيظا . اما زوجة ايليشا صاحبة فكانت تتنفس بهدوء ، وقد نامت هي الاخرى .. كانت تترقد على الأريكة الخشبية في عين الثياب التي كانت فيها طيلة يومها ، وليس من شيء تحت رأسها يعوضها عن الوسادة !

وشرع دوتلوف يصلى ، ثم نظر الى زوجة ايليشا وهز رأسه ، وأطفا النور .. وتجنبا ثم صعد الى قمة القرن ، حيث ينلم الى جوار حفيده الصغير . وألقى بحذاءيه المكسوين بلحاء الشجر الى الارض في الظلام ، واستلقى على ظهره متطلعا الى الواح السقف الخشبية التي كانت فوق رأسه مباشرة ، والتي كانت لا تبين تقريبا .. وأخذ ينصت الى أصوات الصراصر وهي تطير مرطمة بالجدران ، والى التنهيدات ، والزفرات ، والفطيط ، وحفيف قدم تحتك بأخرى ، وجلبة الماشية في الخارج . وانقضى وقت طويل قبل أن ينلم ، بزغ خلاله القمر ، فاضاءت أشعته الكوخ ، واستطاع الشيخ أن يرى « اكسينيا » في ركنها ، وشيئا لم يستطع أن يتبين ما اذا كان سترة نسيها ابنه ، أو وعاء غسيل وضعته النسوة هناك ، أو رجلا قابعا ! .. ولعله كان قد بدأ ينفس - اذ ذاك - وربما لم يكن قد بدأ ، ولكنه - على أية حال - شرع يتفرس في الظلام .. والظاهر أن الروح الشريرة التي قادت بوليكي الى ارتكاب فعلته الشنيعة ، والتي كان كل من في مساكن العبيد يشعرون بوجودها - في تلك الليلة - قد بسطت جناحها عبر القرية الى الكوخ الذي كانت فيه النقود التي استخدمتها في القضاء على بوليكي ! .. ومهما يكن الامر ، فقد أحس دوتلوف بوجود الروح الخبيثة ، فاضطرب ، ولم يعد في وسعه أن ينلم ، ولا أن ينهض ، وبعد أن لاحظ الشيء الذي لم يستطع أن يتبينه ، تمثل ايليشا وقد أوقف كتافه ،

ووجه « اكسينيا » ورائها الطلق ، وتذكر بوليكي ويديه اللتين تارجحتا !

وفجأة ، خيل للشيخ ان شخصا مر بجوار النافذة ، فقال لنفسه : « من عساه يكون ؟ .. أياكون شيخ القرية وقد اقبل مبكرا يحمل مذكرة لى ؟ » . وسمع خطوة فى الردهة ، فسأل نفسه : « كيف فتح الباب ؟ .. أو لم تضع العجوز المزلاج ، عندما عادت من الردهة ؟ » . وبدأ الكلب يعوى فى فناء الدار ، والروح الشريرة - كما حدس الشيخ فيما بعد - تخطو فى الردهة ، وكأنها تبحث عن الباب . ثم مرت ، وبدأت تتحسس الجدار ، وتعثرت فى وعاء فوق على الارض محدثا ضوتا . ثم عادت تتحسس ، وكأنها تبحث عن اللسان الذى يفلق الباب . وامسكت باللسان ورفعته .. وسرت فى جسد الشيخ قشعريرة . ورفعت الروح الخبيثة اللسان ودخلت متخذة شكل رجل .. وادرك دوتلوف أنها الروح الشريرة ، فحاول أن يرسم الصليب على صدره ، ولكنه لم يقو .. وسار الشيخ الى المنضدة التى كانت مكسوة بغطاء ، فجذبه وألقاه على الارض ، وشرع يصعد الى قمة القرن ! .. وادرك الشيخ أن الروح الخبيثة اتخذت شكل « بوليكي » وقد كسر عن أنيابه ، وراحت يذاه تتارجحان حوله .. وصعد ، ثم ارتدى على صدر الشيخ ، وبدأ يخنقه !

وقال بوليكي : « ان النقود لى » ، فحاول سدهان ان يقول : « دعنى .. لن امسها ! » ، ولكنه لم يقو .. وأخذ بوليكي يثقل عليه ، وكأنه جبل صلد . وكان دوتلوف يعرف أنه لو استطاع أن يردد ادعية ، لخلت الروح الخبيثة عنه ، وكان يعرف أية ادعية يجب أن يتلو ، ولكنه لم يستطع أن ينطق .. وأرسل حفيده - الذى كان ينام الى جواره - صرخة عالية ، وشرع يبكي ، فقد دفعه جده الى الحائط ، وراح يضغطه فيه . وفكت صرخة الطفل عقدة لسان الشيخ ، فانطلق : « لينهض

الرب ! .. » ، فبدأ ثقل الشبح يخف .. » ولينفرك شمل أعدائه ! .. » . وهبط الشبح عن القرن ، وسمع «دوتلوف» صوت ارتطام قدميه بالأرض ، فمضى يردد تباعا كل ما كان يعرف من صلوات .. وسار الشبح الى الباب ، مارا بالمائدة . وصفق الباب خلفه فهز الكوخ بأسره . ومع ذلك فقد ظل الجميع نياما ، عدا الجد والحفيد . فقد كان الجد يتمتم بالصلوات وهو يرتجف ، بينما كان الحفيد يرهق نفسه بالبكاء ، والنوم يغالبه ، وقد ازداد التصاقا بجدّه .

وعاد الهدوء يسيطر على الكوخ ، فظل الشيخ راقدا في مكانه . وصاح ديك من خلف الجدار ، بجانب أذن دوتلوف .. وسمع نقنقة الدجاج ، وصوت دويك يحاول أن يرد على الديك الكبير ، دون أن يوفق . وتحرك شيء على ساق الشيخ .. وإذا به قطة ما لبثت أن قفزت الى الأرض دون أن تحدث صوتا ، وراحت تموء بجوار الباب . ونهض الشيخ ففتح النافذة ، وإذا الطريق مظلمة موحلة . وكان مقدم العربّة قريبا من النافذة . ورسم الرجل الصليب على صدره ، ثم خرج حافيا الى فناء الدار ، حيث كانت الخيل . وكان من السهل أن يتبين المرء أن الشبح قد مر بالمكان ، فان الفرس التي وضعت من عهد قريب ، كانت تقف الى جوار وعاء به علف ، وقد لفت الحبل الذي ربطت به حول ساقها ، وراحت تنتظر أن يأتي صاحبها فيخلصها .. أما رضيعها ، فقد تعثر وسقط على كوم من الروث . فانهضه الشيخ واقامه على أقدامه . وخلص الفرس وقدم لها غذاء ، ثم عاد الى الكوخ . واستيقظت العجوز واشعلت فتيلة ، فقال لها : « ايقظي الولدين ، فاني ذاهب الى المدينة ! » . ثم تناول شبعمة رفيعة كانت أمام أيقونة ، فأشعلها ، وهبط بها في الفراغ الذي

كان أسفل المخزن . وعندما صعد ثانية ، كانت الاضواء تلوح في نوافذ جميع الدور المجاورة ، اذ استيقظ الشباب متاهين للعمل ، وأخذت النسوة يرحن ويجنن بدلاء اللبن . وكان « اجنات » يربط الجواد الى احدى العربات ، بينما كان الابن الثاني يعنى بتشحيم عجلات عربة أخرى . ولم تعد الزوجة الشابة تندب حظها ، بل نظفت نفسها ، ولبست ثوبا نظيفا ، وربطت شالا حول رأسها ، وجلست تنتظر ريثما يحين الوقت للذهاب الى المدينة كي تودع زوجها .

وبدا الشيخ متجهما ، رصينا ، فلم ينبس بينت شفة لاحد ، بل ارتدى خير سترة لديه ، وشد حزامه ، وتهيأ للذهاب الى ايجور ميخايلوفيتش ونقود « بوليكي » في صدر معطفه . وقال لابنه الذي كان يذير العجلات حول محورها بعد أن كساهما بالشحم : « لا تتلأأ ، فلسوف أعود بعد دقيقة .. وتأكد من أن كل امرئ على اتم استعداد ! » .. ووجد وكيل اعمال السيدة قد استيقظ لنوه ، وأخذ يحتسى الشاي ، ويتخذ استعداداه ليذهب — هو الآخر — الى المدينة ليسلم السلطات مجندى الضيعة .. وبادره قائلا

— اننى أريد أن أفتدى فتاى من الخفعة العسكرية يا ايجور ميخايلوفيتش . فكن كريما ! لقد قلت منذ أيام أنك تعرف شخصا فى المدينة يرغب فى التطوع ، فاذكر لى كيف أبرم الامر — ولماذا انتهيت الى هذا القرار ؟

— لم يكن بد من ذلك يا ايجور ميخايلوفيتش ، فانى آسف على الفتى . انه ابن اخي ، على أية حال ، ومهمه يكن من امره . اننى آسف عليه ! .. أن المال سبب كثير من الخطايا . وانحنى حتى ساوى رأسه وسبطه . ووقف ايجور جيخايلوفيتش مفكرا ، وهو يمص شففيه محدثا صوتا ، كما كان يحلو له فى مثل هذه المناسبات .. حتى اذا تدبر الامر ، كتب ورقتين ، وأجيز الشيخ بما ينبغى أن يفعل فى المدينة ،

وكيف يفعله . . وعندما عاد دوتلوف الى داره ، كانت زوجة « ايليشا » الشابة قد انطلقت مع « اجنات » ، وكانت الفرسة السمينة القوية تقف مشدودة الى عربة بجوار الباب الخارجى . فاقطع فرعا من شجرة ، واحكم سترته حول جسده ، وارتقى العربة ، ثم ساط الفرسة بفرع الشجرة ، فجعلها تجرى مسرعة ، حتى ان جنبيها لم يلبثا ان هبطا ، فقد كان التفكير فى ان الفرصة قد تضيع ، وان « ايليشا » قد يصبح جنديا ، وتظل تقود الشيطان فى حوزته . . كان التفكير فى هذا يضيئه !

ولن اسهب فى وصف كافة ما فعل دوتلوف فى ذلك الصباح ، وانما اكتفى بان اقول انه كان سعيد الحظ الى درجة عجيبة . فقد كان لدى الرجل - الذى اسلمه ايجور ميخايلوفيتش رسالة اليه - متطوع على اتم الالهة ، وكان مدينا بثلاثة وعشرين روبل فضيا ، وقد اقر مجلس التجنيد صلاحيته . وكان سيده يطلب اربعمائة روبل فضى فى مقابل تطوعه للخدمة العسكرية بدلا منه ، وقد ظل شخص من المدينة يحاول اقناعه - طيلة الاسابيع الثلاثة الاخيرة - بان يقبل ثلاثمائة روبل . وحسم دوتلوف الامر بكلمتين : « هل تقبل ثلاثمائة وخمسة وعشرين ؟ » . وبسط يده . ولكن مظهره كان ينم عن انه مستعد لان يدفع مزيدا ، فلم يمد السيد يده ، واصر على الاربعمائة روبل . فقال دوتلوف : « او لن تقبل ثلاثمائة وربع المائة ؟ » . وتمسك بيسراه يعنى الرجل ، يعدها كى يطبق عليها بيمينه مصافحا ، اشارة الى الاتفاق . ولكنه ما لبث ان طوح بيد الرجل باقصى قوته ، قائلا وهو يذخر عنه : « او لست تقبل ؟ . . حسنا ، ليكون الله معك ! » . وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلا : « يبدو ان لا بد من هذا . . خذ ثلاثمائة ونصف المائة ! . . هيا ، احضر اذن التسريح ، وهات الشاب . وهك وزقتين من فئة العشرة روبلات كمر يون . . ايكفيك هذا ؟ »

وفك دوتلوف حزامه ، وأخرج النقود . ومع أن الرجل لم يسحب يده ، إلا أنه لم يبد قبولاً تاماً ، متوقفاً أن يزيد دوتلوف من المبلغ . ولكن هذا راح يردد ، وهو ممسك بالنقود : « لا ترتكب اثماً ! .. كلنا إلى الموت يوماً ! » . وراح يخفف من لهجته ، ليغري الرجل ويطمئنه ، فما لبث هذا أن قال : « ليكن ! » . وصافح يد دوتلوف ، وشرع يدعو الله كي يبارك الصفقة ، قائلاً : « ليهيك الله الحظ ! »

وسرعان ما أيقظا المتطوع ، وفحصاه ، ثم رافقاه إلى إدارة التجنيد . وكان المتطوع مرحاً ، وقد طلب قدراً من « الروم » لينتفش ، فمنحه دوتلوف بعض النقود لذلك . ولم يخنه جلداه إلا عندما بلغوا ساحة مجلس التجنيد . وتقدم السيد والمتطوع ، فوقفاً طويلاً في بهو المجلس . . وكان السيد في هيئة شديدة الزرقة ، والمتطوع في سترة قصيرة من جلد الغنم ، وقد ارتفع حاجباه ، وراحت عيناه تحملقان في الفضاء . . وظلا طويلاً يتهاوسان ، ويحاولان الوصول إلى مكان معين ، ويبحثان عن شخص معين . . ولا مراً ، كانا يظلمان قلنسوتيهما وينحنيان لكل كاتب صادفهما ، ثم انصتا باهتمام إلى قرار حملة إليهما أحد الكتب ، من معارف السيد . وبعد كل أمل في إنجاز المهمة في ذلك اليوم يتبدد ، وعاد المتطوع يزداد مرحاً وطرباً . وفجأة ، رأى دوتلوف أممه « ايجور ميخايلوفيتش » ، فتشبث به لفوره ، وشرع يتوسل إليه ، وينحني أمامه . وساعده « ايجور ميخايلوفيتش » بهمة ، فلم تكن الساعة الثالثة حتى كان المتطوع قد اقتصد - لدهشته واستيائه - إلى قاعة الفحص . . وفي غمرة المرح العام - الذي استولى على الجميع ، من العسس حتى الرئيس ، دون أن يدري له داعياً - خلعت عنه ثيابه ، والبس ثياب المجندين ، وحلق شعره ، وسبق إلى الباب . . وبعد خمس دقائق ، أحصى دوتلوف النقود للسيد ، وتسلم أمر تسريح ابن أخيه ، فودع

المتطوع ومسيده ، واسرع الى حيث كان مجندو (بوكروفسك) وكان « ايليشا » وزوجته الشابة يجلسان في ركن المطبخ ، فما ان اقبل الشيخ حتى امسكا عن الكلام ، وتطلعا اليه في توجس ، وان بدا انهما كانا يكبحان مشاعرهما . وادى الشيخ صلاة - ارضاء للعادة التي شغف بها - ثم فك حزامه ، واخرج منه ورقة ، ونادى الى الحجرة كلا من ابنه الاكبر « اجنات » ، وام ايليشا ، اللذين كانا في فناء الدار . وتقدم بعد ذلك من ابن اخيه ، فقال له : « لا تأثم يا ايليشا ! .. لقد آذيتني - ليلة الامس - بكلمة .. اخلصت اشفق عليك ؟ .. اتنى لا ذكر كيف ان اخي تركك لى ، فهل كنت ادعك تأتى الى هنا لو كان في مقدورى ان احول دون ذلك ؟ .. لقد ارسل الله لى حظا ، ولن اضمن به عليك . هاك .. خذ هذه الورقة ! » . ووضع على المنضدة امر التسريح ، وسوى اطراف الورقة باصابع متصلبة ، متوترة .. واقبل من الفناء فلاحو (بوكروفسك) ، واتباع صاحب الخان ، بل والاغراب ، وقد حدسوا جميعا ما كان يجرى . ولكن احدا لم يقطع على الشيخ حديثه الوقور ، فمضى يقول : « هاك الورقة ! .. لقد دفعت من اجلها اربعمائة روبل فضى ، فلا تلم بعمك مرة اخرى ! »

ونهب « ايليشا » من مجلسه ، ولكنه ظل صامتا ، لا يدرى ماذا يقول ، وقد راحت شفتاه ترتجفان انفعالا . واقبلت أمه العجوز ، فكادت ترتعى على صدره باكية ، لولا ان اشار لها الشيخ كي تباعد ، وواصل حديثه قائلا : « لقد آذيتني - ليلة الامس - بكلمة .. ولقد طغنت فؤادى بتلك الكلمة ، وكأنها سكين ! .. لقد تركك ابوك المتوفى في رعايتى ، فكنت لى بمثابة ابن ، واذا كنت قد غبتك في كل شيء ، فكل حى ياتم ! .. اليس كذلك ايها المسيحيون الاتقياء ؟ » . وتلفت الى الفلاحين الذين احاطوا بالمكان . ثم استطرد : « ها هي ذى أمك ، وزوجتك ، وامر تسريحك .. ولست بنادم على النقود ،

وانما .. اغفر لى ، من اجل المسيح ! » .. وجثا على ركبتيه ،
 راقعا اطراف معطفه ، وركع على الارض امام « ايليشا »
 وزوجته . وحاول الشبان جهدهما أن يمنعا ، فلم يمتنع
 حتى هست جبهته الارض . واذ ذاك نهض قائما ..
 ويكت ام ايليشا وزوجته فرحا ، وانسابت من الجمع كلمات
 الإعجاب والتقدير ، فقال شخص : « هكذا الانصاف .. هذه
 هي الطريقة التى ترضى الله ! » . وقال آخر : « ما المال ؟ ..
 انك لا تملك أن تتباع امرءا بالمال ! » . وقال ثالث : « وما
 السعادة ! .. ما من خلاف فى أن الرجل منصف عادل ! » .
 ولم يسكت عن التحنيد سوى الفلاحين اللذين كانا منسوقين
 الى أداء الخلعة العسكرية ، فقد انسحبا الى فناء النزل .

بعد ساعتين ، انطلقت عربتا دوتلوف ، متجتازتين اطراف
 المدينة ، وقد جلس الشيخ و « أجناد » فى الاولى ، وراحت
 تجرها الفرسة السمينية السمراء ، التى تهدل جنبها ، ويفصد
 العرق من عنقها .. وكانت تهتز خلفهما خيوط علق بها بعض
 الخبز الذى صيغ فى أشكال طريفة ، والذى كان الفلاح يعتز
 به كهدية لاسرته ، فى عودته من المدينة .. أما العربة الاخرى
 - التى لم يكن ثمة من يمسك أعنة جوادها - فقد جلست
 الزوجة الشابة ، وحماتها ، وقد لفتا رأسيهما فى شالين ،
 وبدا عليهما الفرح والهناء . وكانت الاولى تمسك - تحت
 مرولتها - بزجاجة من « الفودكا » . وجلس « ايليشا »
 القرفصاء ، موليا الحصان ظهره - وقد اشتد احمرار وجهه ،
 وراح يقضم لقمًا من رغيف ، وهو لا يكف عن الكلام .
 واندمجت الاصوات ، وقرقرة العجلات على أرض الطريق
 الحجرية ، وضمهيل الجوادين ، فى لحن مريح متسجم .. وأخذ
 الجوادان يضاعتفن من سرعتهما ، وهما يلبان الهواء بذيلييهما .

وقد لجح بهما للحنين الى البيت .. بينما كان الباردة - من مشاة وركوب - يلتفتون ، ليتأملوا الاسرة السمعية !

وما ان بارح آل دوتلوف المدينة ، حتى صادفوا جماعة من المجندين ، وقف فريق من افرادها في حلقة امام حانة . وكان أحد المجندين يعزف على « البلايكا » بشدة ، وقد بدا وجهه غير عادي ، كما هي وجوه المجندين عندما يخلق شعر مقدم رؤوسهم ! .. بينما راح آخر يرقص في وسط الحلقة ، وهو عارى الرأس ، وقد أمسك بزجاجة من « الفودكا » في يده . واستوقف « أجناث » فرسه ، وهبط ليحكم ربط أجزاء سرجها . واخذ آل « دوتلوف » جميعا يتأملون الراقص في فضول ، واهجاب ، وطرب . ولم يلح على المجند انه رأى أحدا ، ولكنه أحس بالاعجاب العام ، فزاده هذا أقبالا وخفة . وراح يرقص بشدة ، وقد عقد حاجبيه ، وتضرج وجهه ، وانفجرت شفاته عن ابتسامة فقدت كل معنى . وكان يغمز بعينه الى عازف « (البلايكا) » الذي شرع يعزف بحرارة أشد ، ويداعب كل الاوتار ، بل ويدق بعظام أصابعه على ظهر الآلة . وكان المجند يقف لحظات ، ولكنه يبدو - رغم وقوفه - كما لو كان مستمرا في الرقص . ثم شرع يهز كتفيه في بطء . وفجأة ، دار حول نفسه ، وقفز في الهواء ، مطلقا صرخة عالية ، ثم هبط ، فاقعى ، وبسط إحدى ساقيه ، واتبعها بالآخرى . وضحك الصبية ، وهزت النسوة رؤوسهن ، بينما ابتسم الرجال اعجابا . وكان ثمة « جاويش » مسن وقف ساكنا ، وكأنما كانت نظرائه تقول : « أو تظنون انه رائع .. لقد الفنا هذه الرقصة وحذقناها ! » .

وصاح العازف وهو يشير الى دوتلوف : « اسمع يا اليخا .. هالك كفيك ! » .. فهتف « اليخا » : « أين ؟ .. أهلا بك يا اعز صديق ! » .. كان هو عين المجند الذي كان دوتلوف قد دفع المال ليحل محل ابن أخيه في الجندية . وتقدم مترنحا

على ساقيه الكليلتين ، وقد رفع زجاجة « الفودكا » فوق رأسه ، وتحرك نحو العربية ، وهو يصيح في العازف : « هات كوب يا ميشكا ! .. أيها السيد ! أيها الصديق الاعز ! يا له من سرور ! » . وأسند رأسه الكليل الى حافة العربية ، وشرع يدعو الرجال والنساء الى « الفودكا » . فشرب الرجال ، وأبت النسوة .. وكانت ثمة امرأة تبيع بعض الماكولات - واقفة بين الحشد - فلمحها « اليخا » ، وأمسك بصحفتها ، فأفرغ كل محتوياتها في العربية ، وصاح في صوت خنقته : « عبرات ، وهو يخرج كيس نقوده ، ويطوح به الى ميشكا : « سادفع ، فلا تخافى أيتها اللعينة ! »

ووقف مسندا مرفقيه الى العربية ، متاملا الجالسين فيها من خلف دموعه ، ثم قال : « أين الام .. أهذه أنت ؟ يجب ان أكرمك ! » . ووقف يفكر لحظة ، ثم دس يده في جيبه ، وأخرج منديلا جديدا ، وأسرع فخلع منديلا آخر كان قد لفه حول وسطه - تحت سترته - وشاحا أحمر كان يلفه حول عنقه ، وكورها جميعا ، ثم القى بها في حجر العجوز ، وهو يقول بصوت كان يحتبس تدريجا : « إليك ! .. انتى أقدمها جميعا لك ! » . فقالت العجوز لدوتلوف ، الذى أقبل من عربته : « لماذا كل هذا ؟ .. أنظر طيبة هذا الفتى ! .. وكان « اليخا » قد سكن تماما ، وبدأ مسلوب الجواس ، ولاح كأنه يوشك أن ينام . وأخذ ينكس رأسه رويدا ، وهو يتهم : « إنما أنا ذاهب للجندية من أجلك .. من أجلك أنا ذاهب للهلك ! هذا هو السبب فى أننى أعطيك هذه الهدايا ! » .. وصاح واحد من وسط الجمع : « اعتقد أن له هو الآخر إما ! يا له من ساذج ! وإأسفاه عليه ! » . فرفع « اليخا » رأسه ، وقال : « ان لى أما .. ولى اب كذلك ، وقد تخلى عنى الجميع » . ثم تحول الى أم إيليشا قائلا : « اسمعى أيتها العجوز ، لقد منحتك هدايا . انصتى لى بحق المسيح ! ..

أذهبى الى قرية (فودنو) ، وسلى عن العجوز « نيكونوفنا »
 .. انها أمى ! .. سلى عن العجوز نيكونوفنا ، فى الكوخ الثالث ،
 من آخر الصف ، بالقرب من البئر الجديدة . وقولى لها أن
 اينها « اليخا » .. هل فهمت ! .. اعزف ايها الموسيقى ! »
 وتعلم بشيء غير مسموع ، ثم عاد يرقص لتوه ، وهو يطوح
 بالزجاجة وما تبقى فيها من « فودكا » الى الارض . وصعد
 « أجئات » الى عربته ، وهم بأن يستأنف السير ، فقالت
 العجوز للمجنذ ، وهى تلف عباءتها حولها : « وداعا ! ليباركك
 الرب ! » . فتوقف « اليخا » فجأة ، وصاح وهو يهز قبضتيه
 فى وعيد : « اذهبى الى الشيطان ! .. لملك أمك .. » .
 ورسمت ام ايليشا الصليب متعوذة . وانطلقت العربتان .
 ووقف « اليخا » فى وسط الطريق بقبضتين مشدودتين ،
 ونظرة مهتاجة ، وراح يسب الفلاحين بكل ما اوتى من سباب .
 وتهدج صوته ، ثم ارتقى على الارض ، حيث كان يقف !
 وسرعان ما بلغ آل « دوتلوف » الحقول ، ولم يعؤدوا
 ييصررون جماعة المجندين . وبعد أن قطعوا أربعة اميال ، هبط
 « أجئات » من عربته - التى كان أبوه قد نام فيها - وسار
 الى بجواز بحرية « ايليشا » .. واقتسم مع الشاب زجاجة
 « فودكا » كانا قد اشترياها من المدينة .. وأن هى الا برهة ،
 حتى شرع « ايليشا » يقنى ، فانضمت اليه المراتان ، بينما
 راح « أجئات » يصبح طريا . ومرت بهم عربة أنيقة ، كانت
 تنطلق فى خفة ، فصاح الحوذى فى جياده منتشيا ، والتفت
 مساعدة الى الرجال والمراتين - الذين كانوا فى العربتين -
 وغمز بعينه ، بينما كانوا يهتزون مع ارتجاج العربتين ، وقد
 احمرت وجوههم ، وهم ماضون فى أفئيتهم الطروب !

فارسان... وعذراء!



تمهيد

• في أوائل القرن التاسع عشر ، عندما لم تكن ثمة بعد سكك حديدية ، وولا طرق مرصوفة ، ولا اضاءة بالغاز ، ولا شموع من « الستيرين » (١) ، ولا مركبات منخفضة ذات وسائل مجهزة بزئيركات ، ولا اثاث بدون طلاء لامع ، ولا شباب مغرور ذو عوينات (نظارات) ، ولا فيلسوفات من دعاة التحرر ، ولا اى من « غادات الكاميليا » الفاتنات اللاتى يوجدن فى ايامنا بكثرة .. فى تلك الايام الساذجة ، عندما كان المرء - اذا سافر من موسكو الى بطرسبورج فى مركبة مغلقة ، أو عربة مجهزة بملء مطبخ من المؤن المعدة - يقضى ثمانية ايام فى طريق لينة الارض ، أو متربة ، أو موحلة ، معتمدا على شرائح اللحم المقلوة ، وعلى الكعك العادى ، وعلى اجراس الزحافات .. وعندما كان من الضرورى اصلاح قنائل الشموع المصنوعة من الشحم ، والتى كانت تلتف حولها الجماعات العائلية ، مؤلف من عشرين وثلاثين شخصا ، فى لياالى الخريف الطويلة .. وعندما كانت قاعات الرقص تضاء بثريات الشمع الشحمى أو الشمع المصنوع من عنبر الحوت .. وعندما كانت قطع الاثاث ترتب فى نظام هندسى دقيق .. وعندما كان آباءنا لا يزالون شبانا ، لا يكتفون بانبات ذلك بمجرد غياب التفصينات والشعر الاشيب ، وانما بخوض المبارزات من اجل امرأة ، وبالااندفاع من الركن المقابل من حجرة ما لالتقاط منديل ضئيل الحجم اسقط عينا او عفوا .. وعندما كانت امهاتنا يرتدين اثوابا مرتفعة خط

الوسط ، واكهما هائلة منتفخة ، ويتخذ القرارات في الشؤون العائلية عن طريق سحب القرعة (الاقتراع بالورق المطوى) ! . .
وعندما كانت « غادات الكاميليا » الفاتنات يختبئن من ضوء النهار في مساكن الماسونية ، و« المارتانية » ، و« التوجينبوندي » (٢) ، في تلك الايام الطيبة . . ايام الميلوردوفيتشين (٣) ، والدافيدوفيين (٤) ، والبوشكينيين (٥)
في تلك الايام ، عقد اجتماع في مدينة (ك . . .) التابعة للحكومة ، حضره اصحاب الاراضي ، واجريت فيه انتخابات الاعيان (٦)

.

ايضاحات وتعليقات على ما ورد في التمهيد

- (١) الستيرين مادة كيميائية استخدمت في صناعة الشموع بدلا من الشحم .
- (٢) كانت الماسونية الحرة جماعية سرية في روسيا ، غرضها الاصل الاصلاح الخلقي على أسس من المساواة والاخوة العامة . ولقد بنات كحركة دينية ، ثم انقلبت الى حركة سرية ، واضطهدت في اوائل القرن التاسع عشر . وكانت « المارتانية » جماعة من الماسونيين الروس ، انتسبوا الى الفيلسوف الصوفي الفرنسي « لوى كلود سان مارتان » . اما « التوجينبوندي » فكانت جمعية وطنية ألمانية ، انضمت مثلا في روسيا للشباب المتحمس ، ولعبت دورا رئيسيا في التهيئة لحرب سنة ١٨١٣
- (٣) نسبة الى « م . هـ . ميلوردوفيتش » الذي ابل بلا حسنا في الحرب ضد نابليون . وصار حاكما عاما لپترسبورج ، والمقتيل عندما حاول قمع « فتنة ديسمبر » سنة ١٨٢٥
- (٤) نسبة الى « د . ف . دافيدوف » ، وكان شاعرا ذا شهرة شعبية ، وزعيما لفرق العصابات في حرب سنة ١٨١٢
- (٥) نسبة الى « ا . س . بوشكين » اعظم شاعر روسي اذ ذاك .
- (٦) انتخابات كانت تجري بين الاعيان ، من اصحاب الانقلاب ، والانجليا ، واصحاب الاراضي



— (١) —

• لا بأس .. فان قاعة الجلوس (الصالون) تغني !
قال هذه الكلمات ضابط شاب في معطف من الفراء ،
وقلنسوة كتيبة الفرسان الخفيفة ، وقد غادر لغوره زحافة
خط البريد ، وهم بان يدخل احسن فندق في مدينة (ك...) .
وقال خادِم الفندق ، الذي استطاع ان يعلم من تابع الضابط
ان اسمه « الكونت توريين » ، ومن ثم فقد راح يخاطبه
بـ « صاحب السعادة » : « لقد حضر الاجتماع عدد هائل
يا صاحب السعادة . على أن مالكة أراضى (افريموفو)
قالت انها راحلة الليلة ، ومعها بناتها ، ومن ثم فان الحجرة
رقم ١١ ستكون تحت أمركم بمجرد رحيلهن ! » . وراح
يخطو بخفة أمام « الكونت » وهو لا يكف عن التلفت حوله .
وفي قاعة الجلوس العامة ، وإلى منضدة صغيرة - تحت
صورة مغبرة بالحجم الطبيعي للامبراطور الكساندر الاول -
جلس عدد من الرجال ، يشربون « الشمبانيا » ، ولعلمهم كانوا
من اعيان المنطقة .. بينما جلس في الطرف الآخر من القاعة ،
بعض الرخالة .. تجار في معاطف زرقاء ، مبطنة بالفراء ! .
ودخل الفارس القاعة مناديا « بلوخر » .. وهو كلب مغبر
اللون ، هائل الحجم ، أحضره معه . وخلع « الكونت » معطفه
الذي كانت ياقته لا تزال مكسوة بالصقيع الابيض ، وصاح
بطلب « فودكا » ، وجلس الي المائدة في سترته القوزاقية

انحريرية الزرقاء ، واندمج في حديث مع السادة الموجودين .
وسرعان ما اجتلبتهم اليه طلبة القدام المليحة الصريحة ،
فقدموا اليه قبحا من « الشمبانيا » . واحتسى الكونت
قبحا من « الفودكا » - باديء ذي بدء - ثم طلب زجاجة
اخرى من « الشمبانيا » ، ليكرم معارفه الجدد . وأقبل
سائق الزحافة ليسأل الكونت مكافأة (بقشيشا) ، فصاح
الكونت : « ساشكا ! اعطه شيئا ! »

وخرج السائق مع « ساشكا » ، ولكنه عاد ثانية والنقود
في راحته ، وهو يقول : « انظر يا صاحب السعادة .. ألم
ابذل قصارى جهدى من اجل فخامتكم ؟ .. ألم تعمدنى
بنصف روبل ؟ .. ولكنه لم يعطنى سوى ربع روبل ! »
- اعطه « روبل » يا ساشكا !

فغض « ساشكا » بصره ، ونظر الى قدمى السائق ، ثم قال
بصوت منخفض : « يكفي ما اخذ ! .. ثم انه لم تعد معى .
نقود ! » . وجذب الكونت من حافظة نقوده ورقتين مائيتين
من فئة الخمسة روبلات ، كانتا كل ما احتوته الحافظة ،
فأعطى احدهما للسائق الذى قبل يده وانصرف .

وقال الكونت : « لقد استنزفت كل ما كان معى ! .. هذه
الروبلات الخمسة هى آخر ما معى ! » . فقال أحد النبلاء :
« هكذا عادة ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة يا كونت ! » .
وكان يبدو من شاربييه ، وصوته ، وبعض الحركات المتحررة
من ساقيه ، انه كان من الفرسان المتقاعدين . وما لبث أن
تساءل : « اترك ستقيم هنا بعض الوقت يا كونت ؟ »

- لا بد لى من الحصول على بعض المال . وما كنت لانزل
هنا اطلاقا ، لولا هذا .. ومع ذلك ، فلا غرف يمكن الحصول
عليها فى هذا النزول اللعين .. الا فليتحفظهم الشيطان !

فقال الضابط الفارس المتقاعد : « ألا اسمح لى يا كونت ..
هلا شاطرتنى غرفتى ؟ .. ان غرفتى هى رقم ٧ ، فلذا لم

يسؤك هذا ، فلك ان تشاطرنيها الليلة . . ثم ، إلا تمكث معنا يومين ؟ . . ومن المصادفات ان « ماريشال طبقة النبلاء » يقيم الليلة حفلة راقصة . ولسوف تزيد سعادة اذا انت ذهبت ؟ »

وقال آخر . وكان شابا وسيما : « اجل يا كونت . الا امكث معنا ! . . من المؤكد ان ليس هناك من داع لتعجل الرحيل ! انك لتعلم انها لا تحدث الا مرة كل ثلاث سنوات . . اعنى الانتخابات . وجدد برك ان تلقى نظرة على سيداتنا الشابات . . على الاقل - يا كونت ! » . فنهض الكونت قائلا : « ساشكا . اعد ثيابا داخلية نظيفة ، فانتى ذاهب الى الحمام (١) . وربما القيت نظرة على حفلة الماريشال بعد ذلك »

ثم نادى الساقى وهمس اليه بكلمات ، اجاب عنها هذا ، وهو يتسم : « ان هذا امر يمكن تدبيره ! » (٢) . وخرج الساقى . . وخرج الكونت . وما لبث ان صاح من الردهة : « اذن فسأمر بنقل حقيبتى الى حجرتك ايها انزميل العزيز ! » . فصاح ضابط الفرسان المتقاعد : « أرجو ان تفعل ، فلسوف يسعدنى هذا كل الاسعاد ! » . وهرع الى الباب مردفا : « انحجرة رقم ٧ . . لا تنس ! »

وعندما لم يعد وقع خطى الكونت مسموعا ، عاد الضابط الفارس المتقاعد الى مكانه ، فجلس بجوار موظف حكومى كان بين الخضور ، وحملق فى وجهه مباشرة ، وقال وعيناه

(١) كانت الحمامات فى روسيا ، على نمط ما نعرفه اليوم بـ « الحمام التركى » . . مؤسسات عامة . يذهب اليها المرء ، حيث يتعرض للبخار لظرد انعرق .

(٢) كان من المألوف ان يقترن الحمام بامرأة . وهذا ما اتفق عليه الكونت مع ساقى الفندق

تبسمان : « انه نفس الرجل ، كما ترى ! »
— كلا !

— أوكد لك انه هو ! .. نفس ضابط كتيسة الفرسان الخفيفة ، البارع في المبارزة .. توربين الشهير ! .. ولا بد انه عرفني .. اراهنك — على اى مبلغ شئت — انه عرفني . وكيف لا ؟ .. لقد قضينا في اللهو معا ثلاثة اسابيع متواصلة ، عندما كنت في (ليبدياني) ، حيث نعمنا بالعاب الفروسية (١) . وكان ثمة شيء واحد ، وفق فيه كل منا .. هو وأنا .. انه لشاب بديع . اليس كذلك ؟

— انه لشاب رائع .. وان اخلاقه لتشرح الصدر ! فهو لا يبدى ذرة من .. ماذا يسمونه ؟
وقال الشاب الوسيم : « ما اسرع ما توثق الود بيننا ، وزالت الكلفة .. انه لم يتجاوز الخامسة والعشرين .. اتراه تجاوزها ؟ »

— آه ، كلا .. انه يبدو هكدا ، ولكنه فوق هذه السن . ان على المرء ان يعرفه عن كثب ، ليدرك هذا الامر ، كما تعلم .. من الذى سلب « ميجونوفا » مجده ؟ .. انه هو ! وهو الذى قتل « سايلين » . وهو كذلك الذى امسك بساقي « ماتنيف » وطوح به من النافذة .. وهو الذى ربح ثلاثمائة الفروبل من الامر نيستوروف .. انه لشيطان مرید ، جسور في كل شيء : مقاتل ، ومبارز ، وفاتن يغوى الحسان .. انه لدرة في كتيسة الفرسان الخفيفة .. لؤلؤة حقيقية ! .. ان الشائعات التى تحوم حولنا لاتقاس بالحقيقية في شيء .. اذا قدر للمرء ان يعرف فرسان الكتيسة الخفيفة على حقيقتهم ! .. آه ، تلك كانت اوقات وانقضت !

(١) ليبدياني بلدة في مقاطعة (تامبوف) ، اشتهرت بأسواق الغنم ومهرجانات الفروسية

وراح الفارس المتقاعد يروى لمحدثه عن فترة للهو قضاهها مع الكونت في (لبيدراني) ، لم يحظ بمثلها ، بل وما كان يوسعه ان يحظى بمثلها قط .

ومع ذلك فما كان من الممكن ان تكون قد حدثت .. اولاً ، لانه لم يكن قد رأى الكونت قبل ذلك اليوم ، وقد ترك الجيش قبل ان يلتحق به الكونت بعامين .. وثانياً ، لان الفارس المتقاعد لم يخدم في فرقة الفرسان اطلاقاً ، وانما ظل أربع سنوات في أدنى مراتب الناشئين في كتيبة (بليفسكي) ، وقد تقاعد بمجرد ان قدر له ان يحظى برتبة الضابط .. بيد انه ورث - منذ عشر سنوات - بعض المال ، وزار (لبيدراني) فعلاً ، حيث يدد سبعمائة روبل مع بعض ضباط كانوا قد ذهبوا الى هناك لشراء خيل .. بل انه ذهب الى ابعد من هذا ، فأمر بأن تصنع له بزة رسمية على نمط الزي للخاص بفرسان « الاوغلان » ، ذات وشى برتقالي في صدرها ، معتزماً ان يلتحق بكتيبة من كتائب « الاوغلان » . وقد ظلت هذه الرغبة في الالتحاق بالفرسان ، والاسباع الثلاثة التي قضاهها مع الضباط الفرسان في لبيدراني من أسعد ذكريات حياته وأكثرها تألقاً . ومن ثم فقد حول الرغبة - في بادئ الامر - الى حقيقة ، ثم الى ذكرى واقعية ، وتعود ان يعتقد اعتقاداً وطيداً بماضيه كضابط من الفرسان .. وكلها أشياء لم تحل دون ان يكون من أكثر الرجال مكانة ، من حيث اللطف والامانة !

وقال : « أجل ، ان أولئك الذين لم يقدر لهم ان يخدموا في سلاح الفرسان ، لا يستطيعون ان يفهمونا اطلاقاً ! »

وجلس في مقعده منفرج الساقين ، وكأنه على صهوة جواد ، ودفع فكه السفلي في زهو ، وشرع يقول بصوت منخفض وقور : « انك لتركب على رأس فصيلتك ، لا جواداً من الجياد العادية ، وانما شيطاناً يتجسد خصاناً يقفر متوثباً تحتك ، فلا تملك سوى ان تجلس مستهترا ، مستخفاً .. ويركب

قائد الفصيلة مستعرضا فرسانه ، فيقول : « اننا لا نستطيع ان نستغنى عنك ايها الملازم .. تفضل بقيادة الفصيلة في طابور استعراضى » .. فتقول : « حسنا ! » .. وهكذا تروح تلف وتدور ، وتصيح في زملائك ذوى الشوارب .. آه ، ليتخطفها الشيطان .. تلك الايام ! »

وعاد الكونت من الحمام شديد الحمرة ، مبتل الشعر ، فمضى مباشرة الى الحجرة رقم ٧ ، حيث كان الفارس المتقاعد جالسا في ثوب الغرفة (الروب دى شامبر) ، وهو يدخن غليونيه ، يفكر في سرور وان لم يخل من التوجس - في السعادة التى حلت به ، اذ شاطر « توربين » الشهر غرفة .. وكان يقول لنفسه : « ولكن ، هب انه يمسك بى فجأة ، ويجردنى من ثيابى ، ويسوقنى الى ابواب المدينة ، ويلقى بى في الجليد .. او يجللنى بالقار .. او يكتفى بأن .. » . ثم يستدرك ليسرى عن نفسه : « ولكن ، لا .. انه لا يرضى لنفسه ان يفعل هذا بزميل »

وفي تلك اللحظة ، صاح الكونت ، وهو يلج الغرفة : « ساشكا .. اطعم بلوخر ! »

واقبل « ساشكا » الذى كان قد تنساول زجاجة من « الفودكا » لينعش نفسه من عناء الرحلة ، فراح يترنج بما لا يدع شكاً في انه قد ثمل . وصاح الكونت : « عجباً ، ائتمل منذ الآن ؟ ! .. اكنت تشرب ايها الوغد ! .. هيا اطعم بلوخر ! » . فاجاب ساشكا وهو يربت ظهر الكلب : « انه لن يموت جوعاً على اية حال .. الا انظر كيف انه ناعم ! »

— اخرس ! .. اخرج واطعمه !

— انك تهتم بأن يتغذى الكلب .. اما حين يشرب الرجل قبحاً ، فانك تؤنبه وتزجره !

فصرخ الكونت بصوت ارتجله زجاج التوافذ .. بل وداخل الخوف - من جرائه - قلب الفارس المتقاعد ، بعض الشيء : « هاى ! .. لسوف أسوطك ! » . فدمدم ساشكا : « كان خليقا بك ان تسال عما اذا كان ساشكا قد ظفر بلقمسة في يومه ! .. اجل ، اضربنى ما دعت تفكر في الكلب أكثر مما تفكر في رجل ! » . ولكنه - عند هذا الحد من دملته - تلقى لكمة فظيمة أصابت وجهه ، من قبضة الكونت ، فوقع ، وارتطم رأسه بحافة الجدار .. وأمسك بأنفه وهو يهرب من الحجرة ، ويرتمى على مقعد في الردهة .

وأخذ ساشكا يزمجرويشن ، مرددا : « لقد حطم أسناني ! » .. وبأحدى يديه راح يمسح أنفه الذى تفصد الدم منه ، بينما كان يحك - بيده الأخرى - ظهر « بلوخر » الذى كان يلحق جسده بلسانه . واستطرد ساشكا يحدث الكلب : « لقد حطم أسناني يا بلوخرى ، ولكنه - رغم ذلك - سيدنى الكونت ، وانى لاخوض النار من أجله .. اجل ! فهو .. هو كونى .. أنفهم يا بلوخرى ؟ .. أتريد عشاءك ؟ هه ؟ »

وبعد أن ظل مستلقيا ساكنا لبرهة ، نهض فأطعم الكلب ، ثم سعى الى خدمة سيده الكونت ، وقد أفاق تقريبا من تأثير الشراب ، فتهيا ليقدم له الشاى .

وكان الفارس المتقاعد يقول في تلطف وتقرب ، وهو يقف امام الكونت الذى استلقى في سرير الرجل ، ومد ساقيه الى الجدار : « الحق اننى سأشعر بجرح لكرامتى . فانت ترى اننى عسكري قديم ، و .. زميل ، اذا جاز لى أن أقول ذلك . فلماذا تقترض من اى امرئ آخر ، اذا كان يسرنى أن أقرضك مائتى روبل ؟ .. ان المبلغ ليس معى بأكمله الآن ، وانما معى منه مائة روبل .. على اننى سأحضر الباقي اليوم .. لسوف تجرح شعورى حقا يا كونت ، اذا انت أبيت ! »

وقال الكونت ، وقد أدرك لغوره نوع العلاقات التى كان

لا بد من أن تقوم بينهما ، فدى يلبه كتف الفارس : « شكرا ، ايها الصديق الحميم ! شكرا ! .. ليسكن لك ما شئت الآن ، وسنذهب الى حفلة الرقص ، اذا لم يكن من ذلك بد .. ولكن ، ماذا نفعل الآن ؟ .. حدثنى عما اوتيتكم فى بلدتكم هذه .. اى نوع من الحسان ؟ واى رجال اهل لان يكونوا زملاء فى اللهو ؟ واية مقامرات تعقد ؟ »

فاخذ ضابط الفرسان يبين له ان الحفل سيكون غاصا بكثيرات من المخلوقات البديعة ، وان « كولكوف » - الذى أعيد انتخابه قائدا للبوليس - كان خير زميل فى اللهو ، وان كانت تعوزه روح ضباط الفرسان الحقبة .. كان رجلا رائعا ، فيما عدا ذلك ، حقا .. كذلك كانت فرقة الموسيقى العجوى « ايلوشين » فى المدينة تقيم حفلاتها الفنائية - منذ بدأت الانتخابات - بقيادة « ستيشكا » ، وان كل امرئ كان يعززم الذهاب لسماع اغانيها ، بعد الانصراف من دار المارشال ، فى تلك الليلة .. ومضى قائلا : « وهناك كثير من ألعاب المقامرة كذلك .. لسوف يلعب « لوخنوف » الورق ، وقسدا اوتى نقودا كثيرة . وهو يقيم هنا خلال رحلته .. وقد خسر « ايلين » - وهو حامل العلم فى سرية من فرسان « الاوغلان » ، ويشغل الحجرة رقم ٨ - مبلغا كبيرا اثناء اللعب معه . ولقد شرما فى اللعب فى هذه الحجرة بالذات ، واصبغا بلعبان كل ليلة . وبالايلين هذا من شاب بلجع ! .. اؤكد لك يا كونت انه تيس مقترا او بخيلا ، بل انه ليتخلى عن آخر قميص على جسده ، راضيا ! » . فقال الكونت : « حسنا ، اذن فلنذهب الى حجرته ، ولنر اى نوع من القوم اولئك الذين يلعبون هناك ! » . وقال الآخر : « اجل ، هيا .. لسوف تملكم فرحة الشيطان نفسه ! »



« ٢ »

• لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ « ايلين » ، حامل العلم في كتيبة فرسان « الاوغلان » . فقد جلس - في الليلة السابقة - الى أوراق اللعب في الساعة الثامنة مساء ، وراح يخسر باطراد لخمس عشرة ساعة بأكملها . . . الى الى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي . ولقد خسر مبلغا كبيرا ، ولكنه لم يعرف مدى ضخامته تماما . فقد كان معه حوالي ثلاثة آلاف روبل من نقوده الخاصة ، وخمسة عشر الفا من الروبلات ، من اموال التاج التي امتزجت بامواله الخاصة منذ مدة طويلة ، حتى أصبح يخشى أن يحسب ما معه ، حتى لا تتأكد مخاوفه من أن قسطة من اموال التاج قد تبدد !

وكان النهار قد انتصف تقريبا ، عندما استسلم للنعاس ، فحظى بذلك النوم العميق ، الخالي من الاحلام ، الذي لا ينعم به سوى الشبان النضغار في السن ، عقب أن يمنوا بخسارة فادحة . وما أن استيقظ في الساعة السادسة من المساء - في عين الوقت الذي وصل فيه الكونت توربين الى الفندق - بأبصر الارض حوله وقد تناثرت عليها أوراق اللعب ، وبقايا أقلام الطباشير ، ورأى الموائد في وسط الحجرة مجللة بعلامات الطباشير ، حتى تذكر - في جزع - لعب الليلة الماضية ؛

والورقة الاخيرة - وكانت « فاليه » - التي خسر عليها خمسمائة روبل .. على انه لم يكن قد اقتنع بعد تمام الاقتناع بكل هذا ، فأخرج نقوده من تحت الوسادة ، وشرع يعدها .. وتبين بينها بعض اوراق مالية تنقلت من يد الى أخرى ، فتذكر كل تطورات اللعب .. ولم يكن قد تبقى معه شيء من الثلاثة آلاف روبل التي كانت من ماله الخاص ، كما ان حوالي الفين وخمسمائة روبل من اموال الحكومة كانت قد ولت .. فلقد قضى « فيلين » أربع ليال متوالية ، في اللعب ! كان قد أقبل من موسكو ، حيث عهد اليه بذلك المبلغ من اموال التاج ، فلما بلغ (ك ...) عطله المشرف على مركز البريد (١) بحجة أنه لم تكن هناك جياد . ولكن السبب الحقيقي تمثل في أن المشرف كان على اتفاق مع صاحب الفندق على أن يعطل المسافرين يوما من مواصلة أسفارهم ! .. ولقد سر فاريس « الاوغلان » ، الذي كان شابا في غضارة الصبا ، تلقى من والديه - في موسكو - ثلاثة آلاف روبل ليجهز نفسه للالتحاق بكتيبته .. سر بقضاء بضعة أيام في بلدة (ك ...) ابان الانتخابات ، املا في أن يمتع نفسه الى اقصى حد . وكان يعرف سيذا من أصحاب الارض ، ذا أسرة ، فراح يفكر في زيارته ، وفي مغازلة بناته .. واذا بالفارس المتقاعد يتعرف اليه ، في تلك الاثناء ، ثم يقدمه - دون ما سوء نية - الى معارفه في قاعة البطوس العامة ، او القاعة العامة في الفندق ، في المساء ذاته .. وكان هؤلاء المعارف هم « لوخنوف » وغيره من القمارين . ومنذ ذلك الحين ، عكف ضابط « الاوغلان » على لعب الورق ، ولم يعد يسأل مركز البريد عن جياد .. وأصبح أقل رغبة في الذهاب لزيارة صاحب الارض الذي كان

(١) كان البريد ينقل اذ ذاك في عربات وزحافات خاصة ، يسمح للمسافرين بأن يسافروا فيها ، او بأن يستأجروا الجياد من مركز الى آخر

يعرفه .. بل انه لم يبرح حجرته اربعة ايام بطولها !

واذ ارتدى ثيابه واحتسى الشاي ، سار الى اثنافدة . وشعر بميل الى أن يخرج ويتمشي ويتخلص من الافكار التي راحت تطارده ، فارتدى معطفه وخرج الى الطريق . وكانت الشمس قد توارت خلف المنازل البيضاء وسقوفها الحمراء ، واخذت الظلمة تزحف .. وكان الجو دافئا بالنسبة لما هو مألوف في الشتاء ، ومع ذلك فقد كانت كسف عريضة من الثلج تتساقط في بطء الى الطريق الموحلة .. وفجأة ، غشي الشاب أسى لا يطاق ، اذ تذكر انه نام طيلة النهار الذي اشرف على نهايته . وقال لنفسه : « ان هذا اليوم ، الذي يحتضر الآن ، لا يمكن ان يسترد ثانية » .. ثم قال لنفسه فجأة : « لقد دمرت شبابي ! » .. لم يقلها لانه فكر حقا في انه قد دمر شبابيه — فالواقع ان هذا لم يخطر بباله اطلاقا — وانما قالها لانها عرضت لذهنه مصادفة ! .. وعاد يسأل نفسه : « ما الذي ينبغي ان افعله الآن ؟ » .. اقترض من شخص ما ، وابادر الى الرحيل ؟ .. ومرت به في تلك الاثناء سيدة كانت تسير على الرصيف ، فقال لنفسه لسبب لم يدره : « ها هي ذى امرأة غبية ! » . ثم عاد يقول : « ما من أحد هنا اقترض منه .. لقد دمرت شبابي ! » وبلغ السوق ، فاذا بتاجر يقف لدى باب حانوته — في معطف من فراء الثعلب — يجتذب العملاء .. ومضى الشاب يقول لنفسه : « لو لم اسحب تلك الثمانية ، لكنت قد استطعت أن أعوض خسائري ! » .. وتبعته متسولة عجوز ، لا تكف عن الغمظة .. وظل هو يردد : « ما من أحد اقترض منه ! » .. ومر به رجل في معطف من جلد الدب ، يسوق هربة .. وكان ثمة شرطى يقف في المركز المعين له .. وراح الشاب يقول لنفسه : « أى عمل غير عادى أستطيع ان آتيه ؟ اطلق النار

عليهم إلا ، ان هذا غباء .. لقد دمرت شبابي ! .. آه .
ها هي بعض سروج بديعة لامع الخيل ، وركابات ، معلقة
هناك ! آه ، لو كان بوسمى ان انطلق في عربة تجرها ثلاثة
جياد .. واما للحسان هناك ! .. لسوف أعود . وسياتي
« لوخنوف » عما قليل : ونلعب ! »

وعاد الى الفندق ، فأخذ يحصى نقوده من جديد .. لا
لم يكن قد أخطأ في شيء - في المرة الاولى - فلا يزال ينقص
نقود التاج الفان وخمسمائة روبل .. وقال لنفسه : « سارمي
خمسة وعشرين روبل ، ثم اطلب كشف الورق .. سأضاعفها
الى سبعة أمثالها ، ثم الى خمسة عشر مثلاً ، ثم ثلاثين ، ثم
ستين .. ثلاثة آلاف روبل . وإذا ذلك سابتاع اطواق الجياد ،
وارحل .. لن يدعى الوغد افلت ! .. لقد دهرت شبابي ! »
وهذا ما كان يدور في رأس فارس « الاوغلان » عندما دخل
عليه « لوخنوف » الحجرة ، وسأله وهو يرفع - في تباطؤ -
العوينتين اللهييتين عن أنفه النحيل ، ويمسحهما بمنديل
حريرى أحمر ، في عنابة : « هل استيقظت منذ أمد طويل
يا ميخائيل فاسيليتش ؟ »

- لا ، بل اننى لم استيقظ الا من أمد قصير .. لقد نمت
نوما عميقا ، على غير عادتي !

- لقد وصل أحد ضباط كتبة الفرسان الخفيفة ، على
ما أفتقد . وقد نزل على حجرة زافالشيفسكى . هل سمعت به ؟
- لا ، لم اسمع .. ولكن ، كيف تعلل عدم وصول أحد الى
هنا حتى الآن ؟

- لا بد أنهم ذهبوا الى دار برياخين .. ولن يلبثوا ان
ياتوا الى هنا فوراً .

وهذا ما حدث فعلاً ، فبعد قليل وفد على الحجرة أحد
ضباط الحماية - وكان قد اعتاد ان يلازم « لوخنوف » دائماً -
وتاجر يوناني له آنف ضخم أسمر معقوف وعينان سوداوان

غائرتان ، ورجل سمين منتفخ من اصحاب الارض ، وصاحب مصنع للتقطير العتاد أن يلعب في كل الاسباب ، وإن يراهن بمبالغ رهزية ، تتمثل دائما في نصف روبل في كل مرة .. ورغب الجميع في أن يسدوا اللعب بأسرع ما يمكن ، ولكن المقامرين الرئيسيين لم يشيروا الى الموضوع بشيء ، لا سيما لوخنوف الذي راح يروى - في صوت هادئ للغاية - قصة سرقة وقعت في (موسكو) . واخذ يقول : « تصوروا .. مدينة مثل موسكو ، العاصمة التاريخية ، والمركز الرئيسى للدولة .. فيها رجال يتنكرون في زى شياطين ، وينطلقون في أرجائها مع قطاع الطرق ، يرهبون الاغنياء ويسرقون المارة .. هذه هي النهاية ! .. فيم اذن وجود الشرطة ؟ .. هذا هو السؤال ! »

وانصت فارس « الاوغلان » الى قصة اللصوص بانتباه . ولكنه ما لبث - عندما ساد الصمت برهة - أن نهض وأمر بهدوء بشراء ورق للعب . وكان صاحب الارض البدين هو أول المتكلمين ، اذ تسأل : « وبعد يا سادة .. فيم تبديد الوقت الثمين ؟ اذا كنا نريد العمل ، فلنبدا ! » .. وقال انيوزانى : « اجل ، فانت قد انصرفت بكومة من انصاف الروبلات ليلة أمس ، ولهذا فقد اجببت العملية ! » .. وقال ضابط الحامية : « اعتقد أننا يجب أن نبدا ! »

ونظر « ايلين » الى « لوخنوف » ، فهدد لوخنوف بصره اليه - في هدوء - وهو يستأنف رواية قصته عن اللصوص الذين تزوا بزى الشياطين ، واصطنعوا لانفسهم مخالب .. وسأل فارس الاوغلان صاحبه : « هل تتولى (البنك) ؟ » - الا ترى أن الوقت جد مبكر ؟

فصاح فارس الاوغلان ، وقد تضرع وجهه لسبب غير معروف : « مرحى ! .. آتوني بشيء للعشاء ، فما تناولت بعد شيئا ، ايها السادة ! .. زجاجة من الشمبانيا ، وبعض مجموعات من اوراق اللعب ! »

وفي تلك اللحظة ، ولج الكونت وزافالشيفسكى الحجرة .
 وظهر أن « توربين » و « ايلين » كانا يتبعان قرقة واحدة ،
 فمال كل منهما الى الآخر فوراً ، وتقارعا الكؤوس ، واحسبوا
 الشمبانيا معا ، وتوثقت بينهما اللفة والمودة في خمس دقائق !
 .. ولاح أن الكونت قد أحب « ايلين » كثيراً ، فقد راح ينظر
 اليه مبتسماً ، ويداعبه مازحاً بشأن صغر سنه . فقد قال :
 « هاكم اوغلاني من الصنف الصحيح ! .. يا لشاربيه ! ..
 عجباً ، أى شاربين هذان ! »

وكان ما لدى ايلين من شاربين ، لا يتجاوز خطأ خفيفاً ،
 من زغب ايضاً ! .. وعاد الكونت يقول : « أحسبك ستائب ؟
 .. حسناً ، أتمنى لك حظاً يا ايلين ! » ثم أردف وهو يتسم :
 « ما أخالك الا أستاذاً في اللعب ! » . فقال لوخنوف ، وهو
 يمزق غلاف علبة ضمت اثنتى عشرة مجموعة من ورق اللعب :
 « أجل .. ولسوف يبدأون اللعب ، وستنضم أنت الآخر يا
 كونت .. اليس كذلك ؟ »

— لا ، ليس اليوم ، فاني قهين بان أجردكم جميعاً من
 نقودكم اذا لعبت .. انى حين أبدأ في « الاهتمام » الصادق
 باللعب ، فان (البنك) يشرع في التداعى ! .. لقد نظفوا جيوبى
 في إحدى المحطات القريبة من (هولوتشوك) ، فقد التقيت
 هناك شباب من فرقة المشاة ، يزين أصابعه بخواتم ..
 واحسب أنه غشاش .. وقد استطاع أن يجردنى تماماً من
 نقودى !

فسأله ايلين : « ولماذا أظلت المكث في تلك المحطة ؟ »

— انما جلست هناك أربعاً وعشرين ساعة . ولن أنسى قط
 تلك المحطة اللعينة ! .. ولن ينساني المشرفعليها ، هو الآخر ..
 — وكيف ذلك ؟

— لقد وصلت في مركبتى الى هناك ، كما هو معروف .
 واذا بالمشرع على المحطة يندفع لاستقبالي — وقد بدا كقاطم

الطريق - وبادرني قائلا : « لا جيا ! » . ونجددني ان اخبركم - عند هذه النقطة - ان من عادتي اذا لم اجد جياذا ، ان لا اخلع معطفى المصنوع من الفراء ، وان اذهب الى غرفة المشرف . . اجل ، الى غرفته الخاصة ، وليس الى الغرفة العامة . . وامرت بان تفتح جميع النوافذ والابواب ، متعللا بان جو الغرفة كان مشبعاً بالدخان . . اجل ، هذا ما فعلته هناك . وانتم تذكرون اى صقيع نزل علينا في الشهر الماضى . . كانت درجة الحرارة حوالى العشرين درجة ! (١) . . وشرع المشرف يجادلنى ، فلكت رأسه . وكانت ثمة امرأة عجوز ، وبنات ، ونسوة أخريات ، اشتركن جميعا في اثاره الشغب والتقطن او عيتهن واواتيهن وقد عولن على ان يندفعن صوب القرية . فسرت الى الباب ، وقلت : « آتونى بجياذ ، ارحل لفورى . فان لم تمكثونى ، فلن يخرج منكم احد ، وسادع التيار المنساب من النوافذ يجمد الدم فى عروقكم ! »

وصاح مالك الارض البدين ، وهو يتقلب فى مقعده لفرط الضحك : « انها لخطة جهنمية رائعة ! . . انها الطريقة التى يقضون بها على الصراصر بالتجمد . . . »

- ولكننى لم اكن حذرا فى انتباهى ، فاستطاع المشرف ان يخرج من المبنى مع النسوة ، ولم تبق سوى امرأة عجوز ، جلست على القرن رهينة . . واخذت تعطس وتتلو صلواتها . وما لبثنا ان شرعنا نتفاوض بعد ذلك ، فاقبل المشرف واخذ يفرينى - عن بعد - بان اخلى سبيل المرأة العجوز . ولكننى اطلقت عليه « بلوخر » قليلا . . و « بلوخر » رائع فى مداعبة المشرفين على محطات البريد ! . . ومع ذلك ، فان الوغد ظل يابى ان يمكننى من الحصول على الجياذ قبل صبحا اليوم

(١) ٢٠ درجة بمقياس ريامور ، وهى تعادل ٢٥ درجة مئوية . ويلاحظ ان درجة الحرارة العادية للانسان حوالى ٣٠ درجة ريامور ، اى ٢٧ مئوية .

التالى .. وفى تلك الاثناء ، اقبل ذلك الشاب التابع للمشاة ، فانضممت اليه فى خجرة اخرى ، وشرعنا نلعب ... هل رايتم بلوخر ؟

ورفع عقيرته بالنداء : « بلوخر ! » ، واردفه بصغير . فاقبل « بلوخر » مهرعا .. وتلطف اللاعبون فأبدوا نحوه بعض الاهتمام ، وان كان من الجلي أنهم كانوا راغبين فى الانصراف الى مسائل أخرى غير هذه .. وما لبث توربين ان قال : « ولكن ، لماذا لا تلعبون يا سادة ؟ .. أرجو أن لاتدعوني أحول بينكم وبين اللعب ، فانا ثرثار ، كما ترون .. ان اللعب لعب ، سواء شاء المرء أو لم يشأ ! »

— (٣) —



• **قريب « لوخنوف »** شمعتين من مجلسه ، واخرج حافظة نقود كبيرة ، بنية اللون ، مليئة بالاوراق المالية ، ففتحتها على المنضدة بتؤدة .. وكأنه يؤدي بعض الطقوس — وتناول منها ورقتين من فئة المائة روبل ، فوضعهما تحت أوراق اللعب . وقال وهو يسوي من وضع عوينتيه ، ويفتح مجموعة من أوراق اللعب : « مائتان للبنك .. تماما كأمس ! » . فقال ايلين وهو ماض فى حديثه مع توربين ، دون أن ينظر الى لوخنوف : « حسنا جدا ! »

وبدا اللعب (١) . واخذ لوخنوف يؤذع الأوراق في دقة الآلهة ، متوقفاً من أن لاخر عن تعمد ، ليكتب رقما ، اوليوجه من فوق خطتي عوينتيه نظرة صارمة ، وهو يقول في صوت منخفض ، على بالنيرات : « ناول ! » . وكان صاحب الارض البدين هو أعلى الجميع صوتا في كلامه ، وهو يجادل نفسه جهارا ، ثم يرطب أصابعه المثلثة الطرية ، عندما يثنى ركن ورقة . وكان ضابط الحامية يسجل في صمت ودقة المبالغ التي يراهن بها على ورقته ، ويثنى أطرافاً صغيرة من الاركان، تحت المنضدة . أما اليوناني فكان يجلس بجوار المشرف على (البنك) ، يراقب اللعب بانتباه . بعينيه الفائرتين - وهو يبدو كمن يترقب شيئا . وكان « زافالشيفسكي » يقف بجوار المائدة ، ثم لا يلبث أن يتعمل في وقفته فجأة ، ويتناول من جيب سرواله (بنطلونه) ورقة مالية حمراء او زرقاء (٢) ، فيضعها على ورقة اللعب التي تكون امامه ، ثم يدق عليها بكفه ، قائلا : « سبعة متواضعة .. وزع لي ا » . ويروح بعض طرفي شاربيه ، وهو ينقل ثقل جسمه من قدم الى

(١) اللعبة المقصودة هنا هي « الشطرنج » ، وقد كانت رائجة في روسيا . وعلى عليها الزمن ، فانقرضت .. وفيها يختار اللاعبون لانفسهم أوراقا من مجموعات على المائدة ، ويضعون المبالغ التي يراهنون بها على أوراقهم او تحتها . ويحتفظ المشرف على « البنك » بمجموعة كاملة من الأوراق ، يؤزع منها كل الجالسين الى اليمين والجالسين الى اليسار ، على التوالي . فالأوراق التي توزع الى اليمين يكون كسبها له ، والتي توزع الى اليسار ، يكون كسبها للاعب . ومن مصطلحاتها « ناول ! » ، لتذكر اللاعبين بتسليم المبالغ التي يكونون مدينين بها للبنك ، و « مفردات » أي مراهنات فردية . ويضاغف اللاعب رهانه مرتين أو ثلاثا بان يثنى اركان الورقة التي في يده ليكشفها ، اذ تكون موضوعة وظهرها الى اعل .. و « التمرير » يضاغف الرهان ستة أمثاله .

(٢) كانت الأوراق ذات الخمسة روبلات زرقاء .. وذات العشرة حمراء .

قدم ، ولا يكف عن التملعل الى أن توزع عليه ورقة اخرى ..
 وراح « ايلين » يأكل شرائح من لحم البقر والخيار المملح ،
 وضعت على اريكة من شعر الخيل ، ثم أسرع فمسح يديه في
 سترته ، وأخذ يلقي ورقة بعد أخرى . اما « توريين » التي
 كان جالسا - في بادئ الامر - على الاركة ، فلقه سرعان ما
 ادرك تطورات الموقف . ولم يكن « لوخوف » ينظر الى
 « ايلين » او يخاطبه ، بيد أن جويته كانتا تتحولان نحو
 يدى الشاب من آن الى آخر ، وتستقر نظراته عليهما لحظة
 .. ولكن معظم اوراق « ايلين » كانت خاسرة !

وما لبث « لوخوف » أن قال ، مشمرا الى ورقة القاها
 صاحب الارض البدين ، التي كان يقامر بانصاف الرويلات :
 « آه ، اننى أود أن أضرب هذه الورقة » . فقال المالك :
 « لك أن تضرب ورقة ايلين ، ودعك منى ! » .. وفعلما كانت
 اوراق ايلين أكثر خسارة من اوراق الآخرين ، حتى أنه كان
 يمزق كل ورقة خاسرة - تحت المائدة - وهو منفعل ، ثم
 يختار ورقة اخرى بأصابع مرتجفة . ونهض « توريين » عن
 الاركة ، وسأل اليونانى أن يدعه يجلس مكانه الى جوار
 المشرف على (البنك) . فانتقل اليونانى الى مكان آخر ،
 وشغل الكونت مقعده ، وبدأ يراقب يدى « لوخوف » بامعان ،
 لا يحرك عينيه عنهما .

وفجأة ، قال الكونت بصوته العادى ، الذى طغى على جميع
 الاصوات دون قصد منه : « ايلين ! .. لماذا تلزم طريقة جامدة
 في اللعب ؟ .. انك لا تعرف كيف تلعب »

- كل الطرق سواء في اللعب

- ولكنك تخسر بهذه الطريقة . دعنى اللعب بدلا منك !

- لا ، أرجو أن تسمح لى .. اننى دائما ما اللعب لنفسى ،
 فالعب لنفسك اذا شئت .

- قلت من قبل اتنى لن اللعب لخصائى ، ولكنى لود أن اللعب

لحسابك ، فاني مستاء لانك تخسر !
— أرى ان هذا حظى . . قدر مكتوب على !

وصمت الكونت ، ولكنه مال على المائدة معتمدا على مرفقيه ، وعاد يتأمل يدى المشرف على (البنك) بامعان . وفجأة ، قال بصوت عال ، وهو يطيل الكلمة : « فطيع ! » . فتطلع اليه « لوخنوف » ، واذا به يردد بصوت أكثر ارتفاعا ، وهو يصدق في عينيه « لوخنوف » مباشرة : « فطيع ! .. فطيع جدا ! » واستمر اللعب . . ومرة أخرى ، صاح توربين ، وقد ضرب « لوخنوف » ورقة كان « ايلين » قد قامر عليها بمبلغ كبير : « ليس هذا من الصواب في شيء ! » . فتساءل المشرف على (البنك) في عدم اكتراث مهذب : « ما الذى لا يروق لك يا كونت ؟ »

— هذا ! .. انك تدع ايلين يكسب مراهناته المفردة ، ثم تقلبه في المراهنات المضاعفة .. هذا هو موطن السوء في الامر ! وحرك « لوخنوف » حاجبيه وكتفيه حركة خفيفة ، ايماء الى انه كان يتصحح بالتسليم للحظ والقدر في كل شيء ، وواصل اللعب . فصاح الكونت : « بلوخر ! » . ونهض مرسلا صفيرا استدعى به الكلب ، ثم اردف بسرعة : « عليك به ! » وارطم ظهر « بلوخر » بالاريغة وهو يشب من تحتها ، فكاد يقلب ضابط الحامية ، وهرع نحو مولاه مزجرا ، ثم راح يتلفت ناظرا الى كل امرئ ، وهو يهز ذيله ، وكأنه يتساءل : « من هذا الذى يسعى للتصرف هنا ! .. هه ؟ »

والقى « لوخنوف » بالاوراق التى كانت في يده ، وازاح مقعده جانبا ، وقال : « ليس بوسع المرء أن يلعب بهذا الشكل اننى اكره الكلاب . . اى نوع من اللعب يصبح ، اذا ما أحضرت الى هنا فرقة من كلاب الصيد ؟ » . فقمقم ضابط الحامية :

« لا سيما اذا كانت كهذا الكلب » .. والتفت لوخنوف الى مضيقهم قائلا : « وبعد .. هل سنلعب يا ميخائيل فاسيليتش او ترانا ان نلعب ؟ » . فالتفت ايلين الى توربين قائلا : « أرجو ان لا تتدخل بيننا يا كونت ! » . فقال توربين وهو يمسك بدراع ايلين ويذهب به الى وراء حاجز خشبي في الحجرة : « تعال معي لدقيقة ! »

وكانت كلمات الكونت - التي قاتها بصوته المعهود - مسموعة بجلاء من خلف الحاجز ، فقد كانت طبقة صوته تسرى عبر ثلاث حجرات دائما :

- أنت مغفل ، هه ؟ الا ترى ان ذلك السيد ذا العوينتين غشاش من الدرجة الاولى ؟

- دعك من هذا ، كفى ! .. ما هذا الذي تقول ؟

- لا مجال لـ « كفى » في هذا الامر ! .. اننى اناشدك ان تكف عن اللعب . ان الامر لا يهمنى في شيء ، ولو اتنا كنا في ظروف أخرى ، لاستنزفت اموالك بنفسى ، ولكننى - لسبب لا ادريه - آسف اذ اراك تجرد من ريشك . ولعلك تحمل شيئا من اموال التاج كذلك ؟

- لا ... لماذا تتوهم امورا كهذه ؟

- آه ، يا فتاى ! .. لقد كنت انا الآخر مثلك ، ومن ثم فأننى اعرف كل حيل أولئك الغشاشين . اننى اؤكد لك ان الرجل ذا العوينتين غشاش ، فكف عن اللعب ! اننى اناشدك كرميل في السلاح !

- ليكن ذلك اذن ، فقط سأفرغ من هذا الدور وحده .

- اننى ادري ما وراء «دور واحد» . حسنا ، لسوفغرى ! وعادا .. وفي هذا الدور الواحد ، القى ايلين بكثير من الاوراق ، راهن عليها بكثير من النقود ، حتى انه عندما خسر فقد مبلغا باهظا . واذا ذاك ، وضع توربين يديه فى وسط المائدة ، وصاح : « الآن ، كف عن اللعب ، وتعال ! » .. فقال

ايلين في انفعال ، وهو يعبت ببعض أوراق مطوية ، دون ان ينظر الى توربين : « لا ، لست استطيع . دعنى وشانى ! »
 - حسنا ، اذهب الى الشيطان ، اذن ! استمر في الخسارة المؤكدة ، اذا كان هذا يروق لك . لقد حان لى ان انصرف .
 فلنذهب الى حفلة « المارشال » يا زافالشيفسكى !
 وانصرفا . وظل الذين مكثوا صامتين ، ولم يعد لوخنوف يوزع أوراقا الى ان غاب . وقع اقدامهما ، وخفت وقع مخالبا « بلوخر » على أرض الردهة . واذا ذاك قال مالك الارض ، وهو يضحك : « يا له من رجل ، كانه الشيطان ! »
 . فعقب ضابط الحامية ، وهو لا يزال يهمس وينطق الكلمات في عجلة : « حسنا . . انه لن يتدخل في اللعب ثانية ! »
 وعادوا يستأنفون اللعب .

« ٤ »

• وما ان صدرت اشارة معينة ، حتى عزفت الفرقة الموسيقية ، المؤلف من بعض عبيد المارشال - وقد وقفوا في مخزن المؤن (الكرار) بعد ان اخلى مما كان به ، لهذه المناسبة ، وشمروا عن اكمهم استعدادا . - اللحن البولندى القديم « الكسندر ويزابيث » . . وتحت الاضواء المشرقة الناعمة - الصادرة من الشموع المصنوعة من الشحم - تقدم حاكم عام من عهد « كاترين » ، تزين صدره نجمة ، وقد تأبط ذراع زوجة المارشال النحيلة الهزيلة . . فشرع الباقون من علية القوم بنسابون رويدا - مع زميلاتهم - على الارض الخشبية المضقولة ، في قاعة الرقص الكبيرة ، في تجمعات عديدة ومتباينة . . وهنا دخل « زافالشيفسكى » مرتديا جوربين طويلين ، وحذاءين طويلين كذلك ، وسترة زرقاء ذات ذيل طويل رفيع وياقة واسعة من اللباد ، وقد تصاعد منه هبر قوي . . هبر



مطر الياسمين الهندي الذي نثر بفزارة على صدر سترته ،
ومنديله ، وشاربيه .

أما الضابط المليح ، المنتفى الى كتية الفرسان الخفيفة ،
والذي أقبل معه ، فكان يرتدى سروالا (بنطلون) ذا لون
أزرق خفيف ، من سراويل ركوب الخيل ، وقد أجكم حول
جسمه احكاما تاما ، وسترة قرمزية موشاة بالذهب ، ثبت
الى صدرها صليب فلاديمير ، ووسام سنة ١٨١٢ (١) . وما
كان الكونت بالرجل الطويل ، ولكن جسمه كان بدیع البنيان
بدرجة تلفت الانظار . وكانت عيناه - اللتان امتازتا بزرقة
صافية وبريق شديد - وشعره البني القاتم الشديد التجدد ،
تضفي طابعا رائعا على جماله . وكان مقدمه الى الحفلة الراقصة
متوقعا ، اذ أن الشاب المليح الذي رآه في الفندق ، كان قد هيا
« المارشال » لذلك . وكان النبأ قد أحدث أثارا عذيدة ، لم
تكن - في أغلبها - سارة ! . فقد كان رأى الرجال ، والسيدات
المسنات ، يتمثل في : « ليس من المستبعد أن يعرضنا هذا
الشاب للسخرية ! » . أما السيدات اللاتي لم يتجاوزن
الشسباب - متزوجات او غير متزوجات - فتن ما جنال
بخواطرهن ، لم يخرج عن : « ماذا يكون لو أنه هرب بي ؟ » !
وما ان انتهى لحن الرقصة البولندية ، وانحنى كل راقص

(١) ميدالية كانت تمنح لمن أبلى في الدفاع عن روسيا ضد نابليون .

لم راقصته فبادلته بدورها الانحناء ، حتى افترقوا فبتقاربت
انفساء في فريق ، والتم الرجال في فريق آخر .. واذا
ذاك ، قدم « زافالشيفسكى » الكونت الى ربة القصر ، وهو
فخور ، مفتبط .. وشعرت زوجة المارشال بقشعريرة تسرى
في اعماقها ، خشية أن يوليها هذا الفارس الشاب معاملة
فاضحة امام انجميع ، فاشاحت في ترفع وازورار ، وهى تقول :
« يسرنى كل السرور أن أراك ، وآمل أن تنعم بالرقص ! » .
ثم رمقته بنظرة متريبة ، وكأنها تقول : « تذكر أنك اذا جرحت
شعور امرأة ، فسيثبت لى هذا أنك شقى زعيم ! »
على ان الكونت سرعان ما هزم مخاوفها ورأيها السيء عنه
بلطفه ، ومسلكه الذى نم عن فطنة ورعاية ، ومظهره الوسيم
أنطروب ، ومن ثم فلم تنقض دقائق خمس ، حتى كان التعبير
الذى ارتسم على وجه زوجة المارشال ينبئ القوم : « اننى
خيرة بترويض السادة للذين من هذا القبيل ، فقد أدرك
لفوره من لتي يعاملها ، ومن ثم فهو يظل يبدى لى مسلكا
رائعا طيلة السهرة ! » . وفوق ذلك ، فان حاكم البلدة - الذى
كان على معرفة بوالد الكونت - سعى اليه ، في تلك اللحظة ،
وانتحي به جانبا ، وهو في بشاشة بالغة ، وراح يتحدث معه ،
مما زاد من طمأنينة المجتمع الرفي الموجود ، ورفع من تقدير
القوم للكونت .

وما لبث زافالشيفسكى ان قدم الكونت - بعد ذلك - الى
أخته .. وكانت أرملة شابة سمينة في التفاف ، لم تفارق
مينها السوداء وان الواسعتان الكونت منذ اللحظة التى ولج
فيها القاعة . وسألها الكونت أن تراقصه « الفالس » الذى
كانت الفرقة الموسيقية قد شرعت تعزفه ، واذا ذلك تبددت
البقية الباقية من الآراء التى كانت قد خامرت القوم ، حين

راوا طريقته البارعة في الرقص !
وقالت سيدة بدينة ، من صاحبات الأرض ، وهي ترقب
ساقيه في سروال الركوب الأزرق ، وقد راحتا تتنقلان على
أرض الحجرة في رشاقة وخفة : « يانه من راقص بديع ! »
واخذت تحسب حركات قدميه في سريرتها : « واحدة ، اثنتان ،
ثلاث .. واحدة ، اثنتان ، ثلاث .. رائع ! » .. وقال آخر ،
وكان زائرا للمدينة لا يعده مجتمعها المحلي من عليه القوم :
« انظر كيف يمضى .. جيح ، جيح ، جيح ! .. كيف يتفادى
ان يرتطم مهمزاه معا ؟ .. انه لرائع ، حاذق ! »

وبهر رقص الكونت أغنى الأنظار ، حتى طفى على تالق خمير
ثلاثة راقصين في الأقليم ، وهم : ياور اتحاكم ، الطويل الأشقر
الشعر ، الذي امتاز بسرعته في الرقص ، وبانه كان يشد
زميلته الى صدره .. والفارس المتقاعد ، الذي اشتهر بحركاته
المرنحة الرشيقة في رقصة « الفالس » ، وبالذقات المتواليّة
الخفيفة التي كان يوقعها على الأرض بكعبيه .. وشخص من
المدينين ، كان كل امرئ يقول انه ثم يكن نبيا جدا . ولكنه
كان راقصا من الدرجة الاولى ، وكان يروح كل حفلة راقصا ..
والتوقع ان هذا الشخص كان يسأل كل السيدات ان يراقصنه ،
كلا بدورها ، بترتيب مجلسها (١) ، ولم يكن يتوقف قط ،
اللهم الا في فترات عابرة ، ليخفف العرق عن وجهه — الذي
كان يحتفظ بيشاشته رغم علامات الارهاق — بمنديل مندي
من الكتان الناعم .

لقد طفى الكونت على تالقهم جميعا ، وراقص مع ارقى ثلاث
سيدات : السيدة الطويلة ، الفنية ، الملبحة ، الغبية ! ..
والسيدة المتوسطة الطول ، النحيلة ، التي لم تكن بارعة المحسن

(١) كانت العادة ان لا يراقص الرجل سيدة رقصة بأكملها ، بل يوقعها
بضع جولات ، ثم يقودها الى مقعدها ، وينحن لها .. ثم يشد سواها

ولم يكن لها كانت بديعة الملبس .. والسيدة التي كانت قلة في الجسم ، خالية من الحسن ، ولكنها كانت حاذقة في الرقص .. ورقص توربين مع أخريات . كذلك .. مع جميع الحسان ، وقد كن كثيرات هناك .. ولكن أخت زافالشيفسكى - الأرملة الشابة - كانت خير من رقص له من النساء . فرقص معها رقصة من نوع « الكندريل » ، وأخرى إيقوسية ، وثالثة من رقصيات « مازوركا » .. وعندما جلسا معا - خلال « الكندريل » - شرع يفتقد عليها مجاملاته ، فشبهها بفينوس وديانا ، وبالوردة ، وبنوع آخر من الزهور . ولكن كل هذه المجاملات لم تؤد إلا إلى أن كانت الأرملة تحنى عنقها البض ، وتنكس عينيها فتنظر إلى ثوبها « الموملين » الأبيض ، أو تنقل مروعتهما من يد إلى يد ، ولكنها عندما كانت تقول : « لا تفرق يا كونت ، فما أراك إلا تمزج ! » - وما إلى ذلك من كلمات - كانت تقولها في بساطة ساذجة ، وخفر مثير ، بصوتها الذي كان ينبعث من أعماق الحلق قليلا ، حتى لقد كان الناظر إليها يراها زهرة - في الواقع - وليست امرأة .. وزهرة ليست من النوع المألوف ، وإنما من تلك الزهور البرية الفخمة ، العديمة العبير ، ذات اللون الأبيض لشرب بحمرة وردية .. زهرة من هذا النوع ، نمتوحيدة ، وسط سيل من اللبلب في مكان ناء سحيق !

هنا المزيج من الساذجة وعدم مشابهة النسوة المألوفات ، مع نصارة جمالها ، أحدث في نفس الكونت أثرا غريبا ، حتى لقد تملكته الرغبة مرارا - أثناء فترات الصمت ، وهو يتأمل عينيها والتفاف عنقها البديع وذراعيها الجميلتين - في أن يحتويها بين ذراعيه ، ويغرقها بقبلاته .. ولقد راودته هذه الرغبة بقوة ، حتى لقد اضطر إلى أن يبذل مجهودا جديدا في مقاومتها .. ولاحظت الأرملة - في اغتباط - الأثر الذي أحدثته في نفسه ، بيد أن شيئا في سلوك الكونت بدأ يوقع

الرهبة في نفسها ويشيرها - في آن واحد - مع ان الفسابط
 الفارسي الشاب كان ، بالرغم من لطفه الفتان ، يبدى لها من
 الاحترام ما قد يعتبر - في ايلنا هذه - ممجوجا ! .. فقد
 هرع ليحتلب لها شرابا من عصير اللوز ، والتقط منديلها ،
 واختطف لها مقعدا من يد شاب من الاميان - مصاب بالدرن
 الغنزيري - كان يتراقص حولها ليظفر بها سريعا .. وهكذا .
 وعندما لاحظ أن المجاملات التي اصطلح عليها مجتمع
 زمنهما كانت قليلة التأثير على السيدة ، حاول ان يطربها بأن
 راج يروي لها قصصا مضحكة، ويؤكد لها انه كان على استعداد
 لان يقف على راسه ، او أن يصيح كالديك ، او أن يقفز من
 النافذة ، او ان يفوض في الماء خلال ثغرة في البجيد ، اذا هي
 امرته بان يفعل شيئا من ذلك . واستمرت هذه الطريقة عن
 نجاح ، فقد اشرق محيا الارملة ، وانطلقت في سيل من الضحكات
 ذات الرنين الصذب ، كاشفة عن اسنان بيضاء جميلة ..
 ورضيت كل الرضى عن فارسها . واخذ الكونت يزداد حبا
 لها دقيقة بعد أخرى ، فلم تنته وقصة « الكندول » حتى كان
 مدلها بهواها حقا ! .. وعندما تقدم اليها المعجب المفتون - ابن
 الشامية عشر عاما - الذي طال به الوقوف في انتظارها (وهو
 عين الشاب المدون الذي اختطفه توربين المقعد . وقد كان
 ابن أغنى ممالك الارض في المنطقة) تلقتة الارملة في فتور بالغ ،
 ولم تبد عسرها ما كانت قد خبرته من انفعال في صحبة الكونت ! ..
 وقالت له ، وهي لا تنفك تنظر الى « توربين » ، وتقدر - دون
 ان تفطن عددا لباردات من الخيط الذهبي المجدول ، الذي
 تطلبه وشي سترته : « انك كريم ! ألم تكن قد وعدتني بأن تأتي
 لتصطحبني الى الحفلة ، وأن تحضر لي بعض الحلوى » .
 فأجاب الفتى الذي كان ذا صوت رفيع حاد ، رغم طول قامته :
 « لقد ذهبت اليك يا آنا فيدوروفنا ، ولكنك كنت قد خرجت .
 وقد تركت قسطا من افخر الحلوى لك ! »

— انك تجيد انتحال المعاذير دائما ! .. لست اريد حلواك ..
 فقال : « ارى انك قد تغيرت نحوى يا آنا فيدوروفنا ، وانى
 لاعرف السبب . ولكنك لست على صواب » ، ولم يقو على
 أن يتم حديثه ، اذ أن الانفعال الذى جاش فى اعماقه ، جعل
 شفقيه تختلجان بسرعة ودرجة عجيبتين . ولم تنصت اليه
 « آنا فيدوروفنا » ، بل راحت تتبع توربين بعينيها .
 واقبل رب البيت — المارشال الكهل البدين ، الفخم المنظر ،
 العديم الاسنان — فتقدم من الكونت ، وتأبط ذراعه ، ودعاه
 الى حجرة مكتبه ليدخنا ويشربا كأسا . وما أن بارح توربين
 البقاعه ، حتى احسبت « آنا فيدوروفنا » انه لم يعد لها ما تفعله
 هناك ، فابرجت القامة الى غرفة الزينة ، متأبطة ذراع صديقة
 لها .. عنراء مسنة ، بارزة العظام ! .. وسألتها العذراء :
 « اظريف هو ؟ » . فاجابتها آنا فيدوروفنا ، وهى تسير الى
 المرأة فتأمل صورتها : « إنما يضايقنى ظرفه ! » .. وأشرق
 وجهها ، وضحكت عيناها ، بل وتضرج وجهها . ثم راحت
 تطوف بالحجرة — فجأة — على قدم واحدة ، مقامة راقصات
 « الباليه » التى رأتهم أثناء الانتخابات .. ثم اطلقت ضحكها
 الذى كان ينبعث من أعماق حلقها ، ولكنه كان طروبا عذبا ،
 واثنت ركبتيها ، ثم وثبت وهى تقول : « تصورى أى رجل
 هو ! .. لقد ذهب به الامر الى درجة ان سسأتى تذكرا .
 ولكنه لن يظفر بـ .. شئ .. ما ! » . وكأنما كانت تتغنى
 بالعامتين الأخيرتين !



وقد كنت فى غرفة المكتب — حيث اصطحب المارشال توربين
 — زجاجات من مختلف أنواع الفودكا ، والمشروبات الروحية
 الحلوة المذاق ، والشمبانيا ، فضلا عن الشطائر والمشهيات .
 وكان الاعيان الذين راخوا يتمشون فى الحجرة ، أو جلسوا

وسط سحب من دخان انتبغ ، يتحدثون عن الانتخابات . فكان قائد الشرطة الذي انتخب حديثا يقول : « أما وقد شرفه مجتمع أعياننا المبجل بانتخابه ، فما كان له — بأى حال من الأحوال — أن يتجاوز حده ، متحديا المجتمع بأسره . . . » . على أن دخول الكونت قطع الحديث ، أذ رغب كل امرئ في أن يتعرف إليه ، وظل قائد الشرطة — بوجه خاص — يضغط يد الكونت طويلا ، ويسأله ملحفا أن لا يرفض أن يرافقه إلى المطعم الجديد الذي كان قد دعا السادة إليه عقب الرفض ، وحيث كان الفجر يغنون . فوعده الكونت بأن يلبي الدعوة ، وشرب معه بضع كؤوس من الشمبانيا !

وقال الكونت وهو بهم بمبارحة الحجرة : « ولكن ، لم لا ترقصون يا سادة ؟ » . فرد قائد الشرطة ضاحكا : « لسنا راقصين ، بل الخمر أحب إلينا يا كونت . . ثم أننى رأيت كل هؤلاء الشابات منذ حدثتهن يا كونت ! .. على أننى أستطيع أن أودى خطوات الرقصة الأيقوسية من أن أبى آخر ! » . فقال توربين : « اذن فتعال وأرقص دورا ، فان هذا كفىل بأن يهجننا قبل أن نذهب ونسمع الفجر ! » .

وهم ثلاثة أو أربعة من النبلاء الذين كانوا يشربون المنهر في حجرة المكتب — منذ بداية الحفلة — أن يتبعوا الكونت إلى قاعة الرقص ، عندما استوقفهم الشاب ذو الوجه المدرن . وتعرض للكونت وقد غاض لونه ، وراح يحس دمه بعناء ، وهو يقول : « أنظن أن بوسحك أن ترتطم بالناس المجهضين بك ، وكأنك في سوق عامة ، لمجرد أنك كونت ؟ » . وأخذ يتنفس بعناء ، وهو يردف : « هذه قلة أدب . . » . وعين حميد ، هيست شفتاه المرتجفتان الكلمات ، بالرغم مما كان يبذل من جهده . فصاح توربين ، وهو يعبس فجأة : « ماذا ؟ .. ماذا أبها الولد المدلل ؟ ! » . وأمسك بذراعيه ، فراح يعصرهما حتى تدافع الدم إلى رأس الشاب من الخوف ، أكثر مما كان

من الاستياء .. وعاد الكونت يصيح : « اتريد النزال ؟ ..
 اننى رهن امرك ! »
 وما أن افلتت توربين ذراعى الشاب ، حتى تلقفه اثنان من
 النبلاء ، وراحا يجرانه الى الباب الخلفى ، وهما يقولان له :
 « افقدت رشذك ؟ .. لا بد أنك ثمل ! .. ماذا يحدث لو
 قلنا لايبك ! » . فصاح الشاب بصوته الرفيع : « لا ، لست
 ثملا ، ولكنه ارتطم بى ولم يعتذر ! .. انه خنزير ! » .
 ولكنهما لم يصفيا اليه ، وسرعان ما حمل الى دلوه ، بينما كان
 قائد الشرطة وزافالشيفسكى يعتذران الى الكونت قائلين :
 « لا تستأية كونت ، فهو ليس سوى صبي صغير . انه لايزال
 يضرب من ابيه ، فهو لم يتجاوز السادسة عشرة .. ما الذى
 أصابه ؟ .. وكيف يفعل هذا ، ولبوه رجل محترم ؟ » ..
 فقال الكونت : « لا بأس ، ليذهب الى الشيطان ! » .. وعاد
 الى قاعة الرقص حيث راقص الارملة انحسنا وهو فى مرحة
 السابق ، ثم دوت ضحكته فى ارجاء الحجرة ، عندما زلق قائد
 الشرطة - وهو يحاول الرقص - فهوى بكل طوله على الارض ،
 وسط الراقصين !

« ه » -

• وفى أثناء وجود الكونت فى حجرة المكتب ، كانت « آنا
 فيدوروفنا » قد سعت الى أخيها ، وسألته وهى تتظاهر بعدم
 الافراط فى الاهتمام : « من كان ذلك الضابط - من الفرسان -
 الذى راقصنى ، يا أخى ؟ » . فبين الفارس المتقاعد لاخته -
 بكل ما اوتى من بيان - عظمة ذلك الضابط التابع لتكتيبة
 الفرسان الخفيفة ، وأنبأها - فى الوقت ذاته - بأن الكونت مامكث فى
 انبلدة الا لان تقوده سرقت منه فى الطريق ، وانه قد اقترضه
 مائة روبل ، بيد أن هذا المبلغ لم يكن كافيا .. فهل لاخته أن



تقرض الكونت مائتي روبل أخرى ؟ .. على أن زافالشيفسكي
سألها أن لا تروي ذلك لاحدا ما ، مهما يكن الامر ، لا سيما
للكونت نفسه . فوعدت « آنا فيدوروفنا » بأن ترسل المبلغ
لاخيها في اليوم ذاته ، ليبقى الامر سرا ، بيد أنها فسحرت
— أثناء الرقصة الإيقوسية — بشوق جارف الى ان تعرض
بنفسها على الكونت أي مبلغ يشاء . وفكرت طويلا ، وقد
تضرج وجهها ، ولكنها نبشت الموضوع في النهاية — وبجهد
بالغ — على هذا النحو : « أبنائي أخي بلن سوء الطالع حل بك
في الطريق يا كونت ، وانك لا تحمل الآن نقودا . فانذا كنت
بحاجة إلى شيء منها ، فهلا تقبله مني ؟ .. ان هذا كفيل بأن
يسرنني ! »

على أنها لم تكذ تقول هذا ، حتى تولاه خوف ميم ،
وتضرج وجهها . وغاض من وجه الكونت كل ابتهاج في الحال ،
وقال في جفاء : « ان أخاك أحرق ! .. انك لتعرفين أن الرجال
يتبارزون ، اذا هان أحدهم الآخر ، أما عندما تهين امرأة رجلا ،
فماذا تريه يفعل ؟ » . واشتد احمرار وجه « آنا فيدوروفنا »
المسكينة وعنقها ، لقرط ارتباكها . وغضت بصرها ، ولم
تنبس ببيت شفة . فقال الكونت في صوت خفيض ، وهو
يميل على أذنها : « انه يقبلها أمام الملا ! » . وارتد هامسا ،
بعد صمت طويل ، وهو يشفق على زميلته من الارتباك

« فاسمحي لي بأن أقبل يدك .. على الأقل ! »
 وأرسلت أنا فيدوروفنا زفرة طويلة ، وقالت : « ولكن ،
 ليس الآن ! »
 - متى إذن ؟ أتني بأجل في بكور انغد ، وانت مدينة لي
 بقبلة !

فقلت أنا فيدوروفنا ، وهى تبتسم : « إذن ، فالامر
 مستحيل ! »

- إن أطعك بأكثر من أن تتبخر لي لقاءك الليلة لأقبل يدك .
 وإن يعينني فتتأخر فرصة اللقاء !

فتساءلت : « وكيف ؟ » . فأجاب : « ليس هذا شأنك ،
 فكل شيء ممكن ، في سبيل ان أراك .. فهل نحن على اتفاق ؟ »
 . وأجابت : « على اتفاق ! » . وهنا كانت الرقصة قد
 انتهت ، فرقصا بعدها « المازوركا » ، وأبدى الكونت براعة
 فائقة في اختطاف المناديل ، والركوع على ركبة ، وصك مهمازيه
 - الواحد بالآخر - على طريقة لا يجيدها الراقصون في غير
 (وارسو) ، حتى أن المسنين من القوم ، تركوا جميعا ألعابهم ،
 وتقاطروا على قامة الرقص ليشهدوا الكونت .. واعترف
 الفارس المتقاعد - وهو أحسن راقصهم - بأن نجمه أقل
 التي جانب تالق الكونت ! .. وما لبثوا أن تناولوا العشاء ، ثم
 رقصوا رقصة « الجد » ، وأخذ الحفل ينفض بعد ذلك .

ولم يكن الكونت قد حول عينيه عن الارملة الصغيرة ، فما
 كان قوله عن استعداده لان يفوس خلال ثغرة بين الجليد من
 أجلاها ، محض مجاملة او تظاهر ! .. وسواء كان الامر نزوة ،
 او غراما ، او عنادا ، فإن كل قوى الكونت العقلية ، تركزت
 - في تلك الامسية - على رغبة واحدة .. ان يلتقي بالسيدة ،
 وان يطرحها الغرام ! .. وما أن لاحظ ان « أنا فيدوروفنا »

كانت تستأذن مضيفتها في الانصراف ، حتى هرع الى غرفة رئيس الخدم ، ثم جرى - بدون معطفه المصنوع من الفراء - الى قناء القصر ، فاتجه صوب المكان الذي وقفت فيه العربات ، وصاح : « مركبة آنا فيدوروفنا زايئسيقا ! » .. واذا بعربة « آلية » مغلقة ، ذات أربعة مقاعد ، تتحرك مقبلة صوب المدخل ، ومصايبها متقدة . فصاح بالجوذي : « قف ! » .. واسرع صوب المركبة ، وهو يخوض في الثلج حتى ركبته !

وسأله الجوزي : « ماذا تريد ؟ » .. فأجاب الكونت وهو يفتح باب المركبة ، ويحاول الصعود اليها وعلى سائره : « اريد ان اجلس بداخل المركبة . قف ! .. اننى آمرك ، أيها الاحمق ! » .. فصاح الجوزي في مساعده : « قف يا فاسكا ! » .. وجذب اعنقه الجيد ، ثم قال للكونت : « ماذا تبغى من انصعود الى مركبات اسير ؟ .. ان هذه مركبة مولاتي « آنا فيدوروفنا » ، وليست مركبة فخامتك ! » .. فقال الكونت : « صه ، أيها الفبي ! » .. هاك روبرل وانزل « افلق الباب ! » .. ولما تم بحر الجوزي حراكا ، رفع الكونت سلم العربة بنفسه ، وخفض زجاج النافذة ، وتحايل على افلاق الباب . وكانت للعربة ككل العربات القديمة - لا سيما تلك التي تسعمل فيها اشربة من انقصب الاصفر - معبقة برائحة فجذ ، كرائحة الوبر المحترق ، وكانت ساقا الكونت قد ابتلتا بالثلج حتى الرتبتيين ، فشمع بأنه مقرر ، اذ كان نعلاه خفيفين ، وسروال الكوكب منتفخا ، ومن ثم فقد نفذ برد الشتاء الى جسمه كله . وكان الجوزي يزمجر ، وقد بدا انه يتهاى للهرب من مكانه ، ولكن الكونت لم يسمع ولم يشعر بشيء .. كان وجهه يتأجج ، وقلبه يخفق سريعا .. وفي غمرة انفعائه العصبى ، أمسك بشرط النافذة الاصفر ، ومال الى الداخل - حتى لا يري خلالها - وقد انصرف بكل كيانه الى الترقب ! .. ولم يطل هذا الترقب ،

فقد اتبعث نداء من المدخل : « مركبة زايتميفا ! » ، فهز الحوذى أئنة الجياد ، وتمايل هيكل العربية على زبركاته المرتفعة ، وتتابعت نوافذ اندار المضيئة ، والمركبة تمر بها .

وهمس الكونت للحوذى ، وهو يطل عليه من النافذة الامامية : « تذكر أنتى سأسوطك اذا قلت لرئيس الخدم أنتى هنا . اما اذا عقلت لسانك ، فستظفر بعشرة روبلات أخرى ! » . وما ان أغلق النافذة ، حتى ارتج هيكل العربية بشدة ، ثم وقفت . وانكمش الكونت وازداد التصساقا بالركن ، وقد اسسك أنفاسه ، واغمض عينيه ، وقد اشتد به الخوف من ان يبدد شيء ما ذلك الترقب الذى كان يوجب عواطفه .. وما لبث باب العربية ان فتح ، فانخفض السلم درجة بعد أخرى ، فى جلبة . وسمع الكونت حفيف ثوب امرأة ، ثم شسم عير الياسهون يملأ جو المركبة فيطفئ على الرائحة الميجوجة التى كانت تشيع فيه .. وصعدت الدرج قدسان خفيفتان ، سريعتان ، ثم ارتمت « آنا فيدوروفنا » فى صمت الى جواره ، وقد احتك ذيل معطفها بساقه .. وكانت أنفاسها متهدجة ! وليس بوسع امرئ - حتى هى - ان يجزم بما اذا كانت قد رآته ، أو انها لم تره .. ولكنها أبدت ارتياحا ضئيلا عندما تناول يدها ، وقال : « الآن بوسمى ان اقبل يدك الصغيرة ! » .. ولم تحر جوابا ، ولكنها أسلمته ذراعها ، فراح يفمر الذراع بقبلاته ، الى ما فوق قفازا .

وتحركت العربية ، فقال : « قولى شيئا ! .. اغاضية أنت ؟ » فازدادت انكماشا فى ركنها ، وهى صامته ، على أن شيئا ما لم يلبث ان حملها على أن تنفجر بالبكاء فجأة ، وتركت رأسها بهوى على صدره ، من تلقاء نفسها !



« ٦ »

• كان قائد الشرطة المنتخب حديثا ، وضيوفه - الفارس المتقاعد وغيره من علية القوم - قد قضوا وقتا طويلا في الاصغاء الى أغاني الفجر ، وفي معاقرة الشراب ، في المطعم الجديد ، عندما لحق بهم الكونت ، وقد ارتدى معطفا مبطنًا بفراء الدب ، كان يوما لزوج « آنا فيدوروفنا » المتوفى . وقال له نوري (غجرى) ذو عينين شديديتى السواد ، وحولوين ، وقد سارع الى استقباله لدى المدخل ، والى معاونته على خلع المعطف ، وهو يكشف عن اسنانه البيضاء : « الحق اننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر ، يا صاحب السعادة ، فنحن لم نترك منذ سوق (ليديانى) .. ان ستيشكا لشديدة التلهف الى رؤيتك ! » وكانت « ستيشكا » نورية شابة ، رشيقة ، مياسسة القوام ، يتالق وجهها بلون كلون الطوب الاحمر ، وقد اوتيت عينين عميقتين ، براقنتين ، تظللها اهداب طويلة . وقد هرعت هى الاخرى لاستقباله ، متممة ، وهى تبسّم فى طرب : « آه ، يا كونتى الصغير ! .. يا حبيبى ! يا جوهرة ! .. يا للغبطة ! » .. وجرى يلبوسكا نفسه - زعيم الفرقة - لتحيته ، وقفزت المعجائز والزوجات والمدارى فاحطن بالضيف ، بعضهم يزعم انه « اشسين » لهن ، والبعض يزعم انه قد عقد وشاح الاخوة معهن .

وقبل «توربين» شفاه الشبايات ، بينما قبلت العجائز والرجال
 كتفه أو يده . وابتهج عليه القوم بوصول ضيفهم ، لا سيما
 وأن أشراب كان قد بلغ ذروته ، وبدأت بهجته تخبر ، كم
 بدأ كل امرئ يشغر بالاكتهاء .. فنقدت الخمر مفعولها المثير
 للأعصاب ، وأصبحت مجرد عبء يثقل المعدة . وكان كل امرئ
 قد أفرغ كل ما في جعبته من تهريج ، وشرع يسأم صحبة
 الآخرين .. وكانت الاغانى قد أقيت جميعا ، واختلطت في
 رأس كل فرد ، مخلقة ضجة وانحلالا .. ولم يعد كل امرئ
 غريب أو متهور يأتيه أى امرئ بذى قيعة ، بل بدأ يلوح نكل
 امرئ أن ليس ثمة شيء مستحب أو مطرب فيما كان يصدر
 .. وشرع قائد الشرطة ، الذى استلقى على الأرض عند قدمي
 امرأة عجوز - في حال مثيرة للدهشة - يحرك ساقيه في
 الهواء ، صارخا : « شامبانيا ! .. لقد اقبل الكونت ! ..
 شامبانيا ! .. لقد جاء ! .. هيا ، شامبانيا ! .. ساملا حوض
 الاستحمام بالشامبانيا واستحم بها ! .. ألقها للسادة النبلاء »
 اننى احب مجتمع طبقتنا الراقية العريقة .. غننا يا ستيشكا »
 وكان الفارس المتقاعد قد ثمل هو الآخر ، ولكن .. بشكل
 آخر . فقد جلس على أريكة في ركن من المكان ، ملتصقا بنورية
 حسناء طويلة ، تدعى « ليوباشا » . وقد راح يطرف بأهدابه
 - وهو يشعر بفشاة على عينيه - ويهز رأسه ، ويهمس
 مكررا كلامه مرارا ، متوسلا اليها أن تهرب معه ائى مكان .
 وكانت « ليوباشا » تنصت اليه مبتسمة ، وكان ما كان يقوله
 قد راق لها . ومع ذلك فقد بدا عليها شيء من الاسى ، وهى
 تنظر - من آن الى آخر - نحو زوجها « ساشكا » الاحول ،
 اللبى كان يقف خلف المقعد المواجه لها .. ثم مالت على الفارس
 المتقاعد ، وهمست في اذنه تساله - ردا على اعلانه الحب -
 ان يبتاع لها شيئا من العطر والاشربة .. في الخفاء !
 وصاح الفارس المتقاعد ، عندما دخل الكونت : « مرحى ! »

.. وكان الشاب انوسيم يذرع القاعة ذهابا وايابا بخطوات كان يعاني جهدا لكي تكون ثابتة ، وعلى سيماه آثار الضيق والهم ؛ وهو يترنم بلحن من أوبرا « السراجيو » . وكان نمة جد كهل - استدرجه الحاح عليه أنقوم عليه كي يأتي لسماع الفجر ، مؤكداين له ان الحفل بدونه يفقد قيمته - فاستلقى على أريكة لازمها منذ قدم ، دون أن يحفل به أحد . وكان نمة موظف بين أنجمع ، خلع سترته ذات الذيل الطويل ، وجلس فوق المائدة - رافعا قدميه إليها - وقد نشر شعره ، وانلهر بذلك أنه قد ثمل تماما . وما أن دخل الكونت المكان ، حتى فتح الموظف صدر قميصه ، وتزحزح الى وسط المائدة ! وقصارى تقول أن وصول توربين أنعش مجلس لشرب ، وتجمعت أخريات ثانية ، بعد أن كن يحسن خلال الحجرة ، وجلسن في دائرة .. واجلس الكونت الفنية الأولى «ستيشكا» على ركبتيه ، وأمر بعزف من الشهبانينا . وجاء « ايلينوشكا » فوقف أمام ستيشكا حاملا جيتاره ، وبدأ الرقص على أغاني النور : « عندما تنطلق في الطريق ، أيها الضابط الفارس ، اترك تسمع .. اترك تعلم ؟ » ، وما لي ذلك .. وكان غناء ستيشكا رائعا .. كان الصوت المرن الرنان - الذي انساب من أعماق صدرها - وابتسامتها المرافقة للغناء ، وعيناهما الضاحكتان الصارختان بالعواطف المشوية ، وقدمها التي كانت تتحرك - دون وعي - حركات رقيقة متسقة مع الإيقاع ، وصرخاتها الجامحة كلما بدأ المرددون (الكورس) برددون مقاطع الغناء .. كل هذه كانت تمس وترا قويا في القلب ، ولكنه نادرا ما يمس ! .. كان من اللجلى أن الثورية لم تكن تعيش إلا في جو أغنية .. وكان ايلينوشكا يعزف لها على الجيتار ، وظهروا ، وسافوا ، وبتسامته ، وكل كيانه يعبر عن انسجام مع الأغنية .. وقد راح يرقب الفتاة في شفق ، ويرفع رأسه ويخضعها وقد استغرق في الاغنية بكل تنبأه ، وكأنه

يستمع اليها لأول مرة . وما لبث - عندما بلغ آخر الانغام المشجية - ان اجتدل فجأة ، وكأنه يشعر بأنه أسعى من كل امرئ في الدنيا ، وانقضى جيتاره عند قدميه في زهو واعتداد ، وركلها ، ودق الأرض بقدمه ، وطوح شعره الى الوراء ، وتلفت الى الفرقة الموسيقية وهو عابس . ويلأ كل جسمه - من العنق حتى الكعبين - يرقص بكل عضل فيه .. وانطلق في الجو عشرون صوتا عاليا ، قويا ، حاول كل منها ان يبعث هتافا اشد واعجب من الأصوات الأخرى . واخذت اتعجائن يقمن ويهبطن على مقاعدهن ، بلوحات بمناديلهن ، تاشفات من أسبانهن ، تنافس كل منهن الأخريات في صيحانهن المنغومة ، ذات الأيقاع . واخذ اصحاب الأصوات المنخفضة المليئة بمدون اعناقهم ، وقد مالوا برؤوسهم جانبا ، وهم يهتفون ، بينما كانوا وقوا وراء المقاعد !

وعندما عادت « ستيشكا » ترفع عقيرتها بالغناء ، حمل ايليوشكا جيتاره الى قربها ، وكأنه كان يرغب في مساعدتها ، وصاح الشاب النبيل الوسيم قائلا انهم بدأوا « البيمول » (١) . وعندما حمى وطيس الرقص ، وتقدمت « دنياشا » تتلوى أمام الكونت ، وتنساب مقتربة منه ، وكثفاها وصدرها تهتز ، وثب « توربين » ، فخلع ستيرته ، وراح - في قميصه الأحمر - يخطو معها بخفة ، خطوات دقيقة ، متزنة ، متصفا بساقيه حركات أخذ الفجر يتسسمون لها باعجاب ، وهم يتبادلون أنظرات ! .. وجلس قائد الشرطة منتفحا كالديك الرومي ، يدق صدره بقبضته ، ويصيح : « فيفا ! » . ثم ألمع مساقى الكونت ، فشرع يعبر عن اعجابه قائلا انه لم يتبق له من الفى روبل سوى خمسمائة ، وأنه لعل استعداد لان يفعل بها ما يشاء الكونت ! .. واستيقظ رب الأسرة الكهل ، ورغب في

الانصراف ، ولكن أحدا لم يسمح له .. وبدأ الشاب الوسيم
بغرى إحدى التوريات بأن تراقصه « الفالس » . أما الفارس
المتقاعد ، فقد شاء أن يبين مدى مودته للكونت ، فنهض
واحتضنه ، قائلا : « آه ، يا صديقي العزيز .. لماذا تركتنا ،
هه ؟ » . وصمت الكونت ، وقد بدا أنه كان يفكر في ناحية
أخرى ، بينما استطرد الرجل : « ترى أين ذهبت ؟ .. آه ،
أيها الكونت الخبيث ، اننى لأعرف أين ذهبت ! »

ولأمرا ، ساءت هذه الالفة توربين ، فنظر الى وجه الفارس
المتقاعد في صمت ، دون أن يتنسم ، ثم رماه فجأة بسببة
فظيعة ، جافية ، تالم لها الفارس ، وظل برهة عاجزا عن أن
يقرر ما إذا كان يعتبر الإهانة مزاحا أو جادا ! .. وما لبث أن
قرر أن يحملها على محمل المزاح ، فابتسم ، وعاد الى
غجريته ، مؤكدا لها أنه لن يلبث أن يتزوج منها ، بعد عيد
الفصح ! .. وردد الفجر أغنية بعد أغنية ، ورقصوا ثانية ،
ثم هتفوا تلفيوف ، وكل واحد من هؤلاء سادس في أيام
نفسه بأنه كان يستمتع بما يرى ويسمع . ولم يكن للشمباتيا حد
أونهاية . وقد شرب الكونت كثيرا ، فأخذت فشاوة الخمر تتكاثف
أمام عينيه ، ولكنه لم يفقد اتزانه قط ، بل أنه راح يرقص أحسن
من ذى قبل ، ويتكلم بصوت ثابت النبرات ، بل وانضم الى
(الكورس) فراح يردد مقاطع الغناء باتقان ، عندما غنت
ستيشكا أغنية « أرقعواطف الصداقة » . وفي خلال الرقصة ،
أقبل صاحب المطعم فسأل الضيوف أن يعودوا الى دورهم اذ
كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا . وإذا « توربين »
يمسك به من قفاه ، ويأمره بأن يرقص الرقصة الروسية .
وأبى الرجل ، فأختطف زجاجة شمباتيا هدية بها ، حتى
اضطره الى أن يقف على رأسه ، وأمره بأن يظل في هذا الوضع
بين ضحكات الجميع ، ثم راح يفرغ الشمباتيا فوقه !
وبدا الفجر يتسلل ، فإذا الجميع شاحبو الوجه منهوكون

القوى ، ما عدا الكونت ، الذى لم يلبث ان قال وهو ينهض
فجأة : « حسنا ، لا بد لى من الرحيل الى موسكو ... هيا ،
جميعا ، تعالوا فشيّعونى .. وسنتناول معا بعض الشاي ! » ..
ووافق الجميع اللهم الا رب الاسيرة الكهل ، الذى بقى مستغرقا
فى نعاسه ، بينما تراحم الكل فى ثلاث زحافات كانت تقف
بالباب ، وانطلقوا صوب الفندق

« ٧ »



• صاحب الكونت وهو يدخل قاعة الجلوس فى فندقه ،
متنبوعا بضيوفه والفجر : « أعدوا الجياد ! .. ساشكا ! ..
ليس ساشكا الفجري ، وانما ساشكا تابعى .. قل نلمشرف
على مركز البريد اننى سأسوطه اذا أعطانى جيادا سيئة !
زهات شابا لنا .. تول تقديم الشاي يا زافالشيفسكى ،
فاننى ذاهب لالقى نظرة على ايلين ، وارى كيف حاته » ..
ومضى فى الردهة ، نحو غرفة الفارس الاوغلانى . وكان
« ايلين » قد قرع لتوه من اللعب ، وخسر آخر « كوكب » فى
جيبه ، فانكفا على الارىكة ، وراح يجندب شعرة اثر شعرة
من غطائها المصنوع من شعر الخيل - فيرفقها الى فمه ،
وينفضها حتى يشطرها ، ثم يعضها ! .. وعلى المائدة - التى
تناثرت فوقها أوراق اللعب - كانت تمة شمعتان تناضسلان

ضوء النهار ، الذى بدأ يتسلل خلال النافذة ، وقد احترقت احدهما حتى الورق الذى كان فى التجويف الذى اقيمت فيه .
 ونم تكن فى رأس « ايلين » فكرة واحدة ، فقد لفت حواسه غشاوة كثيفة من شهوة المقامرة .. حتى الندم ، لم يكن يشعر به . وبمثل محاولة واحدة ليفكر فيما ينبغى ان يفعل ، وكيف يرحل وهو مفلس ، وكيف يسدد الخمسة عشر ألفا من روبلات التاج ، وما الذى يحتمل ان يقوله قائد كتيبته ، وما الذى قد تقوله أمه وزملاؤه .. وشعر بجزع واشمئزاز من نفسه ، حتى انه - رغبة فى نسيان نفسه - نهض ، وراح يذرع الحجرة ، محاولا أن لا تهبط قدمه فى خطواته ، الا حيث تلتحم أخشاب الارض ، وبدا - من جديد - يتذكر بجلاء كل دقيقة من دقائق اللعب .. تمثل بجلاء كيف بدأ يكسب نقوده من جديد ، وكيف سحب « تسعة » ووضع « الروا انسباتى » على ألفى روبل . ووضع المشرف على (البنك) الورق ، فقال اليدين « دام » ، ونال اليسار « آيس » .. ثم « روا كبه » الى اليدين ، فإذا كل شيء يضيع . ولو قدر لليمين ان ينال « ستة » - مثلا - وان ينال اليسار « الروا الكبة » ، لقدّر له ان يكسب ، وللعبة مرة أخرى على ان يكسب انضعف او ينسحب من اللعب ، ولربح خمسة عشر الفاروبل ، ولا استطاع ان يتناع من قائد كتيبته جوادا « رهوانا » ، وزوجا آخر من الجياد ، ومركبة خفيفة « فايبتون » . ثم ، ماذا بعد ؟ ..
 كأن كل شيء يصبح بديعا ، رائعا ! .. وعاد الشاب ينطبع على الاربكة ، يعضغ شعر الخيل ! .. وراح يسائل نفسه : « لماذا تراهم يقفون فى الحجرة رقم ٧ ؟ لا بد ان ثمة شرابا عند توربين . اذهب واسكر ؟ »

وفى تلك اللحظة دخل الكونت ، فصاح : « ماذا ايها

الزميل ؟ هل جردت من كل مالك ؟ » . فقال ايلين لنفسه :
« سأتظاهر بالنوم ، والا فسيؤا اضطر الى أن أتحدث اليه ،
مع أنني أريد أن انام ! » . بيد أن توربين تقدم منه ، وربت
رأسه قائلا : « حسنا يا صديقي العزيز ، هل جردت من كل
مالك ؟ .. هل خسرت كل شيء ؟ .. أنبئني ! »

ولم يحجر « ايلين » جوابا ، فجذب الكونت ذراعه . واذ
ذلك تميم « ايلين » - في صوت ناعس ، غير مكترث ، مثقل
بالهم - دون أن يبدل من وضعه : « خسرت .. ولكن ،
ما شأنك أنت ؟ » . فصاح الكونت : « كل شيء ؟ » . وكان
الجواب : « أجل .. وما في ذلك ؟ .. كل شيء ، فقيم يهلك
الامر ؟ » . فقال الكونت وهو يميل الى الترفق ، تحت تأثير
الخمر التي شربها ، وقد ظل يربت شعر ايلين : « اسمع ،
صارحني بالحقيقة كرميل لك .. لقد تملكني ميل اليك ،
فقل لي الحق . اذا كنت قد خسرت نقودا تمت للتساج ،
فسانقذك من مازقك ، فإن الفرصة سرعان ما تفلت .. اكان
معك نقود للتاج ؟ » . فقفز ايلين ناهضا ، وقال : « حسنا ،
اذن .. اذاشتت أن أخبرك ، فلا تتحدث الي ، لانني ..
أرجوك ، لا تكلمني .. أن الحل للوحيد هو أن أطلق الرصاص
على نفسي ! »

وكان يأسه صادقا .. وهوى رأسه على راحتيه ، وانفجر
بأكيا ، رغم أنه كان - قبل لحظة - يفكر في الخيل بهدوء ..
وقال الكونت : « يا له من مسلك بديع ، كمسلك البنات ! ..
ابن الرجل الذي لم يفعل ما فعلته أنت ؟ .. انها ليست
تكبة بالغة ، ولعلنا نستطيع اصلاح الامر : انتظرني هنا ! »
وغادر الكونت الحجرة ، فسأل خدم الفندق : « أين حجرة
السيد لوخنوف ؟ » . وتطوع خادم بمرافقته اليها . ودخلها
الكونت ، رغم أن تابع لوخنوف الخاص أخبره بأن مولاه قد
عابذ لتوه ، وكان يخلف ثيابه .. ووجه الكونت جالسا الي

منضدة - وهو في ثوب الغرفة (الروب دى شامبر) - وقد راح يحصى عدة حزم من الأوراق المالية كانت ملقاة أمامه . وكانت على المنضدة زجاجة من « روم » الراين ، الذى كان جد مولع به ، فكان يسمح به لنفسه - بعد الكسب - على سبيل المنعة ! .. وتطلع « لوخنوف » فى فتور وعيوس - خلال عوينتيه - الى الكونت ، وكأنه لم يعرفه . فقال هذا ، وهو يخطو الى المنضدة فى اصرار : « احسبك لاتعرفنى ! » . فأبدى « لوخنوف » ما ينم عن معرفة ، وسأله : « وما الذى تبتغيه ؟ » . فأجاب توريين وهو يجلس على الأريكة : « أحب ان ألعب معك » . فهتف الرجل : « الآن ؟ » . واجاب زائرہ : « أجل »

- يسرنى ان ألعب معك فى وقت آخر يا كونت : اما الآن ، هاتنى متعب ، وسأوى الى فراشى . هل لك فى قبح من الخمر ؟ .. انه نبيذ مشهور !

- ولكننى أريد أن ألعب قليلا .. الآن !

- لست اعتزم للعب الليلة .. ربما رغب بعض السادة الآخرين ، أما أنا ، فلست أريد .. أرجو أن تعذرنى يا كونت ! - اذن ، فأنت تأبى ؟

وهز « لوخنوف » كتفيه ، ليعبر عن اسفه لعجزه عن انتصرف بما يرضى رغبة الكونت . بينما عاد هذا يتساءل : « أتأبى ، مهما تكن الاحوال ؟ » . ولم يتلق جواباً ، سوى الهزة نفسها . فقال : « ولكننى أرجو هذا ، بوجه خاص .. فهل تلعب ؟ » .. وكان الجواب صمتاً . فعاد يتساءل : « هل تلعب ؟ .. فكر ! » . ولم يجب الآخر بغير الصمت ونظرة سريعة - من فوق حافتي عوينتيه - الى وجه الكونت ، الذى بدأ يتجهم . فصاح هذا بصوت عال ، وهو يدق المنضدة بقبضته ، فيقلب الزجاجات ، ويريق الخمر : « هل تلعب ؟ .. أنت تعرف أنك لم تكسب عن حق .. هل تلعب ؟ اننى

اسالك للمرة الثالثة ! » . فاجاب لوخنوف ، دون ان يتطلع اليه : « قلت اننى لن لعب .. انه لامر عجيب حقا ، ياكونت . ثم انه ليس من انلائق اطلاقا ان تأتى ، فتسلط سكيننا على خلق رجل ! »

واعقب ذلك صمت اشتد فيه شحوب الكونت . وفجأة ، هوت على رأس «لوخنوف» ضربة ، اذهلت حواسه ، فوقع على الارىكة محاولا ان يمسك بالنقود ، واطلق صرخة مرتاعة مدوية ، ما كان احد ليتوقعها من رجل فى مثل هدوئه وورصاته . وجمع توربين ما كان على المنفسدة من نقود ، ودفع الخادم - الذى جرى لهونة سيده - عن طريقه ، وبارح الحجر فى خطوات سريعة . حتى اذا بلغ الباب ، التفت الى لوخنوف قائلا : « اذا شئت ترضية ، فانا فى خدمتك ! » . وكان كل ما سمع فى الحجر هو : « لص ! .. سارق ! .. سأستعدى القانون عليك ! »

ولم يكن « ايلين » قد حفل بوعد الكونت بان يساعده ، فظل راقدًا على الارىكة فى حجرته - كما كان من قبل - وهو يجهش ببكاء يائس .. ولم يبارحه ادراك حقيقة ما حدث له .. الادراك الذى استطاعت ملاطفات الكونت وعطفه ان تكشف عنه من بين المشاعر والافكار والذكريات المتشابكة ، التى كانت تملأ رأسه ونفسه .. لقد ضاع كل شيء تماما - شبابه الفنى بالامل ، وشرفه ، واحترام المجتمع ، واحلام الحب والصدقة ! .. وبدأ نبع دموعه يفيض ويضدق باطراد ، واخذت فكرة الانتحار تزدد الحاحا عليه ، ولم تعد تملأ نفسه استمزازا وجزعا .

واذ ذاك ، سمع خطوات الكونت الثابتة .. وكانت آثار انفضب لا تزال بادية على وجه توربين ، كما كانت يدها تهزان قليلا ، ولكن عينيه كانتا تفيضان بطرب رحيم ، وبرضى عن النفس .. وقال وهو يلقي على المائدة عدة حزم من

الاوراق الماية : « هاك .. لقد اكتسبناها ثانية ! .. تأكد من ان جميع نقودك هنا ، ثم أسرع وتعال الى قلعة الجلوس ! » ..
 ثم اردف : « فائني راحل نتوى »
 وكأنما لم يلمح الفرخ ، والعرفان ، والانفعال البالغ ، على وجه ايلين ، فسارح الحجرة وهو يردد بتفسير لجشام من الحان الفجر !

« ٨ »



• أقبل ساشكا - وقد أحاط خصره بحزام عريض - فاعلن ان الجياد معدة ، ولكنه اصر على وجوب استرداد معطف الكونت - الذي قال ان ياقته الفرائية كانت تساوي ثلاثمائة روبل - وعلى إعادة المعطف الازرق الباهت ، الذي كان الكونت يرتديه ، الى الشقي الذي تركه وأخذ معطف الكونت بدلا منه ، في قصر المارشال .. وما درى حقيقة الامر ، ولكن الكونت قال له ان لا حاجة هناك الى البحث عن المعطف ، ثم سار الى حجراته ليستقبل ثيابه • بينما استولى الفواق (الزغطة) على الفارس المتقاعد ، وهو يجلس الى جوار فتاته النورية .. وصباح قائد الشرطة يطلب « فودكا » ، ودعا الجميع الى ان يرباقوه ليتناولوا الفطور معه ، ممتنيا ايهاهم بأن زوجته

سترقص ولا بد مع الفجر . وكان الشاب النبيل الوسيم ، مستغرقا في حديث جاد مع « ايليوشكا » ، ليبين له ان ثمة روحا حقة في انغام البيانو ، وأنه من غير المستحب توقيع الانغام المنخفضة العميقة على الجيتار . أما الموظف ، فقد جلس واجما في احد الاركان ، يشرب الشاي ، وقد بدا - في ضوء النهار - مستحيا من سكره وتأثير الخمر عليه . وكان الفجر يتناقشون فيما بينهم - بلفتهم القومية - بصدد الهتاف ثانية لضيوفهم - على ما اعتادوا اذا ارادوا ان يختتموا فناءهم ورقصهم - فكانت ستيشكا تعارض ، قائلة ان « أنباروردي » - وهي في اللغة النورية ترادف « كونت » او « أمرا » ، او على الادق : سيدا عظيما - خليق بان يفضب للملك . وكانت آخر جهرات « هبث تخمد في نفوس الجميع ، بوجه عام !

وقال الكونت وهو يلج قاعة الجلوس - في ثياب السفر - وقد تجدد نشاطه ومرحه ، وبدا أجمل من ذي قبل : « حسنا ، لنسمع أغنية وداع ، ثم ينطلق كل منا في طريقه ! » . فكون الفجر حلقتهم من جديد ، وكانوا على وشك ان يبدأوا انغناء ، حين دخل « ايلين » ، وفي يده حزمة من الاوراق المالية ، فانتحى بالكونت جانبا ، وقال : « لم يكن معي من نقود التاج سوى خمسة عشر ألف روبل ، ولكنك اعطيتني ستة عشر ألفا وثلاثمائة .. فهالك المبلغ الزائد ! »

— هذا بديع ، هاته !

واعطاه « ايلين » النقود ، ونظر اليه في استحياء ، ثم فتح شفتيه ليقول شيئا ، ولكنه لم يتكلم ، بل تضرع وجهه ، وعبادت الدموع الى عينيه ، وامسك بيد الكونت واخذ يشد عليها . فقال هذا : « عليك بالرحيل ! .. اسمع يا ايليوشكا ! هالك بعض المال لكم ، على ان ترافقوني بالاغاني الى خارج البلدة ! » .. وطوح بالالف وثلاثمائة روبل - التي احضرها اليه

ايلين - فاستقرت على الجيتار . ومع ذلك ، فقد نسي الكونت ان يرد المائة روبل التي كان قد اقترضها من الفارس المتقاعد ، في اليوم السابق !

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وقد اشرقت الشمس فوق سطوح المنازل ، وبدأ الناس يروحون ويغدون في الطرقات ، وقد فتح أصحاب الحوانيت ابوابهم منذ فترة ، وانطلقت عربات وجهاء القوم وكبار الموظفين تجوس خلال انطربات ، واقبلت السيارات على انسوق .. وقصاري القول ، كان النشاط قد دب في المدينة ، حين خرج الفجر - بكامل فرقته - وقائد الشرطة ، والفبارس المتقاعد ، والنيبيل الوسيم ، وايلين ، والكونت - في المعطف الازرق المبطن بفراء الدب - الى باب الفندق .. وكان النهار مشمساً ، وقد اخذ الجليد في الدوبان . واقبلت على ائباب ثلاث زحافات كبيرة - من زحافات البريد - تجر كلا منها ثلاثة من الخيل عقدت ذيولها .. وصعد الى الزحافة الاولى : الكونت وايلين ، وستيشكا ، وايليوشكا ، وساشكا تابع الكونت . وكان «بلوخر» يهز ذيله ، وينبج في الجياد . وصعد بقية السادة الى الزحافتين الاخرتين ، ومعهم سائر الفجر نساء ورجالا . وما ان انطلقت الزحافات ، حتى بدأ لاغجر يعزفون ويغنسون .. واختلط غناؤهم باجراس الزحافات ، فكانت المركبات الاخرى تندفع نحو الارصفة ، مفسحة الطريق للموكب ، الذي اندفع خلال البلدة ، ميمما شطر ابوابها الخارجية .. ولم تبد الدهشة على اصحاب الحوانيت والمارة الذين لم يكونوا يعرفون القوم - فما بالك بمن كانوا يعرفونهم ! - اذ راوا هؤلاء الوجهاء يجوسون خلال الطرقات في وضوح النهار ، مع النوريات ، ومع انسكارى من رجال الفجر ، وهم يغنون .

وعندما اجتازوا ابواب المدينة ، توقفت الزحافات ، وشرع كل امرئ يودع الكونت . واستولي حزن مفاجيء شديد على

« ايلين » - الذى كان قد أسرف في الشراب ، وقاد انزحافة بنفسه - فراح يلحف على الكونت أن يبقى ليوم آخر . حتى اذا وجد أن الأمر غير ممكن ، اندفع فجأة الى صديقه الجديد ، فقبله ، ووعدته - ودموعه تجرى - بأن ينتقل الى كتيبة الفرسان الخفيفة ، التى كان انكونت فيها ، بمجرد عودته الى قيادته . ولكن الكونت شديد المرح فوق عادته ، فدفع الفارس المتقاعد - الذى ازدادت لغته في الصباح - وألقى به في بركة من الجليد الذائب .. وأطلق « بلوخر » على قائد الشرطة ، واحتوى « ستيشكا » بين ذراعيه ، وود أن يحملها معه الى (موسكو) . ثم قفز أخيراً الى الزحافة ، واجلس بلوخر الى جواره . وقفز « ساشكا » الى جانب السائق ، بعد أن كرر رجاءه للفارس المتقاعد كى يستعيد معظم الكونت ويرسله اليه .. وصاح الكونت : « انطلق ! » ، ثم خلع قلنسوته ولوح بها فوق رأسه ، وأرسل صغيراً يستحث به الجياد ، كما يفعل حوذية محفات البريد ، فانطلقت الزحافات .

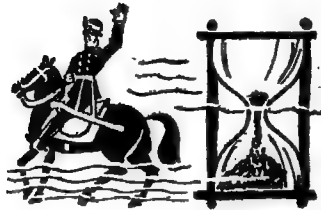
وكان السهل مغطى بالجليد ، وليس فيه من المناظر ما يدفع السأم ، وقد تمرجت خلاله طريق قدرة يميل لون اديمها الى الصفرة . وكانت أشعة الشمس المشرقة - التى راحت تنعكس على الجليد الذائب ، في بريق يعاين العيون في دلال - ذات دفء مستعذب ، يسرى في وجه المرء وظهره . وأخذ البخار يتصاعد كثيفاً من انجياذ التى بعث الجهد في أجسادها دفءاً .. وراحت أجراس المحفة تصلصل في مرج . وكان ثمة فلاح يقود محفة مثقلة بالأحمال ، فأسرع يدفعها بعيداً عن الطريق ، وهوينثر الماء أثناء خوضه برك الجليد الذائب بعداءه المصنوعين من لحاء أشجار .. وفي محفة أخرى - مثقلة بالأحمال - تجلست فلاحه سمينة ، ذات وجه أحمر ، وفد دست طفلاً رضيعاً في صدر مغطفها المصنوع من جلد الفقم ، وراحت تستحث جواداً أبيض ، هزيل الذيل ، مكدوداً ..

وخطرت « آنا فيدوروفنا » فجأة بذهن الكونت ، فصاح :
 « ارجع لانية ! » . ولم يفقه لأخوذى غرضه ، فعاد يصيح :
 « عد ثانية .. إلى المدينة ! اسرع ! » . واجتازت الزحافة
 أبواب المدينة من جديد ، واندفعت مسرعة إلى الأبواب
 الخشبية لدار « آنا فيدوروفنا » . وطوى الكونت سلم الدار ،
 واجتاز البهو ، ومرق خلال حجرة الجلوس ، حتى إذا وجد
 الأرملة لا تزال نائمة ، احتواها بين ذراعيه ، ورفعها عن السمر ،
 وقبل عينيهيها الناعستين ، ثم هرع عثما . ولمقت « آنا
 فيدوروفنا » شفتيها ، وهي وسنانه ، وتمتمت : « ما الذي
 جرى ؟ » .. وكان الكونت قد قفز إلى محفته ، وصاح في
 السائق ، فانطلقت به المحفة .. وغادر بلدة (ك ...) إلى
 الأبد ، وقد خلا فكره من كل شيء عن « لوخنوف » ، والأرملة ،
 و « ستيشكا » ، ولم يعد يشغله سوى .. ارتقاب ما كان
 ينتظره في (موسكو)



« ٩ »

• وانقضى أكثر من عشرين عاما ، سالت خلالها ميساه
 كثيرة ، ومات خلالها اناس كثيرون ، كما ولد خلق أكثر ..
 وشب كثيرون واكتهل كثيرون .. وولد مزيد من الآراء
 الجديدة ، ثم ذوى ومات .. وفنى الكثير من القديم الذي
 كان جميلا ، والكثير من القديم الذي كان رديئا .. ونسا
 كثير مما كان جميلا وحديثا ، كما ظهر في دنيا أكثر منه
 مما كان فجأ ، وفظيما ، وجديدا .. وكان « الكونت فيدور
 توريين » قد قتل منذ أمد طويل ، في مبارزة مع رجل
 اجنبي كان الكونت قد جلد بسوط الخيل في عرض الطريق



وصار ابنه - الذي كان يشبهه في تركيبه البدني ، كمانثبيه قطرة الماء اختها - شابا مليحا في الثالثة والعشرين من عمره ، يخدم في فرقة « الحرس الفرسان » . على أن « توربين » الصغير لم يحرز اقل شبه بآبيه ، في الناحية الخلقية ، فلم يكن به ظل من النزوات الوقحة ، المشبوبة ، بل المنحطة - أن شئت الصراحة - التي امتاز بها الجيل المنقرض . ولكنه ورث - الى جانب الذكاء ، والثقافة ، والفطرة الموهوبة - حبا للثراء والرفاهية ، ونظرة عملية الى الرجال والاعمال .. وكان المتعقل والحكمة هما أكثر صفاته المميزة . وقد مضى : تكونت الشاب قدما في السلك العسكري ، فكان « ملازما أول » وهو في الثالثة والعشرين . حتى اذا بدأت الحرب ، هداه فكره الى أن ترقبته تصبح أكثر احتمالا ، اذا هو انتقل الى الجيش العامل ، ومن ثم فقد التحق برتبة « كابتن » باحدى كتائب الفرسان الخفيفة ، وسرعان ما أصبح قائد فصيلة . وفي مايو سنة ١٨٤٨ ، كانت كتيبة الفرسان « ... » تتحرك خلال اقليم (ك...) في حملة ، وقد صدرت الاوامر للفصيلة التي كان يقودها الكونت توربين الشاب - بالذات - بأن تقضي ليلتها في قرية (موزوفكا) ، التي كانت من أملاك « آنا فيدوروفنا » .. وكانت « آنا فيدوروفنا »

لاتزال على قيد الحياة ، ولكنها كانت قد بعدت عن الشباب كثيرا ، حتى انها لم تعد ترى نفسها شابة ، وهو امر يصعب على اية امرأة أن تعترف به ! .. وكانت قد اصبحت مفرطة السمينة ، مما يقال أنه يجعل المرأة تبدو اصغر سنا . ومع ذلك فقد تخللت سميتها البضة تفضينات عميقة ، ناعمة ! .. ولم تعد تذهب الى البلدة قط ، فقد أصبح الصعود الى عربتها جهدا مضنيا لها .. بيد انها ظلت رقيقة القلب ، غبية كعصدها من قبل .. افقدت من تمكن المرأة أن يقول الحق ، بعد اذ لم يعد جمالها يستهوي الرؤ !

وكانت انتهت « ليزا » .. التي بلغت الثالثة والعشرين من عمرها - تعيش معها ، وهي حسناء رقيقة روسية .. كما كان اخوها - صاحبنا الفارس المتقاعد - يقيم معهم بعد اذ يدد ثروته الصغيرة ، عن طيب خاطر ، فوجد في دار آنا فيدوروفنا « مقاما في كهولته . وكان شعره قد أصبح اشيب ، وقد غاصت شفته العليا وتجمدت ، وان ظل الشاربان اللذان كانا يعلوانها يلقيان عنابة ، ويصبغان باللون الاسود .. ولقد انحنى ظهره ، ولم تقتصر التفضينات والتجاعيد على جبينه وخديه ، وانما شملت انفه وعنقه كذلك .. غير أن مسلك الفرسان ظل باديا في حركات ساقيه الكيليتين الموجهتين ! وجلست الاسرة وأهل البيت - في ذلك اليوم - في حجرة الجلوس الصغيرة ، ذات الباب المقضى الى الشرفة ، وذات النوافذ المظلة على الحديقة العتيقة - المنسقة على شكل نجمة - واشجار الموالح فيها . وكانت « آنا فيدوروفنا » الشيباء ، تجلس على الارىكة في ستره بنفسجية اللون ، وقد اخذت ترتب أوراق اللعب على منضدة مستديرة من خشب « الموجنى » .. اما اخوها المسن ، فقد استقر - في سروال (بنطون) ابيض نظيف ، وسترة زرقاء - الى جوار النافذة ، وقد راح يجلس حبلا من القطن الابيض بمصونة شسوك

خشبية .. وهى ملهاة علمته اياها لجنة اخته ، فاجبتها كثيرا ،
لانه لم يعد يقوى على شىء آخر ، كما ان عينيه كانتما قد
ضعفتا فلم تعودا تمكنانه من قراءة الصحف ، وهى هوايته
المفضلة . وكانت « ييموشكا » - وصيفة آنا فيدوروفنا -
تجلس الى جواره تستذكر درسا ، و « ليزا » تساعدنا ،
وتنسىج - فى الوقت ذاته - جوربين من صوف الماعز لخالها ،
بابرتين من الخشب . وكانت أشعة الشمس الجائحة للمغيب ،
تشعل - كمادتها فى مثل هذه الساعة - خلال أشجار
المراح ، وتلقى أضواء خفيفة على النافذة القصى وما الى
جوارها . وكان الهدوء يسيطر على الحديقة والحجرة ، حتى
لقد كان يوسع المرء ان يسمع حفيف جناحى عصفور خارج
النافذة ، وزفرات آنا فيدوروفنا ، وانين الرجل المسن وهو
يرفع ساقا ليسندها الى الساق الاخرى .

وقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تستريح من ترتيب أوراق
اللعب : « كيف يسر النسيج ؟ .. ارىنى يا ليزا ، فانى انسى
دائما ! » .. وسارت اليها « ليزا » - دون ان تكف عن حيك
الصوف - واقتت نظرة على أوراق اللعب ، وقالت : « لقد
افسدت نظامها يا اماء ! » . وعكفت على ترتيبها وهى تقول :
« هكذا يجب ان تكون ، ولن يعرقل هذا استطلاعك الحظ
خلالها ! » . فقات الام : « لا بأس ، لا بأس ، انتها الهرة
الماكرة ! ولكن ، اليس هذا وقت الشاى لا » . فقات الفتاة :
« لقد امرت بايقاد نر الغلاية (الساموار) ، وسارى ماذا
تم . اتريدين ان تتناولى الشاى هنا ؟ .. هيا يا ييموشكا .
اسرعى وافرغى من درسك ! » . واسرعت « ليزا » الى
الباب ، فصاح خالها ، وهو ينعم النظر فى شوكة الخشبية
« ليزا .. ليزى ! اعتقد اننى افلت غرزة ، فالتقطيها لى
با عزيزتى ! »

— ساتى حالا .. يجب أولا ان اعطيهم قمعا من السكر ليكسروه !

وصدقت في رعدھا ، فما لبثت ان عادت مهرة بعد ثلاث دقائق ، وقرصت اذن خالھا ، قائلة وهى تضحك : « هذا جزء افلات الغرز ! » . فقال خالھا : « حسنا ، حسنا ، يا بأس .. اصلحيھا .. هناك عقدة صغيرة ! » . فتناولت « ليزا » الشوكة ، وسحبت دبوسا من شعرھا ، الذى عث به بالنسيم قليلا ، اذ انسحب خلال النافذة — والتقطت به الفرزة ، واصلحت الخيط ، ثم ردت الشوكة الى خالھا ، تالة له ، وهى تقدم له خدھا الوردى ، بينما كانت تعيد دبوس الى شعرھا : « الآن ، اعطنى قبلة مقابل ما فعلت . » . ينتظر بعض « الروم » مع الشاي اليوم ، فهو يوم الجمعة انھا تعلم ! » . وسارت الى حجرة الشاي ، ثم صاحت من هناك بصوتھا الصاقي : « تعال وانظر يا خالى ، ان الفرسان نادمون ! » .. فخفت « آنا فيدوروفنا » مع أخبھا الى حجرة الشاي — التى كانت نوافذھا تطل على القرية — لتري الفرسان . ولم يكن ما بدا خلال النوافذ كثيرا ، بل تمثل كله في حشد يسير وسط غلالة من الغبار . فقال الرجل المسن لاخته : « من المؤسف ان تكون حجراتنا صغيرة يا اختاه ، ان الجناح الجديد لم يكتمل بناؤه ، والا لاستطعنا ان ندعو الضباط . فان ضباط الفرسان الخفيفة من ابدع الشباب وابهمهم ، وكانت رؤيتهم كقبلة بان تشرح الصدر ! » . فقالت آنا فيدوروفنا : « كم كنت أسر بهذا يا شقيقى ، ولكنك تعرف اننا لم نؤت غروفا كافية . فهناك مخدع ، وحجرة ليزا ، وحجرة الجلوس ، وهذه الحجرة ، وحجرتك .. وهذا كل ما هناك ! .. فاین ترانا كنا ننزلهم ؟ .. لقد نظف كوخ شيخ القرية لايوائهم ، ويقول ميخائيل ماتفييف انه اصبح تام النظافة ! »

— كان اتزالهم هنا كفيلا بأن يمكننا من أن نختار زوجا منهم لك ياليزى .. فارس بديع من الكتيبة الخفيفة !
— لست أريد فارسا من الكتيبة الخفيفة ، وأفضل عليه فارسا من « الأوغلان » .. ألم تكن أنت من « الأوغلان » باخالى ؟ .. لاشان لى بفارسان الفرقة الخفيفة ، اذ يقال أنهم جميعا مفسدون !

زاحمر وجهها قليلا ، واطلقت ضحكة كأنغام الموسيقى .
ثم أردفت : « هاهى ذى اوستيوشكا تقبل مهرعة ، فلنسألهما عما رأت » . وسألتها أنا فيلدوروفنا أن تدمو اوستيوشكا ، فلما أقبلت هذه ، بادرتها قائلة : « لا قبل لك بأن تنصرفى الى عمك ، فليس بوسعك أن تستغنى عن الجرى لترى الجنود .. اين نزل الضباط ؟ » . فأجابت الخادم : « فى بيت ابرومكين يا مولاتى ، انهما ضابطان .. ما املحهما ! .. يقال أن أحدهما كونت ! » . فسألتها أنا فيلدوروفنا : « وما اسمه ؟ » .
وأجابت الفتاة : « كازاروف ، او توربينوف .. يؤسفنى ان نسيت ! »

— ما اغباك ! .. اليس بوسعك أن تنبئينا بشئ ذى قيمة . كأن خليقا بك أن تعرفى الاسم على الأقل !

— حسنا سأجرى الى هناك ثانية .

— اعرف انك ماهرة فى هذا .. لا ، دعى دانييل يذهب .. قل له يا اخى ان يسأل عما اذا كان الضابطان فى حاجة الى شئ ، فمن الواجب اظهار بعض المجاملة لهما ، على أية حال .
دعه يقول أن سيدة الضيعة أوفدته للسؤال عنهما !

وجلس الشقيقان المسنان فى حجرة الشاي ، بينما ذهبت « ليزا » الى غرفة الخدم لتضع السكر الذى تم تكسيره فى الصندوق . وكانت اوستيوشكا هناك تحدث

الخدم عن الفرسان ، فما ان رأتها حتى همست : « يا هذا الكونت من رجل مليح يامولاتي الحبيبة ! .. ملاك ذو حاجبين أسودين . ولو قدر لك زوج مثله ، لكنكما زوجين متلائمين » وابتسمت الخادومات الاخريات محبسات ، بينما تنهدت المريية المعجوز ، وهي تقوم ببعض التطريز الى جوار النافذة ، وراحت تدعو الله هامة ، بينما قالت ليزا لاوستيوشكا : « اذن فقد احببت الفرسان ! .. ما أبرعك في رواية ما رايت ! .. اذهبي واحضري شيئاً من عصير « الآس البري » ، لنعد للفرسان شيئاً يشربونه ! » . وانصرفت حاملة صندوق السكر ، وهي تضحك . ولكنها راحت تقول لنفسها : « ليتني ارى حقاً ذلك الضابط الفارس .. اهو أسمر ام أشقر ؟ وما أحسبه الا كان يسر بالتعرف اليها .. ولو انه رحل ، فلن يقدر له ابداً ان يعرف اني كنت هنا ، وانني فكرت فيه . وكم من أمثاله مروا على مقربة مني ؟ .. منذ الذي يراني هنا سوى خالي ؟ .. مامن احد يغتبط ان ما رأى الطريقة التي اعقض بها شعري ، او الثياب التي ارتديها ! » . وتنهدت وهي تتأمل ذراعها البضة الممتلئة ، ثم عادت تفكر : « أحسبه طويلاً ، واسع العينين ، ذا شاربين صغيرين ! .. وها انلئ هنا ، قد جاوزت الثانية والعشرين ، دون أن يقع احد في حبي ، اللهم الا ايظن آيانيشي الذي شوه العجدي شكله .. بل لئن كنت منذ أربع سنين اجمل مما انا اليوم .. وهكذا تمر أيام شبابي تكون ان اشرح صدر احد . فواه ، يالى من فتاة قروية مسكينة .. مسكينة ! »

وايقظ القروية المسكينة من أحلامها صوت أمها يناديهما لتصب الشاي في الاقداح ، فرفعت رأسها مجفلة ، وأسهرت الى حجرة الشاي .. وكثيراً ما تأتي خير النتائج عفواً ، بينما تأتي إفساد النتائج كلما ازداد المرء جداً . وفي الريف قل أن

يعنى الناس بتعليم اولادهم ، ومن ثم فهم يتيحون لهم -
دون ان يفطنوا - تعليميا بديعا . وقد كانت هذه حال «ليزا» .
اذ ان « آنا فيدوروفنا » - بذكائها المحدود ، واهمالها
الفطرى - لم تتح لها تعليم . . أى أنها لم تعلمها الموسيقى ،
ولا اللغة الفرنسية العظيمة النفع للفتاة . . ولكنها وقد
انجبتها عفوا - من زوجها الراحل - طفلة موفورة الصحة
والجمال ، فقد هيات لها مربية ومربية ، وألبستها خير
الثياب القطنية الموشاة بالزخارف ، وأخذية من جلد الماعز
واعتادت ان ترسلها لتتنزه فى الخلاء وتجمع النباتات الفطرية
والتوت البرى . . واستأجرت لها تلميذة من مدرسة الدير
لتعلمها القراءة والكتابة والحساب . . حتى اذا انقضى ستة
عشر عاما ، وجدت فى « ليزا » صديقة ، وانيسة رحيمة
القلب دائمة الانشراح ، وربة بيت نشيطة . ولما كتبت « آنا
فيدوروفنا » كريمة النفس ، فانها دائما ما كانت تاوى فى
البيت بعض الاطفال لتربيتهم . . سواء كانوا من ابناء العبيد
او من اللقطاء . وقد بلغت « ليزا » العاشرة ، بدأت تعنى
بهم ، فتعلمهم ، وتلبسهم ثيابهم ، وتصحبهم الى الكنيسة ،
وتكبحهم اذا أسرفوا فى اللعب المرهق . وعندما كبرت ، ظهر
على مسرح حياتها الخال الرقيق القلب ، المريج الساقين ،
الذى كان بحاجة الى من يعامله كطفل . . ثم اصبح الخدم
والفلاحون يأتون للسيدة الصغيرة بمطالوم العبيدة ،
وبأوجاعهم التى كانت الفتاة تعالجها بحب اللسان والتفان
والكافور . . وكانت هناك شؤون التدبير المنزلى التى القيت
على عاتقها من تلقاء ذاتها .

وبما ليثت ان استيقظ فى اعماقها جنين لم يلق رضاء . .
جنين الى الحب ، لم يجد منفئا له الا فى الطبيعة والدين .

فأصبحت ليزا أنثى نشيطة ، طيبة ، بشوشة ، معتمدة على نفسها ، طاهرة ، مميقة الدين ، . ومن الصحيح أنها كانت تتألم - بعض الشيء - من جراء غرور أنوثتها ، إذا ما رأت جاراتها يقفن بجوارها في الكنيسة ، مرتديات أحدث أنواع القبعات المجتلية من بلدة (ك...) ، وكانت تستاء أحيانا من نزوات أمها العجوز وزمجرتها ، الى درجة البكاء . وكانت تفرودها - كذلك - أحلام الحب ، في أكثر صوره سناجة واضحا . ولكن هذه الأحلام كانت تتهدد في نشاطها النافع الذي تحول الى ضرورة . فلما بلغت الثانية والعشرين من عمرها ، لم يكن قد تبقى في نفسها الصافية المطمئنة - نفس العذراء التي نمت بنفيا ونفسيا على أجمل صورة - أي أثر للندم أو الحسرة . . وكانت « ليزا » متوسطة الطول ، أقرب الى السمنة منها الى النحول ، ذات عيين في لون ثمار البندق ، ليستا بالواسعتين ، وقد خلق جفناهما السفليان مكحولين قليلا . كما كان لها شعر طويل الغدائر ، ذو لون بني فاتح . وكانت تسير في خطوات واسعة ، وهي تتمايل قليلا كالبطة . . كما يقولون ! أما وجهها ، فكان يبدو - عندما تكون مشغولة ، وغير منفعلة - وكأنه يقول لكل من ينظر اليه : « من المبهج أن يعيش المرء في الدنيا ، عندما يكون له من يوليه الحب ، وعندما يكون له ضمير صاف ! » . . حتى في لحظات الاستياء ، أو الحيرة ، أو الجزع ، أو الحزن كانت تتجلى في عينيها - بالرغم منها ، وبالرغم من الدموع التي تملأ عينيها وحاجبيها الأيسر العابس وشفتيها المزمومتين - نفس صريحة ، لم يفسدها عقل معوج . . كانت روحها الصافية تشع من غمازتي خديها ، ومن ركني فمها ، ومن العيين المضيئين اللتين اعتادتوا الابتسام والرضى بالحياة !



— (١٠) —

♦ كان الجو لا يزال حاراً، رغم أن الشمس جنحت إلى المغيّب
عندما دخلت الفصيلة قرية (موروزوفكا) ، ، وعدت أمام
الفرسان - في طريق القرية المثيرة - بقرة جامحة شردت
عن قطيعها ، فراحت تقف وتلتفت من آن إلى آخر ، وهي
ترسل خواراً ، دون أن يخطر لها ببال إطلاقاً ، أن خير
ما تفعله هو أن تتنحى عن الطريق . واحتشد الفلاحون -
شيوخاً ونساء وأطفالاً ، وخدمات من دار سيدة الضيعة - على
جانبى الطريق ، وراحوا يتأملون الفرسان في فضول ، بينما
كان هؤلاء يمسكون بأعنة جيادهم - التي كانت تدق الأرض ،
وتسهل أحياناً - وسط عاصفة كثيفة من الغبار . وإلى
يمين الفصيلة ، كان ثمة ضابطان استويا - في غير اكتراث -
على صهوتى جوادين أسودين بديعين . وكان أحدهما هو
« الكونت تودين » ، القائد . أما الآخر ، فكان شاباً في غضارة
الصبا ، رقى حديثاً من مرتبة الطلبة إلى مرتبة الضباط ، ويدعى
« بولوزوف » .

ومن أحسن نوح في القرية ، خرج فارس في سترّة بيضاء
من التيل ، فرفع قلنسوته ، وسار إلى الضابط . فسأله
الكونت : « أين المقر الذى خصص لنا ؟ » . فقال « جاويش

التعيينات» المشرف على مقام الفصيلة ، وقد شد جسمه كله : « لقد نظف الكوخ . شيخ القرية لسعادتكما . وقد أردت أن أنزلكما في دار سيدة الضيعة ، ولكنهم يقولون أن ليست هناك حجرات . إن صاحبة الزمام لثيمة ! » . فقال الكونت وهو يترجل أمام الكوخ شيخ القرية ، ويشد ساقيه : « لا بأس ! .. وهل وصلت مركبتى الخفيفة ؟ » . فأجاب « جاوئش التعيينات » ، مشيراً بقلنسوته الى الهيكل الجلدى لمعربة ظهرت لدى المدخل الخارجى للكوخ ، واندفعت الى بابه الداخلى الذى اصطف عنده أعضاء أسرة . شيخ القرية ليتأملوا الضابط : « ها هي ذى قد وصلت لتوها يا صاحب السعادة » . ودفع عجوزا من الواقات ، وهو يفتح بنشاط باب الكوخ الذى نظف حديثا ، ويخطو جانبا ليفسح المدخل للكونت

وكان الكوخ كبيرا ، واسعاً ، ولكنه لم يكن نظيفاً للغاية . وكان الوصيف الالماني - الذى كان يبدو في لباس السيد الراقى - يقف في الداخل ، يرتب الثياب في حقيبة كبيرة ، بعد أن اقام سريراً حديدياً ، وهياً الفراش . وهتف الكونت في استياء : « أف ! .. يا له من مسكن قذر ! ليس بوسعكم أن تعشروا على شيء أفضل ، في منزل أحد السادة ، ياد يادينكو ؟ » . فأجاب جاوئش التعيينات : « اذا رغبت يا صاحب السعادة فسأحاول مرة أخرى في بيت سيدة الضيعة . ولكنه لا يبدو أفضل من الكوخ كثيراً » . فقال الكونت : « لا بأس .. انصرف ! » . واستلقى على الفراش ، وقد عقد ذراعيه تحت رأسه . وما لبث أن صاح بوصيفه : « جوهان ! .. لقد تركت جزءاً عالياً في الفراش .. كيف لا تتقن اعداد الفراش كما ينبغي ؟ » . فأسرع جوهان كي يسويه ، ولكن الكونت قال : « لا ، دعه الآن » . وأردف في لهجة تنم عن عدم الرضى : « ولكن ، أين ثوب الفرقة ؟ » . فنأوله الوصيف « الروب دى شامبر » . فتأمله الكونت -

قبل أن يرتديه - وقال : « لقد توقعت هذا .. ان البقعة لم تنظف بعد . افهنالك خادم أسوأ منك ؟ » . وشد الثوب من يد الخادم ، وارتماه قائلا : « قل لي : اتتعمد هذا الالهة ؟ .. هل الشاي معد ؟ » . فقال جوهان : « لم يكن لدى وقت لاعداده » . فهتف الكونت : « يا لك من بليد ! » وتناول الكونت بعد ذلك رواية فرنسية وضعت خصيصا الى جوار فراشه ، فراح يطالع فيها بعض الوقت ، فيصمت ، بينما خرج « جوهان » الى الردهة ليعد الغلاية ، ولاح جليا أن الكونت كان سيء المزاج ، ولعل ذلك كان راجعا الى التعب ، والغبار الذي ران على وجهه ، والثياب المشدودة حول جسمه ، والمعدة الضاوية . فما لبث ان صاح ثانية : « جوهان ! احضر لي حسابا عن الروبلات العشرة . ما الذي اشتريته من البلدة ؟ » . وتأمل الحساب الذي قدم اليه ، وادلى ببعض ملاحظات نمت عن عدم اقتناع بالاثمان الباهظة ، ثم قال : « قدم بعض الروم مع الشاي » . فقال جوهان : « اننى لم اشتر (روم) ! » . فصاح الكونت : « هذا بديع ! .. كم من مرة نهنتك الى وجوب وجود الروم ؟ »

- لم يكن معنى كفاية من النقود

- اذن ، فلماذا لم يشتر بولوزوف قدرا منه ؟ .. كان يجب ان تحصل من خادمه على بعض النقود للروم !

- لست ادرى .. لقد ابتاع الشاي والسكر

- ياغبى ! .. اخرج ! .. انك الانسان الوحيد الذى يعرف كيف يجعلنى أفقد صبرى .. انك تعرف اننى اتناول دائما الروم مع الشاي فى الرحلات !

وكان حامل العلم « بولوزوف » قد اشرف على استقرار الفصيلة ، فاقبل بوجه مرخ . وقال : « كيف الحال يا توربين ؟ .. يبدو أن المكان هنا لطيف . ولكنى اصارحك بأننى جد متعب ، فقد كان الجو حارا » . فصاح الكونت : « لطيف !

.. كوخ رطب قلدر .. ولا (روم) بفضل سيادتك ، فان
 خادمك الفبنى لم يشتو شيئا ، وكذلك هذا الفبنى ! .. كان
 جلوس بك أن تتذكر ، على الأقل ! » .. وخرج حامل العلم
 الى الردهة ، حيث راح يهمنى لتابعه : « ولكن ، لماذا نشتري
 نحن كل شيء ؟ .. كأننا أنا المسئول عن دفع ثمن كل شيء ،
 في حين أن وصيفه الالماني لا يفعل شيئا سوى أن يدخن
 غليوله ! » .. وكان الكونت قد تسلم - في تلك الاثناء -
 خطابين من وصيفه ، قرأ الأول ثم كوره والقى به على الارض ..
 وبدأ أن الخطاب الآخر لم يخل من شيء لذلك ، إذ ابتسم وهو
 يقرأه ، فسأله بولوزوف ، وقد عاد الى الحجرة وشرع يعد
 لنفسه مرقدا على بضعة الواح خشبية : « من هذا ؟ »
 فأجاب الكونت مبتهجا ، وهو يسلمه الخطاب : « من ميننا ..
 أتريد أن تراه ؟ .. يا لها من امرأة لطيفة ! .. الحق انها
 أفضل بكثير من شابات طبقتنا الراقية .. أنظر مدى ما في
 هذا الخطاب من مشاعر وذكاء ! .. ليس به من عيب سوى
 انها تطلب نقودا ! » . فقال الضابط : « أجل ، هذا عيب ! »
 - من الصحيح اننى وعدتها ببعض المال ، ولكن هذه انحمة
 فاجأتنا ، كما ان .. ومع ذلك ، فسأرسل لها مبلغا ، اذا ظلت
 في قيادة هذه الفصيلة ثلاثة أشهر أخرى . لأنها تستحقه ،
 فهى فائنة !

وكان يراقب وجه بولوزوف وهو يقرأ الخطاب ، فما لبث
 هذا أن قال : « انه فظيع من الناحية النحوية ، ولكنه لطيف
 جدا ، ويلوح انها تحبك حقا ! » . فقال الكونت : « اممم ! ..
 اظنها كذلك ! لا يخلص في الحب سوى هذا الصنف من النساء ،
 اذا ما أحبت الواحدة منهن حقا ! » . فسأله الضابط الشاب :
 « وممن كان الخطاب الآخر ؟ » . وأجاب الكونت وقد بدا
 مستاء : « آه ، ذاك .. هناك رجل ، وغد سخيف ، كسب
 منى في القامرة ، فهو يذكرنى بالدين للمرأة الثالثة .. ولست

املك ان ادفعه في الوقت الحاضر ! »

وسادهما الصمت برهة ، كان حامل العلم — الذي بدا خاضعا لتأثير الكونت وسلطانه — يلقي نظرات على اسرارير توربين الوسيعة ، المكفهرة .. وما لبث هذا ان قال ، وهو يحتسى الشاي : « ولكن ، أعترف ان الامر قد يتحسن تحسنا جوهريا .. فلو اننا حصلنا على ترقية — بحكم الاقدمية — في هذه السنة ، واشتركتنا — الى جانب ذلك — في بعض العمليات ، فأننى قد أسبق في الترقية من يتقدموننى في الخرس » .

وكان الحديث لايزال يدور حول هذا الموضوع ، عندما اقبل الشيخ « دانييل » ، وأبلغهما رسالة آنا فيدوروفنا ، ثم أردف من تلقاء نفسه : « وقد كلفت كذلك بأن أسأل عما اذا كنت ابن الكونت فيدور ايغانيتش توربين ؟ » .. وكان يعرف اسم الكونت ، ويذكر زيارته لبلدة (ك ...) . وعقب قائلا : « لقد كانت مولاتنا آنا فيدوروفنا على تغارف وثيق به ! » .

فاجاب الكونت : « لقد كان أبى .. وقل لمولاتك اننى جدد مهتم لها ، ولسنا نريد شيئا ، ولكن .. قل اننا كلفناك بأن تسأل عما اذا كان من الممكن ان نظفر بغرفة انظف من هذه ، فى أى مكان .. فى منزل الضيعة ، أو أى مكان ! »

وقال له بولوزوف ، بعد انصراف دانييل : « لماذا فعلت ذلك ؟ ماذا يهمنى ؟ — اننا لن نمكث سوى ليلة واحدة .. وقد يضابقون انفسهم من أجلنا » . فصاح الكونت : « يا لتفكيرك ! اعتقد اننا أخذنا حظنا من الإقامة فى الاكواخ المقدرة ! .. من السهل ان يرى المرء انك لست عمليا . لماذا لا تقتنص الفرصة عندما يكون ذلك فى وسعنا ، فنعيش كالادميين ، ولو الليلة واحدة ؟ .. انهم — على العكس — سيسرون جدا بأن يستضيفونا .. وأسوأ ما فى الامر ، ان تكون هذه السيدة قد عرفت أبى حقا ! » . وابتسم كاشفا عن أسنانه اللامعة ، وهو يقول : « اننى أشعر دائما بالخجل

من المرحوم أبى ، ففى كل مكان قصة فاضحة ، او دين لم يسده . ولهذا أكره أن التقي بمعارفه . على أن هذا كان سائدا فى أيامه » . فقال بولوزوف : « هل أخبرتك يوما بقصة قائد لواء « اوغلانى » يدعى « ايلين » ، التقيت به مرة ؟ . . لقد كان تواقا لان يراك ، فهو يحببناك كل الحب ! » - اعتقد انه امعة . . . ولكن أسوأ ما فى الامر هم هؤلاء الاكابر الذين يؤكدون لى انهم كانوا يعرفون أبى ، ثم يروون عنه - وهم يتظاهرون بالتفكه - قصصا تجعلنى أخجل ! . . من الحقيقى أنه كان ذا طبيعة جامحة ، وكان يأتى - أحيانا - أعمالا غير لطيفة . ولكن هذا كان مسلكا شائعا فى أيامه . ولو كان فى أيامنا ، لكان من المحتمل ان يصبح رجلا ناجحا كل النجاح ، فمن الانصاف ان نعرف بأنه كان ذا مواهب خارقة ! وأن هو الا ربع سامة ، حتى عاد الخادم برعاء من مالكة الضيعة ، أن يتكرم الضابطان فيقضيا الليلة فى دارها .

== (١١) ==

« ما لن سمعت « انا فيدوروفنا » ان ضابط فضيلة الفرسان الخفيفة كان ابن الكونت فيلور توريين ، حتى استخفها الطرب ، وراحت تقول : « واعجبا ! . . يا للفتى الحبيب ! . . اهرع يا دانييل ، انقل ان مولاتك تدعوهم الى دارها ! » . . وقفزت مسرعة الى غرفة الخدم ، وهى تصيح : « ليزى ! . . اوستيوشكا ! يجب اعداد حجرتك يا ليزا ، وبوسعك ان تنتقل الى غرفة خالك . وما لرى لديك مانعا يا أخى من أن تنام الليلة فى حجرة الجلوس . . الليلة واحدة ! » - لست احفل يا أختاه ، فبوسعى ان أنام على الارض ! وقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تروح وتغدو : « لا بد من أن يكون جميلا ، اذا صح أنه يشبه أباه . لكم اتعنى ان أراه ،



هذا العزيز ! .. يجب ان تتأمله جيدا يا ليزا ، فلقد كان ابوه
جميلا .. الى اين تأخذين هذه المنضدة ؟ .. دعيها هنا ،
واحضري سريرين .. خذى واحدا من حجرة رئيس الخدم ،
واحضري الشمعدان البلورى .. وضعى شمعا من النوع
الجيد ! .. واخيرا ، تم اعداد كل شيء ، ونسقت « ليزا »
الحجرة للضابطين وفق هواها ، رغم تدخل امها . فنشرت
على الفراشين اغطية نظيفة معطرة ، ووضعت شموعا وقنيئة
ماء على منضدة قريبة منهما ، ونقلت سريرها الى خجرة
خالها . وهذات آنا فيدوروفنا بعض الشيء ، فجلست في
مقعدها ، وعادت الى اوراق اللعب ، ولكنها بدلا من ان تستقرئها
الحظ ، اسلمت رأسها الى راحتها ، وقد اسندت مرفقها
الى المنضدة ، واستسلمت للتفكير ، وهى تهمس لنفسها :
« آه ، يا للزمن ! .. ما اسرع ما يطير ! ألم يكن ذلك منذ امد
بعيد ؟ ومع ذلك فاني اكاد أتمثله الآن ! .. كان ارعى ! » .
وتبادرت الدموع الى عينيها ، واستطردت تحدث نفسها :
« وها هى ذى ليزى الآن .. ولكنها ليست كما كنت فى
سنها .. انها فتاة بديعة ، ولكنها ليست كما كنت .. »
ثم رفعت صوتها قائلة : « ليزا .. يجب ان ترتدى ثوبك
« الموسلين » الليلة ! » . فقالت الفتاة وهى لاتمالك نفسها ،

لمجرد التفكير في انها ستلتقي بالضابطين : « لماذا ياماه ؟ ما اراك ستدعينهما للجلوس معنا ؟ .. يحسن ان لاتفعلى ياماما ! » ..
والحق ان رغبتهما في رؤيتهما كانت اقل من توجسها من الانفعال الطروب الذى تصورت انه يرتقبها . ولكن آنا فيدوروفنا قالت وهى تربت راسها : « ربما رغبنا هما في ان يتعرفا الينا ياليزى ! » . وقالت لنفسها : « لا ، ان شعرها ليس كشعرى حين كنت فى سنها .. اواه ياليزى ، لكم اتمنى لو انك .. » .
وكانت تتمنى مخلصه شيئا ما لابنتها . ولكنها لم تملك ان تتصور ان يكون هذا الشيء زواجا من « كونت » ، ولم تكن ترغب لابنتها علاقات كذلك التى كانت بينها هي وبين الاب ..
ومع ذلك فقد ظلت تتمنى فى لهفة شيئا ما ! .. ولعلها كانت تتوق الى ان تبعث فى نفس ابنتها ما خبرته هى مع الاب الذى مات !

وكان الفارس الكهل منعلا هو الآخر ، لمقدم الكونت ، فحبس نفسه فى غرفته ، ثم خرج بعد ربع ساعة فى سترة مجسرية ، وسروال (بنطلون) ازرق فاتح ، ودخل الحجرة التى اعدت للزائرين ، وقد غشيه سرور مستحى كذلك الذى يغشى الفتاة حين ترتدى ثوب سهرة للمرة الاولى فى حياتها .
ثم قال : « سأنظر كيف هم فرسان الفرقة الخفيفة اليوم با اختاه ! .. لقد كان الكونت المرحوم فارسا حقا ، ومثلا للفرقة ! سترى ! »

وصل الضابطان الى الحجرة التى افردت لهما ، عن طريق المدخل الخلفى . فهتف الكونت وهو يستلقى - بشبابه وحلأويه - على السرير الذى امد له : « هاك ! ارايت ؟ .. ليس هذا افضل من الكوخ بصراصيره ؟ » . فاجاب بولوزوف : « هلم افضل طبعاً ، ومع ذلك .. ان نصبح مدينين لصاحبة

الزمام .. » . فقاطعه الكونت صائحا : « هراء ! .. يجب أن يكون المرء عمليا في جميع الامور . انهم جسد مسرورين ، وأؤكد لك .. آه ، اسمع يا .. اطلب شيئا نسدله على النافذة ، والا تعرضنا لتيار هوائي بالليل ! »

وفي تلك اللحظة ، اقبل الفارس الكهل ليتعرف الى الضابطين . ولم يغفل بالطبع ان يقول انه كان والكونت المرحوم زميلين - وان قالها وقد تخرج وجهه قليلا - وانه نعم بالحظوة لدى الكونت .. بل واضاف انه كان أسير فضله مرة او اثنتين . ولكنه اغفل أن يذكر أى فضل ذلك .. أهو اغفال الكونت ان يرد له المائة روبل التي اقترضها ، أو هو تعهده ان يلقي به على الجريد الذائب ، أو هو سبابه اياه امام جمع من الناس . . . وابدى الكونت الشاب ادبا جما للفارس الكهل ، وشكر له الماوى الذى اتيح له ولزميله . فقال الكهل : « يجب ان تلتمس لنا العذر ، ايها الكونت ، اذا لم يكن ماوى فخما ! » . . . وكاد بلقيه بصاحب السعادة ، وقد نسي عهده بمحادثة ذوى المكانة .. واستطرد قائلا : « ان بيت اختى صغير ، ولكننا سنسدل على النافذة ستارا فى الحال ، وسيصبح كل شيء كما تزوم » . وانحنى مغادرا الحجرة مسرعا ، لا ليأمر باحضار الستار ، وانما ليبدل بتقرير عن الضابطين .

واقبلت « اوستيوشكا » الحسنة بشال سيدتها ، فسدت به النافذة ، وقالت ان السيدة امرتها بان تسال السيدين عما اذا كانا يرغبان فى تناول بعض الشاى .. وبدأ ان الوسيط الريح قد أثر على مزاج الكونت ، فابتسم فى طرب ، ومازح « اوستيوشكا » حتى اوشكت ان تقول انه سافل ، وسألها عما اذا كانت سيديتها الصغيرة جميلة ، وقال - ردا عن سؤالها ان كانا يريدان شاىا - ان لها ان تحضر الشاى ، ولكن المهم هو ان تحضر شيئا من الفودكا ، وشيئا يؤكل ، اذا لم يكن عشائهما معدا .

وكان الخال متحمسا للكونت الشاب ، فراح يطنب في امتداح أدبه ، وفي اطراء الجيل الجديد من الضباط ، قائلا انه ارفع من الجيل الماضي بدرجة لا تدع سبيلا للمقارنة . ولم توافقه « آنا فيدوروفنا » ، فما من رجل يستطيع أن يسمو على الكونت فيدور ايفانيتش توربين .. وأخيرا ، اتخذ غضبها مظهرا جديا ، وقالت في جفاء : « ان من يفلبك أخيرا ، هو المفضل عندك يا أخى . ان الناس أكثر مهارة اليوم طبعاً ، ولكن الكونت فيدور ايفانيتش رقص بابداع ، وكان لطيفاً الى درجة ان كل امرئ كان متهوساً من أجله ، مع انه لم يسد اهتماماً بأحد سوى ! .. ومن ثم ترى انه كان هناك أناس لهم قدرهم ، في الايام السالفة كذلك ! » . وهنا بلغها طلب الفودكا ، والمنعشات الخفيفة ، فقالت : « رأيت يا أخى انك لا تتصرف قط التصرف الصحيح ؟ .. كان من الواجب ان تأمر بالعشاء ! .. مري بأعداده يا ليذا ! »

وهرعت « ليذا » الى المخزن لتحضر بعض الفطريات المخللة ، والزبد الطازج ، وأمرت الطاهية بأعداد بعض الفطائر المحشوة . وقالت آنا فيدوروفنا : « هل لديك شيء من شراب الشيرى يا أخى ؟ » . فقال : « لا يا اختاه ، لم يكن لدى شيء منه اطلاقاً ! .. انما الذى لدى « روم » يا آنا فيدوروفنا ! » . فهتفت : « او ليس الاثنان سواء ؟ .. أعطهما بعضه .. ولكن ، الا يكون من الافضل ان ندعوهما الى هنا يا أخى ؟ .. انك تعرف كيف تدعوهما ، وما اظنهما يستاءان ! » . فقال الفارس السكهل انه يشهد بأن الكونت الشاب اللطيف من ان يرفض ، واسرع ليدعوهما . فذهبت آنا فيدوروفنا الى حجرتهما وأرادت ثوبا حريريا ، وقلنسوة جديدة . ولكن ليذا كانت في شغل عن الثياب ، فلم تجد وقتا لتستبدل ثوبها القطنى الوردى ، ذا الكمين الفضفاضين . فضلا عن انها كانت في اقصى درجات الانفعال ، وقد تولاهها شعور بأن شيئا بديعا في

ارتقاها ، وكان ثمة غمامة داكنة تخيم على روحها ! .. لاح لها ان الكونت الفارس الجميل ، لا بد ان يكون مخطوئا جديدا لا ندره كنهه ، ولكنه .. جميل ! لا بد ان تكون اخلاقه ، وطباعه ، وحديثه ، من طراز غير عادي ، يختلف عن كل ما صادفت من قبل ! .. كل ما يخطر بباله او على لسانه لا بد ان يكون حكيما ، صوابا .. وكل ما يفعل لا بد ان يكون مشرفا .. وكل مظهره لا بد ان يكون جميلا ! .. ابدا ما داخلها ريب في ذلك . ولو انه طلب حماما من « البراندى » والعطور — لا مجرد بعض المنعشات — لما دهشت ، ولما لامته ، بل لاقتنعت اقتناعا راسخا ، بأن هذا هو الصواب ، وانه ضرورى ووافق الكونت لفوره عندما أنهى اليه الفارس الكهل رغبة اخته . فمسح شعزه بالفرشاة ، وارتدى زيه الرسمي ، واخذ علبه السيجار الذهبية . وقال لبولوزوف : « هيا ! » . فقال هذا : « من الخير ان لا نذهب في الواقع ! » . ثم اردف بالفرنسية : « لسوف نكبدهم الكثير ، ليكرمونا » . ولكن الكونت اهاب به ، قائلا : « هراء ! .. لن يكونوا الا سعداء بنا » . ثم عقب بالفرنسية : « ولقد قمت ببعض تحريات ، فعلمت ان هنا ابنة جميلة .. فهيا ! » . وهنا قال الفارس الكهل بالفرنسية ، لمجرد اشعارهما بانه الآخر كان ملما باللغة ، وقد فهم ما قاله : « معذرة ، ايها السيدان ! »

— (١٢) —

• تخرج وجهه ليرا وغضت بصرها — وقد خشيت ان تنظر الى الضابطين — وتشاغلت بملء ابريق الشاي ، عندما دخل الضيفان الحجر . اما آنا فيلدوروفنا ، فكانت تولى النقيض ، اذ قفزت وبادرت الى الانحناء ، وشرعت تتحدث الى الكونت الشاب ، دون ان تحول بصرها عنه .. فقالت انه



كان ذا شبه فلد بآيه ، وقدمت اليه ابنتها ، ثم راحت تقدم اليه الشاي ، والمربي ، والحلوى المصنوعة في البيت . ولم يبد أحد اى اهتمام بحامل العلم ، لتواضع مظهره وحيائه ، فسر لذلك كل السرور ، اذ كان - لوجه الحقيقة - يحملق في « ليزا » ، ويتجمع جمالها الذى أدهشه ، كما بدأ واضحا . وكان الخال ينصت الى حديث اخته مع الكونت ، والكلمات تتزاحم على شفتيه . متربصا فرصة يروى فيها ذكرياته في الفروسية . وفي اثناء تناول الشاي ، اشعل الكونت سيجارا ، فلم تقو « ليزا » على ان تمنع نفسها من السعال . وكان كثير الكلام ، لطيفا ، راح - في البداية - يروى اقاصيصه في الفترات التى كانت تتخلل حديث آنا فيدوروفنا المتدفق ، ولكنه ما لبث - في النهاية - أن انفرد وحده بالحديث . . . شيء واحد أذهل مستمعيه . ذلك انه كان يستخدم في قصصه كلمات لم تكن تعتبر نابية في الوسط الذى كان ينتمى اليه ، ولكنها كانت تبدو - في الوسط الذى جلس فيه - جريئة أكثر مما ينبغي ، حتى لقد انزعجت لها آنا فيدوروفنا ، واشتد تفرج وجه ليزا . . . ولكن الكونت لم يلاحظ ذلك ، وظل مطمئنا ، منطلقا ، متظرفا !

وملات « ليزا » الاقداح في صمت ، ولم تسلمها الى يدي الزائرين ، وانما وضعتها على مائدة بالقرب منهما ، وهى بعد

لم تغلب على انفعالها ، وقد راحت تصغى الى ما كان يندر من الكونت . وما لبث حديثه - الذى لم يكن جد عميق بالنسبة لها - وتردده فى الكلام ، ان طمان انفعالها رويدا . فهي لم تسمع منه الا شيئا اللبقة الباردة التى توقعتها فى خيالها . وعندما ملات قدحه للمرة الثالثة بالشاي ، التقت عينها المستحييتان بعينيه ، فلم يقض بصره ، وانما ظل ينظر اليها فى هدوء ، وبابتسامة خفيفة .. فشعرت بشيء من السلك العدائى نحوه ، وسرعان ما تبينت انه لم يكن يختلف فى شيء عن الناس الذين اعتادت ان تلقاهم ، بل ولم يكن ثمة ما يدعو لان تخشاه ! .. ومع ان اظافره كانت طويلة ونظيفة ، الا انه لم يؤت شيئا فذا من معالم الجمال . وطوت ليزا حلمها فجأة - وان لم تسلم من ألم داخلى - وازدادت هدوءا ، ولم يعد يمضها سوى النظرات الصامتة ، التى شعرت ان حامل العلم كان يوجهها اليها .. وقالت لنفسها : « لعل فتاى ليس ذاك الضابط ، وانما هذا ! »

« ١٣ »



• دعت السيدة المعجوز ضيفها - بعد الشاي - الى حجرة الجلوس . واستوت ثانية فى مقعدها المألوف ، وهى تتساءل : « ما أظنك تريد ان ترتاح يا كونت ؟ » . فلما تلقت جوابه

بالنفي ، قالت : « ترى ما الذى استطيع ان افعله لتسلية ضيفينا العزيزين ؟ .. األعب الورق يا كونت ؟ .. اذن ، فعليك يا شقيقى أن تهيب لنا لعبة » - فقال الفارس : « انك تجيدين لعبة « الترجيح » (١) ، فلماذا لاألعبها جميعا ؟ .. األعب يا كونت ؟ .. وأنت الآخر ؟ » .. فأعرب الضابطان عن استعلادهما لان يفلا كل ما يروق لمضيفهم الكرماء ! وأحضرت « ليزا » مجموعة أوراق اللعب القديمة ، التى كانت تستخدمها لاستطلاع المستقبل ومعرفة متى يزول ثورم وجه أمها ، أو متى يعود خالها - اذا ما ذهب الى البلدة - أو هل يزورهم أحد من الجيرة ، أو ما الى ذلك . وكانت هذه المجموعة أنظف من المجموعة التى كانت أمها تستخدمها لاستقراء الحظ . وتساءل خالها : « ولكن ، لعلكم لا تلعبان لقاء مراهنات صغيرة .. اننى ألعب مع آنا فيدوروفنا على انصاف كوبكات .. ومع ذلك فهى تكسب كل أموالنا ! » . فقال الكونت : « أبة مراهنات تروق لكم ، تسرنى ! » . فقالت آنا فيدوروفنا : « حسنا ، اذن .. فليكن الرهان « كوبيك » ورقيا واحدا ، لمرة واحدة ، اكراما لمضيفينا ! .. فلينازلونى أنة العجوز المسكينة ! » . وقالت فى سريرتها ، إذ استولى عليها فى شيخوختها شغف بسيط بالمقامرة : « لعلى أكسب منهما « روبل » ، أو حوالى الروبل ! »

وقال الكونت : « اذا شئتم علمتكم كيف تلعبون « البأس » ، فهى طريقة بديعة ! » . ورغب كل امرئ فى أن يتعلم الطريقة

(١) فى هذه اللعبة يتبارى اللاعبون فى اعلان الحيل التى تمكنهم أوراقهم من ألبانها . والذى يذكر اعل رقم ، يختار مجموعة الورق التى يستخدمها ، ويؤدى الحيل التى اعلنها ، والا دفع الغرامة . واللاعب الذى يعلن انه « بائس » ، يعنى أن لا حيل لديه ، فاذا قام بعيلة ما ، دفع الغرامة . واصطلاح « أس وفاليه على يباقي » معناه أن اللاعب يحمل اعلى ورقتين

الجديدة التي شاعت في (بطرسبورج) . وزعم الخال أنه كان يعرفها ، ولكنه نسيها قليلا . بيد أن « آنا فيدوروفنا » لم تستطع أن تفهمها البتة ، رغم طول التكرار ، حتى اضطرت في النهاية إلى أن تبسم وتهز رأسها وتقول أن كل شيء أصبح واضحا لها .. ولم يضحك أحد عندما أعلنت - خلال اللعب - أنها « بائس » ، مع أنها كانت تمسك في يديها « أس وفاليه على بياض » ، وضاعت عليها ست حيل ! .. وما لبثت أن ارتبكت ، وتبدت عليها الحيرة والتردد ، ثم قالت أنها لم تألف الطريقة الجديدة . ومع ذلك فقد ظل الكونت مصرا على الكسب منها ، رغم الغمزات التي راح زميله يزجيها إليه بقدمه ، تحت المائدة !

وأحضرت « ليزا » مزيدا من الحلوى ، وثلاثة أنواع من المربي ، ونوعا خاصا من التفاح حفظته منذ الموسم السالف . ووقفت خلف أمها تراقب اللعب ، وتنظر إلى الضابطين - من آن لآخر - مختلسة النظر ، بوجه خاص ، إلى يدي الكونت البيضساوين - باظافرهما الوردية المعنى بها - وقد راحتا تتداولان الأوراق برشاقة ومران وثقة ! .. ومرة أخرى ، خسرت آنا فيدوروفنا ، فاشتد استياؤها . وقالت ليزا تسرى عنها ، وتحاول أن تعينها على الموقف السخيف : « لا تكثرئي يا أماه ، فلسوف تكسبين كل ما خسرت ! .. دمي خالي يغش ، فهو لن يلبث أن يفتضح ! » . فرمقت آنا فيدوروفنا ابتها بنظرة مرتاعة ، وهتفت : « ليتك تساعديني ، يا ليزا العزيزة ! » . فاجابت ليزا : « ولكنني لا أعرف هذه الطريقة ، أنا الأخرى ، وما أرى إلا أنك ستخسرين مبلغا كبيرا ، ولن يتبقى شيء لثوب ييموشكا الجديد ! » . فقال حامل العلم ، وهو يتطلع إلى ليزا ، تواقا إلى مجاذبتها أطراف الحديث : « أجل ، من السهل أن يخسر المرء - بهذه الطريقة - عشرة روبلات فضية ! »

وأمرت السيدة العجوز ببعض التبيد الخفيف المصنوع في البيت ، فشريت قدحين ، وأشتد احمرار وجهها ، وبدأ أنها وطلت العزم على أن تتحمل أى حظ يصيبها . وافلتت خضلة من شعرها الاثيب ، فلم تحاول أن تردّها الى مكانها . وما من شك في أن المبلغ الذي خسرتّه بدا لها كما لو كان بالملايين ، فتحمست لاسترداده . واخذ حامل العلم يكثر من دفع صاحبه بالقدم ، تحت المائدة .. وأخيرا ، انتهى اللعب ، بالرغم من محاولات آنا فيدوروفنا الخبيثة ، بتعمد الاخطاء في الجمع ، كي تزيد من مرات كسبها . ومع ذلك فقد اشتد بها الجزع اذ بلغت خسائرها أكثر من اثنين وثلاثين من الروبلات الورقية .. ولم يحفل الكونت بجمع أرباحه بل نهض لفوره ، وسار الى النافذة التي كانت « ليزا » تقف عندها منهمكة في تنسيق بعض المخللات للعشاء . وهناك فعل ما كان حامل العلم يحاول طيلة الامسية أن يفعله دون أن يفلح .. استطاع أن يجاذبها الحديث حول الجو ! وفي تلك الاثناء ، كان حامل العلم في موقف محرج . فان آنا فيدوروفنا بدأت تفرج من غضبها ، في غياب الكونت ، وفي غياب ليزا بوجه خاص ، اذ كان وجودهما يسرى عنها !

وقال بولوزوف ، لمجرد أن يقول شيئا : « لقد كان من المعيب أن نكسب منك كل هذا ، في الواقع .. انه لمخجل حقا ! » . فصاحت : « طبعاً ، مادمتم تبتكرون طرقا جديدة لا أهرقها .. حسنا ، كم بلغ المجموع بالعملة الورقية ؟ » . فقال أخوها الذي أطربه أن كان رابحا : « اثنان وثلاثون روبل ورقي .. وربع ا هات النقود يا اختاه .. ادفعي ! » . فصاحت : « سادفعها جميعا ، ولكنك لن تستدرجني ثانية .. انه مبلغ لن استرده ما حييت ! » . ونهضت مسرعة الى حجرتها ، وهي تمايل ، وعادت بالنقود . واستولى الخوف على « بولوزوف » خشية ان تعنف « آنا فيدوروفنا » معه

إذا تحدث إليها ، فتركها في صمت وهدوء ، وانضم إلى الكونت وليزا اللذين كانا يتكلمان عند النافذة

أخذت نسيمات ليل شهر مايو العليقة تداعب - بين آن وآخر - لهب الشمعتين الكبيرتين اللتين قامتتا على المائدة التي أعدت للعشاء ، في حجرة الجلوس .. وكان النور يغمر الحديقة التي كانت النافذة تطل عليها ، ولكنه نور من نوع آخر .. نور القمر الذي أوشك أن يكتمل ، وقد راح يسبح فوق قمم أشجار الزيزفون السامقة ، وهو يضاعف من تألق السحب البيضاء التي كانت تضيء على وجهه غلالة رقيقة ، بين الحين والحين .. وكانت الضفادع تنق عاليا ، بجوار البركة التي خلع القمر على أحد جانبيها بريقا فضيا ، كان يتضح للأنظار عبر الطريق المحفوفة بالأشجار .. وأخذت بعض الطيور ترفرف وتبدأ ، أو تتواثب ، من غصن إلى غصن ، في مجموعة من أشجار البنفسج الشدية . التي كانت فروعها تتمايل في دلال نحو النافذة .. وقال الكونت ليزا ، وهو يجلس على حافة النافذة المنخفضة : « ياله من جو بدیع ! .. أعتقد أنك تكثرين من الرياضة هنا ! » . فاجابت ليزا ، وهي لا تشعر بأي خجل من الحديث معه : « أجل . فحوالي الأسبعة من كل صباح ، أعني بتفقد رغبات أمي في الضيعة وأصطحب ييموشكا - خادمة أمي الخاصة - في نزهة على الأقدام » . فقال وهو يثبت عوينة (مونوكل) على إحدى عينيه ، وينقل بصره بين ليزا والحديقة : « ان الحياة في الريف تشرح الصدر ! .. أولا تخرجين قط بالليل ، للنزهة على ضوء القمر ؟ »

- لا ، ولكنني اعتدت - قبل عامين - أن أتمشى مع خالي في كل ليلة مقمرة . إذ كان يعاني من مرض غريب .. لم يكن

بوسعة لن ينام عندما يكون القمر بدرا ، اذ أن غرفته الصغيرة تطل على الحديقة مباشرة ! .. ومع أن نافذتها منخفضة ، إلا أن ضوء القمر ينساب خلالها مباشرة !

وأومات نحو غرفة خالها ، فقال الكونت : « عجيب .. لقد ظننتها غرفتك » . وكان جوابها : « لا ، فلن أنام فيها سوى الليلة .. فقد خصصت غرفتي لكما » . وهتف الكونت : « أحقا هذا ؟ .. ويلي ! لن أغفر لنفسي أن أزعجتك » . وترك العويئة تسقط على صدره ، اظهرا لاستيائه ، وأردف : « لو أنني عرفت بأننى سأزعجكم .. » . فقالت : « لازعاج هناك ، بل اننى - على النقيض - مسرورة ، فان حجرة خالى بديعة ، ومشرقة بالضوء ، ونافذتها منخفضة ، بحيث أستطيع أن أجلس فيها الى أن يواتينى النعاس ، أو أن أهبط الى الحديقة فاتمشى قليلا ، قبل أن آوى الى فراشى » .

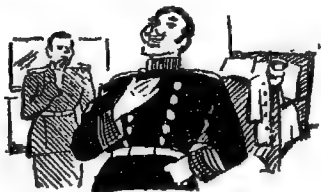
وقال الكونت لنفسه ، وهو يعيد العويئة الى عينه ، ويتأملها « يا لها من فتاة رائعة ! » . وحاول أن يمس قدمها بقدمه ، وهو يتظاهر باصلاح جلسته على حافة النافذة . .. « وما أبرعها اذ اطلعتنى على أننى أستطيع أن أراها من الحديقة وهى تجلس فى النافذة ، اذا شئت ! » . وخيل اليه أن النصر سهل ، ففقدت ليزا فى نظره بعض سحرها ، وما لبث أن قال ، وهو يرسل البصر الى الطريق المحفوفة بالاشجار : « وما أبهج أن يقضى المرء ليلة كهذه فى الحديقة ، مع حبيب ! » . وارتبكت « ليزا » لهذه الكلمات ، وتكررت لمسات قدمه لقدمها . فقالت - دون تفكير - محاولة أن تخفى اضطرابها : « أجل ، فان المشى تحت ضوء القمر جميل ! » . وبدأت تشعر بشئ من عدم الارتياح . وهمت أن تنصرف بوعاء « المخللات » ، عندما انضم اليهما حامل العلم ، فشعرت برغبة فى أن تتبين أى نوع من الرجال هو الآخر !

وقال الشاب : « ما أجملها من ليلة ! » . فقالت لنفسها :
 لا حديث لهما إلا عن الطقس ! » . واستطرد بولوزوف : « وما
 أبدعه من منظر ! .. ولكنني أحسبك قد مللته ! » . فتساءلت :
 « ولماذا تحسب ذلك ؟ .. من المحتمل أن يمل المرء ثوبا أو
 غذاء طال تَعُودُهُ إياه ، ولكن .. كيف يمل المرء حديقة جميلة ،
 يولع بأن يتمشى خلالها .. لاسيما عندما يكون القمر مشرقا ؟ !
 .. إن البركة تبدو واضحة ، خلال نافذة بخالي ، وسأملني
 النظر منها الليلة ! » . فقال الكونت وقد ساءه أن حلل مقم
 زميله دون أن يستوثق من موعد الليلة : « ولكنني لا أظن أن
 لديكم أية بلابل في هذه المنطقة » . فقالت : « لا ، غير أنه
 كانت هنا بعض البلابل منذ عام ، ولكن الصيادين وأجراس
 العربات أخافتها .. ولقد كنت — منذ عامين — أجلس مع
 خالي في الدرب المغطى بفروع الشجر ، فننصت اليها لساعتين
 أو أكثر ! »

وبعد العشاء — الذي راح الكونت خلاله يطرى الطعام ،
 ويقبل عليه ، مما بدد بعض ضيق رب البيت — تعني
 الضابطان لمضيفيهما ليلة هائلة ، وذهبا إلى حجرتهما .. ولقد
 صافح الكونت الفارس الكهل ، وشهد ما كانت دهشة آنا
 فيدوروفنا عندما صافحها هي الأخرى ، دون أن يقبل يدها
 .. كما صافح ليزلا ، وهو يحلق في عينيها ، وعلى شفثيه
 ابتسامته اللطيفة . وكما أخجلت نظرته الفتاة ، في هذه المرة ،
 وجعلتها تقول لنفسها : « انه مليح الطلعة جدا ، ولكنه كثير
 الاغترار بنفسه ! »

— « ١٤ » —

• قال بولوزوف لصاحبه ، حين أصبحا في غرفتهما : « ألم
 نخجل من نفسك ؟ .. لقد تعمدت أن أخسر ، وظللت أمسى



قدمك ، تحت المائدة . الست في خجل ؟ لقد استاءت السيدة العجوز أيما استياء ! » . فضحك الكونت من قلبه ، وقال : « لكم كانت مضحكة تلك السيدة العجوز ! » . وظل يضحك في مرح ، حتى ان « جوهان » - الذي كان يقف أمامه - أشاح بوجهه ليخفي ابتسامه .. بينما تابع الكونت حديثه وهو يضحك : « وتصور أن يصيبها هذا مع ابن صديق للأسرة ! » . فقال بولوزوف : « لا ، لقد كان تصرفك سيئا في الواقع . لقد كنت شديد الأسف من أجلها ! » . فصاح الكونت : « يله من هراء ! .. وكم أنت صغير ، عديم التجربة ! .. لماذا أردتني على أن أخسر ؟ ولماذا ينبغي على المرء أن يخسر ؟ .. لقد ألفت الخسارة قبل أن أتعلم اللعب ! ثم إن عشرة روبلات قد تكون ذات نفع باعزى . انظر الى الحياة نظرة عملية ، والا بقيت دائما في ضيق ! »

ولم بولوزوف الصمت ، لاسيما وأنه رغب في هدوء يفكر خلاله في « ليزا » التي تراءت له ذات طهروجمال غير عادين . وخلق ثيابه ، ثم استلقى على السرير الوثير ، التنظيف ، الذي أعد له . وقال لنفسه وهو ينظر الى النافذة التي اسدل عليها الشال بدل الستار ، فتسلل نور القمر خلال النسيج . « أي عبث هذا الشرف والمجد العسكريين ! .. ان السعادة في العيش في عش هادئ ، مع زوجة حبيبة ، عاقلة ، سالجة

الفؤاد .. اجل ، هذه هي السعادة الحقة . النائمة ! » . على انه لم يفض لصديقه بهذه الخواطر - لسبب ما - ولم يثر ذكر الفتاة الريفية ، رغم انه كان موقنا من أن الكونت - هو الآخر - كان يفكر فيها !

وقال للكونت الذي كان يلدع الحجرة : « لم لا تخلع نيايك ؟ » . فاجابه : « لا أحس برغبة في النوم بعد . تستطيع أن تطفىء الشمعة اذا شئت ، وسأستلقي على الفراش بثيابي ! » . وواصل السير في الحجرة ، فقال بولوزوف الذي شعر - بعد سهرة الليلة - بمزيد من عدم الرضى عن نفوذ الكونت وتأثيره عليه ، وخالجه الميل الى التمرد على هذا الوضع : « لا تشعر برغبة في النوم بعد ؟ ! » . وقال في سريره ، وكأنه يخاطب توريين في المان : « (بوسعى أن تصور مايجرى الآن في رأسك ذى الشعر المنسق . لقد رأيت مدى إعجابك بالفتاة ، ولكنك غير كفء لان تفهم مثل هذه الإنثى الساذجة ، الشريفة .. انما تشتهي امرأة مثل « ميئا ») » . وأشارات الكتف الخاصة بضابط في رتبة « كولونيل » . يجب أن أسالك حقا عن رأيك في الفتاة » . والتفت اليه ، ثم عدل عن رأيه ، فقد شعر بأنه لن يقوى على أن يتشبث برأيه أمام رأى الكونت عن ليزا اذا كان مخالفا لما ينبغى ، وقد يعجز عن أن يتحاشى موافقته ، فقد اعتاد أن يرضخ لتأثير الكونت ، رغم انه يشعر - يوما بعد يوم - بأن هذا التأثير أصبح يثقله ويضنيه .

وقال لاذ رأى الكونت يرتدى قلنسوته ويسعى الى الباب : « الى أين انت ذاهب ؟ » . فاجابه : « سأذهب لاتفقد الاحوال في حظائر الخيل » . وهتف الشاب في سريره : « عجيب ! » . ولكنه أطفأ الشمعة ، وولى وجهه شطر الحائط ، محاولا أن يطرد عن ذهنه افكارا سخيقة سداها الغيرة ولحمتها العلاء نحو صديقه .

وفي تلك الاثناء ، كانت « آنا فيدوروفنا » قد آوت الى مخدعها بعد أن قبلت أخاها وابنتها ووصيفتها - كعادتها - ورسمت علامة الصليب على صدر كل منهم .. وكان قد انقضى زمن طويل مذ تعرضت السيدة العجوز لمثل هذا العدد من الانفجالات القوية في يوم واحد ، فلم تستطع أن تؤدي صلاتها في هدوء ، ولم تقو على أن تطرح عنها الذكريات المحزنة ، الحية .. ذكريات الكونت المتوفى ، والشاب المتأنق الذي غشها في غير اشفاق . على انها ما لبثت أن خلعت ثيابها ، وشربت نصف قدح من « الكفاس » (١) ، ثم رقدت على سريرها . وتسلمت قطعتها المدللة الى الحجرة في خفة ، فنادت بها « آنا فيدوروفنا » ، وشرعت تمسح على ظهرها ، وتنصت الى هديرها (٢) . بيد انها لم تستطع النوم ، فقالت لنفسها : « لابد أن القطة هي التي تستيقظني مؤرقة ! » ، وطردتها من السرير ، فقفزت الى الأرض بخفة ، وسارت - وهي تحرك ذيلها المنفوش - فقفزت فوق المدفأة . وأقبلت الوصيقة التي كانت تنام في حجرة « آنا فيدوروفنا » ، فبسطت فرائشها اللباد على الأرض ، وأطفأت الشمعة ، وأوقدت فتيلة أمام الأيقونة ، وسرعان ما ارتفع غطيها .. ولكن النعاس لم يواتها ، فاذاً أغمضت عينيها ، كان وجه الفارس الشاب يتمثل لها ، ويخيل اليها أنه كان في الحجرة متذكراً في أي شيء . واذاً ذاك كانت تفتح عينيها ، وتأمل كل شيء حولها على ضوء الفتيلة .. وأحسّت بحرارة تدب في جسدها .. ولم تعد تحتمل دقائق السبابة التي كانت تعلو المنضدة ، ولا غطيها الخادم ، حتى انها أبقتها وأمرتها بأن لاترسل غطيها ! ..

(١) مشروب غير مسكر ، يشبه « السويدا » في مادته وطريقة صنعه .

(٢) الصوت الباطني الذي تبعده اللبلة عابرة

وعاودتها الأفكار التي كانت تدور حول ابنها ، والكونت
الراحل ، وابنه الشاب ، ولعب الورق .. واختلطت الأفكار
جميعها ، فكانت تتمثل نفسها وهي تراقص الكونت القديم ،
وتشعر قبلاته على كتفيها الناصعتين .. ثم تتمثل لنتها في
احضان الكونت الشاب .. وراحت تقول لنفسها : « لا ، أن
الناس اليوم غيرهم بالأمس .. كان الكونت الآخر على استعداد
لان يشب في النار من أجلى ، وكان على حق . أما هذا الكونت
فينام كالاحمق ، سعيدا بأن يريح منى .. فلا غرام يستهويه !
.. ما كان أروع الآخر اذا جثا على ركبتيه قائلا : « ما الذي
تريدننى على أن أفعل ؟ .. اننى على استعداد لان أقتل
نفسى اذا شئت ! » .. ولو اننى طلبت ، لقتل نفسه ! »
وفجأة ، سمعت وقع قدمين عاريتين في الردهة ، ثم
اندفعت ليزا - وعلى كتفيها شال - فارتمت على سرير أمها
وهى شاحبة ترتجف !

كانت ليزا قد اوت وحيدة الى الغرفة التي كانت لخالها
من قبل ، فارتدت سترة بيضاء ، ولفت رأسها الفزير الشعر
بمنديل ، واطفأت الشمعة ، وفتحت النافذة وجلست على
مقعد مندها ، مرسله بصرها الى بركة الماء التي كانت تلمع
في ضوء القمر القضى .. وانبعث أمامها - فجأة - كل ما كان
يشغل بالها ، وقد تبدى على ضوء جديد : أمها العجوز والكثيرة
النزوات - التي أصبح حبها الاعمى لها جزءا من نفسها -
وخالها المتدامى اللطيف ، ورقيق النار ورقيق القرية الذين
كانوا يعبدون مولاتهم الصغيرة ، والبقر والعجول ، وكل هذه
الطبيعة التي كانت تموت وتبعث مزارت لاحصر لها ، والتي
نشأت في غمارها ، محوطة بخلق تحبهم ويحبونها .. كل
هذه الأمور التي اعتادت أن تضى على روحها اشراقا وسكينة

ناعمة ، بدت لها - فجأة - غير كافية لأرضائها . . بل بدت
كثيبة ، غير ذات قيمة ، وكأنما كان ثمة هاجس يهيب بها :
« أينها الحمقاء الصغيرة ! . . لقد عشت عشرين عاما في
السفاسف ، تخدمين الغير دون أن تدري لذلك سببا ، ودون
أن تدركي ماهي الحياة ، وما هي السجادة ! » ، وراحت
تغوص يبصرها في الحديقة التي أسيغ القمر عليها نوره . .
تري ما الذي بعث في بالها هذه الخواطر ؟ . . لم يكن السبب
عبا طارئا ، تولاهما نحو الكونت ، كما قد يخيل للمرء ، فهي
- على العكس - لم تمل اليه . . وكان من المحتمل أن تكون
أكثر استعدادا لأن تميل الى زميلة ، لولا أنه كان غير مريح ،
وكان ساذجا ، صموتا ، فظلت تنسأه - على غير تعهد -
وتتذكر طيف الكونت في غضب وحنق ، إذ أيقنت أنه لم يكن
المثل الأعلى الذي اعتادت أن تحلم به . . كان مثلهما الأعلى
مفرط الجمال في كل شيء ، جديرا بلحب في مثل هذه الليلة ،
وبين هذه الطبيعة ، دون أن يصرفها عن جمالها . .
ولقد أدت الوحدة التي كانت تعيش فيها من قبل - في
غياب من يحتمل أن يسترعى انتباهها - الى أن ظلت قوة
الحب ، التي أودعتها العناية في كل منا على قدم المساواة ،
هادئة ، ساكنة في صدرها . فعاشت طويلا في سعادة آسنة
كان ينبعثها الشعور بوجود هذه القوة في أحماقها ، وكانت
تفتح مغاليق قلبها - بين حين وآخر - لكي تتأمل كنوزه ،
حتى تفقد منها على أي امرئ ، دون تفكير . فليدعها الله
تعم بهذه النعمة النادرة ، الى نهاية عمرها ! . . فمن يدري
أنها ليست خير النعم وأقواها ، وأنما ليست السعادة الحقة ،
والميسورة ؟ ! . . وهتفت الفتاة لنفسها : « نواه يا إلهي ،
أيها الرب . . امن المحتمل أن أكون قد بددت شبابي وهنائي
عشيا ، وأنني لن أحظى قط . . لن أحظى قط . . ؟ »
وتطلعت الى أعماق السماء التي أثارها القمر ، وغطتها سحب

كالصوف المندوف ، حجبت النجوم ، واخذت تسعى نحو القمر . ثم قالت لنفسها : « لو قدر لهذه السحابة الصغيرة ان تصل الى القمر ، فستكون هذه اشارة الى ان مايجول بخاطري صحيح ! » وسبحت السحابة الصغيرة الرقيقة ، فغطت الجزء الاسفل من قرص القمر ، واذا بعنمة تدب في الضوء الذي كان يتراعى على الحشائش ، وعلى قمم اشجار الموالح ، وعلى البركة .. وازدادت ظلال الاشجار قتامة .. وسرت خلال اوراق الشجر ريح خفيفة - كانها تتم التناسق بين الظلال القائمة - فحملت الى النافذة عسير الخضرة المخضلة بالندى ، والمتربة الرطبة ، والبنفسج !

وقالت الفتاة تواسى نفسها : « لا .. اذا غرد العندليب الليلة ، فستكون هذه اشارة الى ان كل ما افكر فيه هراء ، ولان لاداعي لان اياس ! » .. وسكنت في جلستها طويلا ، ترتقب شيئا ما ، بينما عاد الاشراق الى كل شيء ، ثم عادت السحب الصغيرة تسبح عابرة امام قرص القمر ، مشبعة العنمة في كل شيء : وكان النعاس قد بدأ يراود أجفان الفتاة ، عندها انبعث من لدن البركة شدو العندليب فأيقظها من اغفائها ، : وفتحت العذراء الزيفة عينيها ، وانتعشت روحها مرة اخرى ابتهاجا بتلك الرابطة الغامضة التي كانت تربط بينها وبين الطبيعة التي استلقت امامها مشرقة ، هادئة .. واستندت ذراعها الى حافة النافذة ، واطلت ! .. وغشى قلبها شعور باسى عذب ، ناعم .. ومالات عينيها دموع حب طاهر شاسع ، يهفو الى للرى .. دموع مسرية ، هواسية . واستندت للفتاة راسها الى ذراعها ، وجالت بخظنها ادعيتها المفضلة ، ثم قامت وعيناها مخضلتان بالدموع .

وايقظتها لمسة .. لمسة كانت خفيفة ، ولطيفة . واشتد ضغط اليد على يدها . وفجأة ، تنبث الى الواقع ، فصرخت ، وقفرت ، وهرعت مغادرة العجزة ، وهى تحاول ان تقنع

نفسها بأن الذى كان يقف فى ضوء القمر - فى الحديقة - لم يكن الكونت .. بل كان طيفا !

— « ١٥ » —



• والحق انه كان الكونت . وعندما سمع صرخة الفتاة ، وحشرجة منبهة من الحارس الساهر خلف سياج الحديقة - وقد نبهته الصرخة - اندفع عبر الحشائش المنداة ، الى جوف الحديقة ، وقد خامره شعور اللص الذى أوشك أمره أن يفتضح .. وراح يردد لنفسه : « يالى من أحقق ! .. لقد أخفتها ! .. كان خليقا بى أن ائلف فى ايقاظها ، بأن اتحدث اليها فى رفق .. يالى من جلف ! » . وتوقف ، واصفى ، فاذا الحارس قد نفذ الى الحديقة ، وهو يجر عصاه خلفه . وأسرع الكونت الى البركة ينشد مخبأ ، فأفرغته الضفادع ، اذ قفزت من تحت قدميه الى الماء .. ومع أن حذاه ايتلا ، الا انه جلس القرفصاء ، وراح يستعيد كل ما جرى .. كيف يبحث عن نافذتها ، وكيف رأى - أخيرا - طيفا أبيض ، وكيف اقترب من النافذة ثم ابتعد عنها مرارا ، وهو ينصت

الى أنفه صوت .. كيف كان يشعر - في لحظة - بيقين من أنها كانت تنتظره ، مستاءة لتأخره .. ثم يشعر - في اللحظة التالية - بأن من المستحيل أن تكون قد قبلت أن تلقاه بمثل هذه السهولة .. ثم كيف أقنع نفسه - أخيراً - بأن خجل العذراء الريفية هو الذى جعلها تتظاهر بالنوم على حافة النافذة ، فسار اليها في مزم .. ثم تكص على عقيبته .. وبعد أن عبر نفسه مراراً بالجن ، اقترب في جراءة ، ومس يدها !

ومرة أخرى ، أرسل الحارس سعالاً اجش ، ثم غادر الحديقة .. واغلق مصراها نافذة الفتاة ، وسمع رتاجهما يحكم من الداخل .. وكان هذا مثيراً لاساه .. كان على استعداد لان يضحى بأى شيء فى سبيل فرصة تمكنه من أن يبدأ من جديد ، فلا يتصرف بقاء كما فعل .. وراح يقول لنفسه : « فتاة رائعة .. ناضرة .. فائدة الى هذا الحد .. ومع ذلك فقد تركتها تغلت من بين أصابعى .. يالى من نذل أحق ! » . وأبى أن ينام ، فراح يسير على غير هدى ، فى الطريق التى كانت تحف بها أشجار الموالح ! .. واذا ذلك ، اسبغ الليل عليه - هو الآخر - منحه الناعمة .. منحة الاسى المستعذب ، والشعور بالحاجة الى الحب ! .. وكانت أشعة القمر الواهنة تلقى نقاطاً من الضوء خلال الافئنان الكثيفة ، على الارض ، حيث نمت بعض فروع من العشب ، أو تناثرت بعض أغصان ميتة .. وكان ثمة ضوء يسقط على غصين منحني ، فيجمله يبدو وكأنه مكسو بطبقة بيضاء .. وكانت أوراق الشجر المفضضة تنهams من آن الى آخر . ولم يكن ثمة ضوء فى اللأر ، كما كان الصمت يرفرف على الكون ، وفيما عدا صوت بلبل لاح انه كان يملأ الفضاء

المشرق ، الساكن ، الذى لانهاية له .. وهتف الشاب وهو يملأ صدره ببعبير الحديقة : « أولاه ، يا ربى ! .. أية ليلة هذه ! يالها من ليلة رائعة ! .. ومع ذلك ، فأتى اشعر بشيء من الحسرة ، وكاننى غير قانع بنفسى .. غير راض عن الناس وغير راض عن الحياة بأسرها ! .. يالها من فتاة حلوة ، بديعة ! .. لعلها تأذت منى حقا ، أو أصيبت بضر ! » . وهنا اختلطت أحلامه بعضها ببعض ، فأخذ يتمثل نفسه مع الريفية العلراء فى الحديقة ، فى اوضاع عديدة ، غريبة . ثم حل طيف خليلته « مينا » محل طيف الفتاة ، فهتف لنفسه : « يالى من أحق ! .. لم يكن ينبغى على سوى أن أحيط خصرها بذراعى ، وأقبلها ! »

وعاد الكونت الى حجرته ، وهو فى حسرة ، فاذا زميله لا يزال مستيقظا ، واذا به يتقلب فى فراشه ، ويلتفت اليه . فسأله : « ألم تنم بعد ؟ » .. فأجاب بولوزوف : « لا » .. وعاد الكونت يقول : « هل أثبتك بما حدث ؟ » . فقال الآخر : « هات ما عندك »

— لا ، يحسن أن لا أخبرك .. أو .. لأبأس ، سأخبرك ! وابتسم وهو يجلس على حافة سرير صاحبه ، وقال : « هل تصدق أن السيدة الصغيرة واعدتنى على اللقاء ! » . فقفز بولوزوف من فراشه صائحا : « ماهلا الذى تقول ؟ » . وأهاب به الكونت : « الا استمع الى » . ولكن الشاب صاح : « ولكن .. كيف ؟ ومتى ؟ انه مستحيل ! »

— كان ذلك بينما كنت تجمع الحصىاب لعقب اللعب .. فقد أخبرتنى انهما يستجلس فى النافذة بالليل ، وان من السهل أن ينفذ المرء من هذه النافذة . أرايت جنوى أن يكون المرء

عمليا ؟ ! .. ألم تسمعها بنفسك تقول - أثناء وقوفك معنفا
أنها ستجلس الى النافذة بالليل ، وتناول البركة ؟ ! »

- بلى ، ولكن هذا لم يكن يعنى شيئا ..
- هذا عين ما لم أستطع ادراكه : هل قالت ذلك متعمدة ،
أو أنها لم تكن ترمى الى غاية ؟ .. من المحتمل أنها لم تكن
راضية حقا في أن توافق بهذه السرعة ، ولكن الامر لاح على
التقيض . وانتهى أبشع نهاية .. لقد تصرفت بحماقة !

« ابتسم اذ دراء لنفسه ، فتساءل بولوزوف : « ماذا تعنى ؟
.. وأين كنت ؟ » . فتناسى الكونت ما حاول أن يوقعه في
روع صاحبه ، وروى له كل ما حدث ، ثم أردف : « لقد
أفسدت الفرصة بنفسى .. كان ينبغي ان أكون أكثر جرأة .
ولكنى جعلتها تصرخ وتجرى مبتعدة عن النافذة »

فابتسم حامل العلم في غير ارتياح ، ردا على ابتسامة
الكونت التى ظلت أمدا ذات اثر كبير عليه ، وقال : « اذن
فقد صرخت وهربت ! » ..

فقال الكونت : « أجل . ولكن ، لقد آن لنا ان ننام ! » ..
وبعاد حامل العلم يولى وجهه شطر الحائط :
وظل صامتا عشر دقائق . ولا يعلم سوى الله ما كان
يدور في نفسه ، ولكنه - حين التفت ثانية - كان يحمل
على وجهه امارات العذاب ، والعزم . فقال فجأة ،
وبخشونة : « كونت توربين ! » .. وأجاب الكونت في هدوء :
« أتهدى ؟ .. ماذا هناك أيها الضابط بولوزوف ؟ » . فصاح
بولوزوف : « كونت توربين .. أنك لوغدا ! » . وقفز من
فراشه مرة اخرى .



— « ١٦ » —

، نأروحت الفصيلة القرية في اليوم التالي ، ولم يـكـن
 أنضابطان قد التقيا بمضيفيهما مرة أخرى ، ولم يودعاهم . .
 لا أولم يكلم كل منهما الآخر ، بل عقدا العزم على أن يتبارزا
 في أول موسم تنزل فيه الفصيلة فيه . ولكن الكابتن «شولز»
 — وكان ضابطا طبيبا ، وفارسا رائعا ، وشخصية محبوبة من
 كل امرئ في الكتيبة ، وقد اختير ليكون شاهد الكونت —
 استطاع أن يسوى المسألة خير تسوية ، فلم يقتصر الامر على
 أن الضابطين الفارسين لم يتبارزا فحسب ، بل أن احدا في
 الكتيبة لم يعلم بالمسألة . وظل توربين وبولوزوف يتبادلان
 الاحاديث العادية ، اذا ما التقيا في حفلات العشاء والقامرة ،
 وان لم يعودا الى صداقتهما السالفة وودهما القديم !

((تمت))

راجع مكتبتك الخاصة لتتأكد من وجود كل هذه
الشواهد - التي قعمتها لك « مطبوعات كتابي »
اعدادها السابقة ب فهي ثروة أدبية لا تقدر بمال

- قصة مدينتين
ذات الثوب الأبيض
الخالدون
الخاطئة
حياة امرأة (جزءان)
الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم
أوديب
مدام بوفاري (جزءان)
عاشقات في الخريف
قلوب ضالة
ديكاميرون (الفليلة وليلة الايطالية)
الظما للحب
جين اير (٣ اجزاء)
فاتنات الرجال
رجال ونساء
الثار للوطن
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل
الابن الضال
اسرار الجاسوسية
بيلا دونا (٣ اجزاء)
بوشكين
اعترافات جان جاك روسو (٥ اجزاء)
قصص من الصين
ليالي بلزاك (الفليلة وليلة الفرنسية)
الايادة (٣ اجزاء)
قصص من روما
المسبحة (جزءان)
سفينة الملذات
- تشارلس ديكنز
ويلكي كولينز
ديل كارنيجي
سومرست موم
جى دى موباسان
البرتو مورافيا
سوفوكليس واندريه جيد
جوستاف فلوبر
ستيفان زيفايچ
طاغور
جيو فاني بوكاشيو
ميكا والتارى
شارلوت برونتي
مارجورى كورجين
جوركى
جون شتاينيك
أدوين چون ديفيز
هنرى بوردو
برنارد نيومان
روبرت هتشنز
ليديا لامبير
- أروغ نماذج الادب الصينى
أونوريه دى بلزاك
هوميروس
البرتو مورافيا
فلورنس باركلى
موريس ديكبورا



”ليو تولستوى“ االكاتب الكبير،
والقصصى المبدع، والفيلسوف
العظيم .. فى نهاية عمره .

الكونت ”ليو تولستوى“ عندما كان
ضابطا بالجيش القيصرى،
فى التاسعة والعشرين من عمره ..

لم يكن السيف فى يد ”تولستوى“ - فى صدر شبابه - أقوى من القلم حين امتشق
ليفزو العقول والأذهان ، كداعية للسلام والإنسانية .. ولقد فهد التاريخ اسم
”تولستوى“ كفيلسوف ، ولكن كان إنسانا قبل أن يكون فيلسوفا . فام تكن فلسفته
نصوصا جامدة ، ولا مبادئ مائة ، وإنما كانت رسالة عملية لإصلاح الإنسان ، سواء
فى مجتمعه الفردى ، أو مجتمعه المحلى - الوطن - أو المجتمع الأكبر .. العالم كوحدة !
والقصتان الطويلتان اللتان يحتويهما هذا العدد من ”مطبوعات كتابى“ ، هما - بإجماع
النقاد - خير ما كتب ”تولستوى“ من قصص ، قبل أن يتفرغ لتأليف رواياته .
الخالدتين : ”الحرب والسلام“ ، و ”أنا طارنيا“ .. وقد صور فى إهداء
الأرض - فى روسيا القيصرية - محلا نفوس تلك الطبقة ، كاشفا عن
فى الثانية حياة الطبقة الراقية - فى عهد القياصرة - بما فيها من تفاعله
وفى كليهما ، كان ”تولستوى“ يخدم رسالة واحدة ، هى : أن
ورفع قيمة الكرامة الإنسانية .

Bibliotheca Alexandrina



0559085

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الآمينة لشوامخ الكتب العالمية